بسم الله الرحمن الرحيم

— تصدير —

وتمضي مجلة «آداب الرافدين» بقدرتها الذاتية على البقاء، محققة لنفسها شخصية علمية رصينة بين المجلات الأكاديمية، لانها أخذت نفسها برسوم وتقاليد في اختيار البحوث وتقويمها وتنظيمها أوصلتها الى ماهي عليه الآن، وهي تصدر عددها العشرين في سلسلتها المباركة، وهو العدد الخامس الذي يصدر بروح المشاركة التي استعد لها التدريسيون الفضلاء سعياً الى نافذة يطلون منها على القارىء المتخصص الذي يبحث على المعرفة المحررة الدقيقة فيها وفي مثيلاتها من المجلات، فهم مابخلوا عليها بعطائهم الفكري المعزز بعطائهم المادي كيما تواصل سيرها على النهج العلمي المرسوم لها بكفاءة. وسلامة .. واقتدار، وفقهم الله، ووفق هذه المجلة بهم الى خير مانريدلها بقيادة فارس الأمة القائد الملهم صدام حسين «حفظه الله» والحمد لله اولا وأخيراً.

«هيئة التحرير»



شعر عبدالله باشعالم

د.سالم احمد الحمداني
استاذ الأدب الحديث
كلية الآداب ــ جامعة الموصل

توطئة :

هوعبدالله أفندي بن محمد جلبي العمري ، ولد سنة ١٢٠٨هـ ، ونشأ نشأة دينية ، ودرس في معاهد الموصل،وتضلع في علوم كثيرة منها : الفقه والأدب والقرآت السبع .

سافرالى استانبول ، وظهر فضله فيها ، فأنعم عليه السلطان بلقب باشعالم ، أي (رئيس العلماء) ثم عاد الى الموصل وتولى الأفتاء فيها ، ودرس في مدارس عديدة .
توفي سنة ١٢٩٧هـ بالموصل ، ودفن في جامع العمرية فيها .

وله شعر حسن جمعه محمود افندي الجبقجي ، نسخة منه عند حفيده سامي باشعالم ، واخرى في خزانة محمد رؤوف الغلامي وثالثة عند العقيد المتقاعد امين محمد ورابعة فى المجمع العلمي العراقي ، وخامسة في خزانة اسماعيل حقي فرج . والنسخة التي اعتمدناها في الدراسة.مصورة عن نسخة المجمع العلمي العراقي(١) وللشاعر مواويل وزهيرات منوعة(٢).

(١) ينظر في ترجمته : مدارس الموصل في العهد العثماني – سعيد الديوجي /٢٢
مجموع الكتابات المحررة في مدينة الموصل – سعيد الديوجي /٥١
جوامع الموصل في مختلف العصور – سعيد الديوجي /٣٦
ديوان الموشحات الموصلية – محمد نايف الدليمي /١١٩
فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف بالموصل – سالم عبد الرزاق احمد ١٨٨/٦

(٢) ينظر : مخطوطات الأدب في المتحف العراقي : أسامة النقشبندي وظمياء عباس / ٣٩١

وقد تصدر التدريس في الموصل في دار القرآن وفي مدرسة الحاج زكر المشهورة .
ومن درس عليه في دار القرآن صالح الخطيب الموصلي الحريني .
وقد اشتهر شاعرنا بعلمه وتدريسه على الخصوص أيام ولاية الجليليين وبعدهم .



الموضوعات :

على الرغم من الكثرة الكاثرة لشعراء القرن الثالث عشر، فان شعرهم ظل في طبيعته الفنية وفي معانيه وأفكاره وموضوعاته، يحتفظ بمشكلة العقم، ومن هنا راح يجري وراء شعر فترة الانكسار الحضاري، فيقلده ويسيء تقليده ويجري وراء مضامينه فتعجزه القدرة) (١) الفنية عن تأكيد مضامين الشعر الانسانية. ولذلك فقد استسلم شعر هذه الفترة (للموضوعات التقليدية من مديح ورثاء وغزل ووصف. وحين حاول ان يعبر عن حياة العصر في الموضوعات السياسية والاجتماعية، خانته القدرة، الا في القلة القليلة من الشعراء الذين تركوا قصائد نادرة فيها ملامح فنية أو تجربة شعورية تجاوزت مستوى قصائد العصر) (٢).

وشاعرنا عبدالله باشعالم هو واحد من شعراء هذا الجيل الذين وقفت بعض قصائدهم تحدى الصورة المتهرئة الواقعية للقرن الثالث عشر، بتجاوزها للموضوعات التقليدية التي لهى بها الشعراء أنفسهم تزجية للوقت، أو إرضاء للسلاطين والولاة، أو للعبث بطبيعة الفن الشعري نفسه.

وعلى الرغم من ان شعر عبدالله باشعالم قد احتفظ بالكثير من الموضوعات الشعرية لعصره، كالوصف الجامد والغزل المفتعل والمدح والفخر والرثاء والتاريخ الشعري، الا ان الذي احتفظ له بالسبق، واشار اليه بالحضور المتميز، هو نقده للحياة الاجتماعية والسياسية، وما يتصل بها من طبائع الأخلاق، وهو ما أكسبه خصوصية واضحة، وارتفع بموضوع القصيدة نفسها الى مستوى الجودة فناً وموضوعاً وفكرة ومعنى. وعلى الرغم من ممارسة بعض شعراء عصره لهذا الاتجاه، كعبد الغني الجميل وعبد الغفار الأخرس وعبد الباقي العمري، الا أن هذا الاتجاه في شعره لم يكن مسألة عارضة أو قصيدة تفلت من عقال الموضوعات التقليدية كما هو الحال عند هؤلاء الشعراء حسب، بل وجدناه لديه موضوعاً يشكل ظاهرة فنية، ويحمل في مضمونه الانساني تياراً واقعياً يجسد كل

---

(١) الادب العربي الحديث: سالم الحمداني وفائق مصطفى /٢٧ الموصل ١٩٨٧

(٢) نفسه /٢٧

ماكانت تضمره نفس الشاعر الثائرة من تحدٍ لتلك الصورة المتخلفة التي كان الناس قد استسلموا لها في حياتهم وهي صورة تعبر عن روح الاستكانة والضعف والهوان والاستخفاف بالقيم البشرية التي فقدها مجتمع ذلك العصر . لذلك كان التعبير عنها من لدن الشاعر بشكل ظاهرة ايجابية تجسد يقظة غير مألوفة للفن الشعري في القرن الثالث عشر .

ولسنا نشك أن هذه النفثات التي أطلقها الشاعر كانت تجسيداً لمعاناة صعبة وتصويراً لا لمشاعره حسب ، بل لمشاعر الملايين التي لم تكن تمتلك حسّها الأنساني ، ولم تعرف طعماً للحرية الشخصية . وربما لم يطلق الشاعر صيحته هذه في وجه الحكام ، الاّ بعد أن استعصت عليه الوسيلة وبعد ان وقر في نفسه الاّ مناص من التعبير .

كان الشاعر رجل دين ورئيساً لعلماء الموصل ، وهذا الموقع كان يوحي آنئذٍ بالموقف المعروف لهذه الطبقة من المجتمع وهو التأييد للسلطان وللوالي . وربما كان الشعراء من غير العلماء كذلك، بل كان الناس معظمهم كذلك، لجهلهم مباديء الحرية ، وبعدهم عن الثقافة والمعرفة ، وما كان يجري في العالم الأوربي من صراع بين السيادة والحرية من جهة وبين الحكم المتفرد من جهة أخرى .

ولذلك فإن نقد عبدالله باشعالم للسلطان وللوالي — وهو رئيس لعلماء عصره وشاعر معروف في مجتمعه يعد مسألة تلفت النظر حقاً ، لأن شعراء العصر وعلماءه كانوا من أشد المؤيدين للسلطان الذي قال الشاعر في نقد حكمهِ وتعرية رجاله وتصوير فساد سلطته والعبث بمقدرات الاسلام الذي كان السلطان يعتمده وسيلة في حكم المسلمين :

أرجوك تفريج الكروب من العنا ... وخروجنا من ربقة الأسجان
أمسيت بين الترك متروكاً ... ومسجوناً بدار خلافة السلطان

والشاعر يسمّي طبيعة الحكم (خلافة السلطان) .

وهي نفثة قومية غير مقصودة لأن رجال الدين بالذات لم يفرقوا آنئذ بين عرب وترك في ظل أصرة الأسلام، وربما كان الحرص على الأسلام نفسه، هو الذي دفع الشاعر الى ذلك بدليل الأبيات التالية التي يقول فيها تصويراً لما آل اليه الدين الحنيف على أيدي الحكام ، الأتراك ، ونقداً لحال الأمة التي وصلت الى درجة شديدة من الفساد والتهريء . يقول :

مابين قوم بالنفاق طباعهم ... مجبولة والظلم والعدوان
قوم لقد تركوا الشريعة بينهم ... وتفاخروا بالفسق والعصيان
ياعزة الكفار بين ظهورهم ... وبذلة الأسلام والأيمان
عكفوا على شرب الخمور فضيعوا ... فيها عقولهم مع الأذهان
جبلت على حب الرياء قلوبهم ... وتخلقوا بالكذب والبهتان
لم يبق للاسلام رسم بينهم ... كلا ولالدين من اركان
كم جامع قد خربوه وعمروا ... بيع النصارى عابدي الصلبان

....

الذل للعلماء أضحى بينهم ... والعز للنسوان والرّهبان
تركوا الشيوخ وأمّروا صبيانهم ... ويل لهم بامارة الصبيان
يارحم الرحماء أنت وعدتنا ... أني أجيب العبد حين دعاني

....

فرج الهي كربنا والطف بنا ... كرما بجاه المصطفى العدناني (١)

وعلى الرغم من ان هدف الأبيات كان حرص الشاعر على الأسلام ودينه ، لأن معظم معانيها أنصبت على ماآل اليه أمر المسلمين ورجال الدين واماكن العبادة ، من اهمال وسوء معاملة الا أننا نلحظ وبشكل واضح ، تصويراً دقيقاً لواقع الحكم بخاصة . كما ان في أفكارها نضجا يتضح في نقد السلطة لاهماله تقصي حال المجتمع ، ومحاربة الفساد ،وفيها ايضاً اتهام لسلطة الحاكمة آنذاك بالبعد عن المسؤولية الشرعية التي تتضح في تولية الصبيان أمور الحكم ، كما تبدو صورة التدني الخلقي للحكام والناس والتي تتضح في التجاوز على الشرع الأسلامي ممثلة في شرب الناس للخمر وتطبعهم بالرياء وتخلقهم بالكذب والبهتان ، وفي اذلال العلماء المسلمين ايضاً .

ولاشك في ان هذه القصيدة تعبر عن الدقة في رصد واقع الأمة وحكم السلطان التركي ، كما ان في افكارها نضجاً واضحاً وموقفاً جريئاً يخرج على الصورة المعروفة لمجتمع القرن

---

(١) الديوان /ورقة ١٩٤ -١٩٥

الثالث عشر الهجري . ومواقف الشاعر في نقد السلطة الحاكمة ، مواقف جريئة لاتعرف المهادنة ، لانها – كما يبدو لنا – تنطلق من حرصه على الأسلام وغيرته على دينه ودفاعه عن حوزته ، ولذلك لم يقف هذا النقد على السلطان حسب ، امتد الى الولاة الذين ابتلي بهم الناس – على حد قول الشاعر – حتى لقد وصفهم بالجزارين الذين يذبحون شعوبهم كما يشير الى تناقضهم فيقول :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح (١)
فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح

ويعاتب الشاعر زمانه لأنه يعلي سافلاً ويدني عاقلاً فيقول :

لئن علا زمان السوء قوماً أسافل ماعليه بذا عتاب
فقد يعلو الذباب على أسود وقد يعلو على الذهب التراب

وواضح أنه يصف زمانه بالسوء ، ويتخذ صورة تشبيهية جميلة يمثل بها لواقع حال الحكم . وفي نقده يشير الى مبدأ الحرية الذي يتصارع مع واقع الحياة ، والذي تؤول الاساءة اليه في نهاية الأمر الى الخراب فيقول :

دع الدنيا تعاند كل حر فعاقبة الأمور الى الخراب (٢)

ويؤكد أن كل مايصدر عنه في مواقفه ونقده لابسبب الحرص على الوطن وحسرة عليه، ولا حزناً على فقدان أصدقائه وأحبائه ، وانما هو الغيرة على الاسلام والاسف على ماانتهى اليه من ذل وهوان :

والله ماحسرتي حزناً على وطني ولا على فقد أحبابي وخلاني
ولا على غيرة لكنما أسفي على مذلة اسلام وايمان (٣)

ويؤكد في أكثر من قصيدة على ضياع أهل الفضل وعلى سيادة أهل اللؤم ويلقي اللوم في ذلك على الزمان فيقول :

---

(١) الديوان /ورقة ٥٤٠
(٢) نفسه /ورقة ٥٣٨
(٣) نفسه /ورقة ٣٢٦

اذا الأيام قد نصبت لئيمـــا على التمييز وارتفع اللكـــاع
زمان لأعاد الله فيـــــــه أناساً للقبائح قد اشاعـوا (١)

ولا يكتفي الشاعر في تأكيد موقفه الفكري الناضج بنقد الحكام حسب ، بل ينظر الى المجتمع كله حكاماً ومحكومين نظرة شاملة واحدة ، ولذلك يدقق النظر في واقع الناس وأخلاقهم وصلاتهم مع بعضهم البعض،ويخرج من كل هذا بموقف يرى فيه انهيار القيم وتدهور الاخلاق وضعف الايمان وضياع المقاييس الصحيحة . من ذلك قوله :

ارى الجود والانصاف والصدق والوفا لهم في الأنام اسم وليس لهم جسم(٢)

ولا تخلو هذه المواقف النقدية من الصدق الشعوري الذي يبدو في نفس الشاعر ألمـــاً دفيناً وحسرات على ضياع القيم ، وفقدان الاصدقاء والانصار والأحباب فيقول :

مالي على الخطب من حرّ يساعدني ولا خليل حمى ظهري بميـــــدان
اين الصديق الذي كنت أعهــــده عند النوائب أرعاه ويرعانـــي
واين عمدة أصحابي فقد فقـــدت وفقدت الملمات انصاري واعواني(٣)

ويبدو في الأبيات معاناة الشاعر الواضحة ، كما يتضح أن مواقفه هذه كانت تعود عليه بالمشاكل التي لايجد فيها صديقاً أو خليلاً يذود عنه الظلم ويخفف عنه الشكوى منه .لذلك تردد في شعره الحديث عن الصداقة والاصدقاء والزمان والدنيا . ومن ذلك قوله :

وعاشرت ناساً وجربتهـــــــم فلم أر فيهم صديقـاً خليـــــلا
وما الحر الاّ امرؤٌ يرتضـــي حمامـاً ولم يرض عيشاً ذليلا (٤)

والشاعر في شعره رجل مبادىء، لايهمه خذلان صديق أو تخلي خليل ، ولذلك ترددت في شعره لفظة (الحرّ) خلال الحديث عن نفسه .

---

(١) الديوان /ورقة ٢٩٢
(٢) نفسه /ورقة ٤١٩
(٣) نفسه /ورقة ٣٢٠
(٤) نفسه /ورقة ٢٨٦

ويتكرر في شعر عبدالله باشمالم مواقفه النقدية لمجتمع عصره، وتتكرر معها المعاني المطلوبة الصحيحة وهي الصدق والمعروف ومكارم الطبع :

مكارم الطبع في ذا الوقت قد فقدت وليس فيها فتىً في الناس موصوفا
لم يبق للصدق فيما بينهم أثــــر وليس عندهم المعروف معروفا (١)

ونقد الشاعر لمجتمعه أقوى من نقده للحكام، ويبدو أن صلاته بالناس لم تكن على قدر من المودة والمحبة، لذلك كثر في شعره الشكوى من الناس وخصوصاً الاصدقاء، بله الاخوان والاشقاء ولذلك فقد الثقة بمعظم من كانت له صلة بهم، يقول :

لعمري لم أثق أبداً بشخـــص وان أصحى شقيقي أو رفيقي
فقد عم النفاق الخلق طـــراً فما يُدْرَى العدو من الصديق (٢)

وشاعرنا في رصده صورة المجتمع، رجل دقيق، وضع في شعره كل ماآلت اليه اخلاق الناس من مثالب وعيوب، فلم يترك نقيصة الا وتتبعها ودقق في فاعليتها وعابهم فيها، وشكى فعلهم لها. من ذلك اشارته الى غدر الناس في زمانه وبعدهم عن الوفاء وحفظ الذمام. يقول،

وللغـدر ابنـاء هذا الزمـــان يميلون بالطبع ميـلاً جزيـلاً
يرون الوفاء لهــم سنـــــة وحفظ الذمام عليهم ثقيـلا (٣)

ويكرر بين الحين والحين أن سبب شكواه ومواقفه النقدية هو حرصه على الاسلام، ولذلك فأنه يفضل الموت على الحياة، لما يراه من انقلاب الموازين في مجتمعه، ولا شك أن لتصدره مقام رئاسة العلماء أثراً في هذه المواقف. يقول :

زمان مات فيه شرع طـــــه زمان فيه ماأحلى مماتـــي (٤)

ويتكرر هذا الموقف العقيدي في نقده الاجتماعي ونقده للحكم؛ كما يتكرر معه لوم الزمان الذي يعبر عنه أحياناً (بالفلك الدوار). من ذلك تعبيره بقوله على سبيل المثال (شريعة

(١) الديوان /ورقة ٥٦٨
(٢) نفسه /ورقة ٥٧٢
(٣) نفسه /ورقة ٥٧٧
(٤) نفسه /ورقة ٥٦٢

المصطفى هدت قواعدها) و (على زمان هوان المسلمين به) و(للعذر أبناء الزمان) و (ارى الدهر في أصله فاسد) . وغيرها من العبارات التي تتشابه في المعنى وتختلف في التعبير . وتكثر هذه المعاني في شعر الشاعر ، وتنتشر انتشاراً واضحاً حتى صارت تشكل في ديوانه ظاهرة تعلو على كل الموضوعات التي الفناها في شعر القرن الثالث عشر ، تلك الموضوعات التي لايختلف فيها شاعرنا عن غيره ،الاّ أنه يتميز بهذا الموضوع تميزاً ملحوظاً يرفع من قيمته الموضوعية ، كما يسمو عنه في افكاره الناضجة .

° ° °

يحتل الوصف في ديوان عبدالله باشعالم حيزاً واسعاً ، فهو يسيطر على معظم موضوعات شعره ، ويتداخل معها تداخلاً شديداً حتى يكاد يصير جزءاً من العديد من موضوعاتها كالغزل والخمرة والفخر وغيرها . وبهذا تمتلك قصيدة الوصف في شعره نوعاً من الشمولية اذ هي تتسع لكل هذه الموضوعات .

وعلى الرغم من ان الوصف في هذه الفترة يعتمد (على الكد والبهرجة والاصباغ الخارجية ، لأنه لم يتحرر من وطأة المعاني القديمة الموروثة) (١) الاّ أنه في شعر عبدالله باشعالم يمتلك شيئاً من الدقة لأنه يتتبع ابعاد الصورة الطبيعية تتبعاً شديداً يكاد يتفوق فيه على معظم شعراء عصره ، ويتفوق عليه أيضاً في خصيصة أخرى ينفرد بها دون شعر الآخرين ؛ ذلك أنه يمتلك الدقة في تصوير بيئته التي عاش فيها ، وعكس الكثير من الموروث الشعبي ، وما يتصل به من عادات وتقاليد وطرق تفكير ، بل يكاد يعكس حركة المجتمع وطبيعته الاجتماعية والعقلية .

وليس هذا فحسب ، فقد توافر وصفه لمدينة الموصل على رصد طبيعتها رصداً يمتلك الشمولية والدقة ، إذ وصف مافي هذه المدينة من خصوصية في عادات اهلها وتقاليدهم واعيادهم ، وطبيعة مدينتهم واحتفظ وصفه بأسماء الأماكن الدينية كأضرحة الانبياء والاولياء والجوامع ، وبأسماء الأماكن التي كان يقصدها أهل الموصل في فصل الربيع بخاصة ،تزجية للوقت واسترواحاً من عناء العمل .

كما احتفظ بالكثير من أسماء الازهار والنباتات والفواكه والخضر التي لها خصوصية عند اهل الموصل وذكر العديد من المظاهر الدينية والاجتماعية والعلمية وغيرها مما يمكن

(١) الوصف وتطوره في الشعر العربي : ايليا حاوي /٢٥٠

أن يقال ان مثل هذه القصائد تعكس الموروث الشعبي لأهل الموصل، كما انها تحتفظ بصور الفولكلور الشعبي وما يتصل به حتى صارت هذه القصائد وثيقة مهمة تحتفظ لمدينة الموصل واهلها بالكثير مما ضاع أو كاد يضيع من أذهان الناس وتصورهم .

يقول في وصف مدينته التي لايخلو فيها هذا الوصف من الأثر النفسي والمعنوي :

وعلى جنان الموصل الخضراء قد أمسى فؤادي في لظى النيران
فارقتها كرهاً فرافقني بها وجدي وفارقني كرى أجفاني
يا ما أحيلى مائها وهوائها وربيعها الزاهي بكل مكان

ويلاحظ هنا العنصر الوجداني والنفسي المترتب من مفارقة الموصل وأحبابه . كما تلاحظ الاشارة الى طبيعة المدينة الخضراء ، وهي طبيعة تحتفظ بها المدينة بخصوصية معروفة ، وبها سميت (أم الربيعين) ، ويقول مشيراً الى بعض الأماكن التراثية . ومعدداً لكثير مما أصبح منسياً أو مهملاً لدى كثير من اهلها في الوقت الحاضر (كقضيب البان)و(السيب) :

عمر تقضى بالمسرة والهنا بين الأحبة في قضيب البان
لم أنس فوق السيب في أطرافها بتسلسل وتباعد وتدان (١)

ويذكر (الايوان) الذي يعد جزءاً مهماً من دار السكن في الموصل ، ولا يزال الكثير من البيوتات القديمة يحتفظ به .

وأطوف في تلك الوهاء تنزهاً وأعود في فرح الى الايوان

ويشير الى جامع (يحيى أبو القاسم)الأثري المشهور :

وانظر هناك الى مقام قد حوى يحيى أبا النعم العظيم الشان(٢)

والاشارة إلى هذه الاماكن الدينية الأثرية المقدسة ، يعكس طريقة التفكير الديني التي تعتمد الوسائل الصوفية التي شجعها سلاطين العثمانيين .

---

(١) السيب وقضيب البان اماكن مشهورة في مدينة الموصل وموقعها قريب من المكان الذي عاش فيه الشاعر ودفن .

(٢) لا يزال مزار (يحي ابو القاسم) ماثلا في شمال مدينة الموصل .

ويذكر الشاعر من الاماكن المعروفة في الموصل (تل عاشق) ،ويربطه بمفهومه الذي يعكس صلات الحب بين المحبين فيقول :

وبتل عاشق حبها كم عاشق ... فيه مع المعشوق يصطحبان (١)

ولا ينسى ذكر الكنائس القديمة :

وكناسها فيه الكنائس والظبا ... ومراتع الآرام يقترنان

ويشير إلى وادي سحلة فيقول :

ونظرت وادي سحلة قد ديجت ... أرجاؤه بشقائق النعمان (٢)

ويسمي من الاماكن التي لا تزال إلى الآن معروفة مشهورة في هذه المدينة ،وهي الجوسق والدندان وشط الحصا القريب منها فيقول :

وأزور بستان السماح وما حوى ... والجوسق المعروف والدندان

وأمر في شط الحصا وأرى به ... حصباءه كالدر والمرجان (٣)

وفي قصيدته الوصفية هذه،ظاهرة تعكس طرائق معينة لزراعة بعض الخضراوات في الموصل ومنها (البطيخ والخيار والقرع)الذي يزرع عادة في موسم الصيف على ضفاف نهر دجلة ليفيد من مائه وخصوبة أرضه ، وتسمى هذه الاماكن المزروعة (الشواريق) ولايزال معمول بها لحد الآن .

ويذكر مع هذا ايضاً (ورد القديفة) ، ويشير اشارة دقيقة إلى لمعانه المعروف، وهو ما يؤكد عنصر الدقة في وصفه :

وأقيم في وادي العوينا بالهنا ... وأشم زهر حديقة النعمان

أسقي على تلك الشواريق التي ... تزهو بخضرتها على الخلجان

---

(١) تل عاشق: لم اعرف مكاناً بهذا الاسم في مدينة الموصل

(٢) وادي سحلة: يقصد الشاعر وادي سحيلة الواقع شمال مدينة الموصل .
وشقائق النعمان: ورد يكثر في فصل الربيع فقط في مدينة الموصل .

(٣) الدندان والجوسق وشط الحصا: اماكن مشهورة في المدينة قريب بعضها من بعض

ورد القديفة عند شاطي شطها   يحكي نجوم الافق باللمعان
اهاً على بطيخها وخيارها   أوقرعها المطبوخ بالرمان

والبيت الاخير يعكس احدى طرق الطبخ التي يتبعها اهل الموصل، وذلك باضافة الرمان إلى القرع المطبوخ ليضفي عليه حموضة .

وليس هذا فحسب :فقد وصف شاعرنا واحدة من أهم واشهر أماكن الاستجمام في عهده ، ولا تزال كذلك،تلك هي ضاحية (حمام العليل) المشهورة بمياهها المعدنية التي تعد بها مصحاً مشهوراً في العراق،ولا تزال كذلك . وقد نجح الشاعر في وصفها وصفاً دقيقاً حين اشار إلى أهم اماكنها المعروفة ، من مثل (تل السبت) كما اشار إلى اماكن السكن التي كانت ولا تزال مقصد الناس يبيتون بها،اذ لم تكن في عصر الشاعر بيوت حديثة يقصدها المستجمون ، وكذلك إلى ما يشتهر به عناصر حماماتها المعدنية من مثل (عين زهرة وعين فصوصة والانجان) . يقول :

يا طيب حمام العليل ومائها   الشافي من الأسقام والادران
عين بها عين الحياة لسابح   لا سيما من غط بالانجان (١)
بنيت عرازيل الهنا من حولها   وقبابها قد رصعت بجمان (٢)
وكذاك تل السبت عند صعوده   كم فيه نيل مقاصد وأمان (٣)

ولم ينس الشاعر ذكر موطن ولادته ونشأته ، وهي منطقة (باب الجديد) (٤) التي تعد حتى الآن من الأحياء القديمة المشهورة في الموصل ، فيقول :

---

(١) يقصد بالعين، منابع المياه المعدنية الحارة ومنها (عين زهرة وعين فصوصة وغيرها) ومثل ذلك (الانجان) وهو حوض كبير تخزن فيه المياه المعدنية الحارة .

(٢)العرازيل: هي منازل المستجمين الذين يقصدون الحمامات المعدنية من خارج حمام العليل وقد طمست معالمها في الوقت الحاضر

(٣) لا يزال بعض السذج من النساء يقصدن (تل السبت) لتحقيق امنياتهن في الحب وهي عادة اجتماعية تعكس التفكير الا جتماعي منذ عصر الشاعر حتى الا ن .

(٤) (باب الجديد): المنطقة التي حط بها العمريون منذ نزوحهم الى العراق قادمين من الحجاز ولا يزال معظمهم يسكنها حتى الا ن .وقد دفن في جامعها الشاعر.

إن جـزت في بـاب الجـديد فقف على ربـع الأحبـة وقفـة الحيـران
قـل للأحبـة قـد تـركت محبكـم ونفـى رمـاد السقـم بـالبحـران

وهذه الاماكن كما يبدو ،قد ارتبطت بذكريات الحب ، فهي اذن ترتبط بعنصر نفسي أياً كان بعده ونوعه ، وهذا معناه ان هذه الربوع لم تأت في وصفه نابية معزولة عن عواطف الشاعر ومشاعره ومواقفه النفسية والعاطفية ، وهي لذلك تمتلك قدراً من الصدق وحرارته .

ويتحول الشاعر من جنوب مدينة الموصل إلى شماله ليذكر بعض المواقع المشهورة ، مثل منطقة الدملماجة فيقول :

قـف نحـو وادي الـدملمـاجـة لحظة واسكـب دمـوع العيـن والاجفـان

وسبحان الله كيف يعيد التاريخ نفسه ، لتصبح (الدملماجة) مرة أخرى مكاناً شهيراً وتسكب في ذكرها الدموع ولكنها الآن دموع الحزن على شهداء الحرية والمباديء الذين دفنهم الشيوعيون في هذا المكان بعد قتلهم وسحلهم ، في حين يسكب الشاعر دموعه على ما ضاع من حبه وحين تذكره .

ومما تنفع الاشارة اليه ، ذكر الشاعر لأماكن العبادة واضرحة الأولياء وما يتصل بها من الجوامع القديمة المشهورة في المدينة ، كجامع (النبي يونس) القائم في مدينة نينوى الأثرية وجامع النبي شيت القائم وسطها . فيقول :

شيـت النبـي عليـك ألـف تحيـة مـادامـت الأفـلاك بـالـــدوران
ريح الصبـا ان جزت تربة نيــوى ودخلت بالحجرات والايـوان
فاقرا السلام على ضريح قد حـوى ذا النون ذا الافضـال والعـرفان

القصيدة طويلة تبلغ مائة وثمانية وعشرين بيتاً . يستند معظمها إلى هذا الوصف كما يقوم بعضها الآخر على النقد الاجتماعي والسياسي . ولذلك اكتسبت خصوصية متميزة بالنسبة لقصائده الوصفية الأخرى ، وهذه الخصوصية تأتت من مضامينها الاجتماعية والانتقادية والعقلية ، ومما توافرت عليه من الموروث الشعبي وما يتصل به ، مما عكس صورة مدينة الموصل واحتفظ لها في شعر عبدالله باشعالم بهذه الخصوصية .

واذا كان هذا الوصف يعد في نظر بعض النقاد وصفاً تقلياً فان فضيلته تأتي من دقة وصحة تشابهه (١) كما تأتي في رأينا وفي هذه القصيدة بالذات مما يصوره من عادات وتقاليد وتفكير. ولذلك يمكن أن يعد وثيقة اجتماعية وانتقادية.

أما القسم الأعظم من وصفه فقد انصب على الطبيعة التي تبدو مدينة الموصل محوراً لها، لما حباها الله من سحر طبيعتها ورقة هوائها وعذوبة مائها وتركيب ارضها من الجبال والوهاد والسهول، ومما تتوافر عليه هذه الطبيعة المركبة من الوان كثر في وصفه كثرة تفوق كل حد. وكثيراً ما يطلق على الطبيعة (حديقة وروضة وبستان) يذكر ما فيها من ازهار والوان وروائح. وهذه الكثرة في الوصف طبعت قصائده بطابع التكرار في الالفاظ والعبارات والمعاني والصور، حتى يصير هذا التكرار عيباً فيها.

وجدير بالملاحظة ان قصائد الوصف عند عبدالله باشعالم تتميز بطول النفس: وربما كان السبب أن شعر الوصف لديه لا يقتصر على وصف الطبيعة حسب، بل يتخلله وصف للخمرة حتى يكون هذا وذاك سبيلاً لوصف مشاعره في الحب ولذلك توزع غزله مابين قصائده الوصفية وقصائده التي اقتصرت على الغزل حسب.

ومن هنا صارت قصائد العمري الوصفية تتسع لكثير من المعاني: منها ما وقف على وصف الطبيعة الحية بكل ابعادها من ورود، وما تحتوي عليه من الوان وعطور وأشكال، وهذا ما يتصل بالطبيعة الأرضية، ويتشابك معه طبيعة الانهار والبحار وما يتوافر فيهما من لؤلؤ ومرجان وزبرجد وعقيق وعسجد وغير ذلك.

ويتصل بهذا وذاك الطبيعة الكونية من شموس وأقمار ونجوم ورياح وبروق ورعود وغيرها.

وبهذه الابعاد الثلاثة التي يتألف منها وصف الطبيعة عند الشاعر تشكل قصائده الوصفية كلاً متكاملا متعدد الأطراف متسع الحدود. يقول في احدى قصائده الوصفية الطويلة:

وحديقة أضحت قدود حسانها	تحكي معاطفها معاطف بانها
ازهارها قد فككت أزرارها	اذ شقت الأكمام من اردانها

(١) الوصف وتطوره: ايليا حاوي /١١

وغصونها رقصت سروراً حينما   غنت عليها الورق في الحانها

خضر الحرير كست رباها بعد أن   خلعت على الأشجار من قمصانها

وثغور زهر الاقحوان ضواحك   لما بكتها السحب من اجفانها

والشمس ترشف من ثغور أقاحها   خمر الندا فتهيم في جريانها

وعرائس الازهار نقطها الندى   في لؤلؤ يعلو على تيجانها

وقد استعار . الورد حمرة خده   اذ لاح يزهو في خدود حسانها

وشقائق النعمان فيها مزقت   اثوابها حزناً على نعمانها

فكأنما قصب الزبرجد حملت   هاماتها الكاسات من عقبانها

والجلنار مجامر من عسجد   بزمرد نيطت على خرصانها

والورد قد كشف القناع وأصبحت   أكمامه تنشق قبل أوانها

وخدوده احمرت حياء عندما   رأت اختلاف الزهر في الوانها

وعلى مدى اكثر من خمسين بيتاً يختلف التعبير عن مظاهر الطبيعة فتكون (الازهار والغصون والحديقة والأوراق والأشجار والورود) وتتصل بها الوانها واشكالها وحالاتها وما تزين به مثل (فككت الازرار ، شقت الأكمام ، رقصت الأغصان ، ضحك الاقحوان ، نقط الندى) وما يتصل بهذا من الوان وزينة تضفي عليها رونقاً وسحراً مثل خضر الحرير ، السحب تبكي ، الشمس ترشف ، اللؤلؤ يعلو التيجان ، حمرة الخد ، شقائق النعمان ، قصب الزبرجد ، الجلنار مجامر من عسجد وزمرد ، احمرار الخدود) .

ومثل هذا يتكرر مرات ومرات ، ولكنه تكرر لا تجد فيه شيئاً من أثر نفسي ، وانما هو وصف نقلي كما ذكرنا يعتمد البهرجة والالوان والاشكال كما تقع في العين وتسمع في الأذن ، ولا تتجاوز ذلك إلى أعماق الشعور ودفقات العواطف والمشاعر .

وقد وضع احد الدارسين هذا الوصف في عداد (شعر الرصف) وهو وصف (يرتكز على تكديس الصفات ورصف الألفاظ دون العناية بالتفاعل معها) (١) .

---

(١) الوصف في الشعر العراقي : محمد حسن علي مجيد /٧٣ رسالة دكتوراه بغداد ١٩٨٥

والقصيدة كما ذكرنا لاتكتفي برسم لوحة الطبيعة الميتة حسب ، بل تتجاوزها الى رسم لوحة الخمرة ، التي يسميها بالياقوتة المذوّبة في الفضة ، اشارة الى لونها يقول :

ياقوتة قد ذوّبت في فضة   صبت من الكاسات في فنجانها

كما يشير الى تركيبها ، فيذكر انها معصورة من وجنة المحبوب :

فكأنها معصورة من وجنة ال   محبوب حيث وزانها كوزانها

والى فعلها في النفوس ، فيذكر كشفها للاحزان ، وتخفيفها للهموم ، وتحقيق المسرّات لشاربيها :

تجلي الهموم وتكشف الأحزان اذ   جلب المسرة والهنا من شأنها

والى نوعها ، فيذكر أنها قديمة معتقة :

قد عتقت دهراً فجددت المنا   حتى خفت زمنا على ندمانها

ويكرر فوائدها الصحية للمرضى من بكم وصم وعمي ، وكذلك لمرضى الحب . فيقول :

لوشمت الأموات عرف شميمها   ارواحها ارتدت الى ابدانها
والصم لو سمعت خرير كؤوسها   اسماعها عادت الى اذهانها
والبكم لورشفت سلافة دنها   نطقت صريحاً في فصيح لسانها
والعمي لو نظرت الى انوارها   أبعادها رجعت الى عميانها(1)

ولسنا نشك ان هذا الوصف للخمرة ليس هو المطلوب من شاعر الوصف ، ذلك ان الشاعر قد وصف فعلا مجموعة من الألفاظ والعبارات والصور الجامدة التي لاتحرك المشاعر ولايصل اثرها الى التأثير النفسي ، كما رأينا ذلك عند شعراء الخمرة المعروفين ولاتختلف قصائد الشاعر الوصفية الأخرى في معانيها والفاظها وعباراتها وصورها عما ورد في القصيدة السالفة الذكر . ولذلك يحقق وصف الطبيعة لشاعرنا تكرارا ملحوظا وملحاً ، حتى لتكاد هذه القصائد الوصفية ان تكون نسخاً من غيرها . ونذكر على سبيل المثال بعض الصور والتشبيهات والعبارات والألفاظ التي صارت نسيجاً لقصيدة وصفية وهي :

(1) الديوان : ورقة /209 – 212

(طرف الفجر ، والصبح ، وجنود الليل ، وسهيل ، والشعرى ، والسهى ، والثريا ، والدجى ، وغيوم الليل ، وهلال الأفق ، والجوزاء ، والبدر المنير) وكذلك الأغصان ، والأزهار وريح الصبا ونسيم الصبح والنرجس والأقحوان) . فمن هذه الألفاظ نسج الشاعر احدى قصائده التي يقول فيها :

كأن نجوم. الزاهرات تساقطت على ارضها اوغض عنها السما طرفاً(١)

وفي قصيدة وصفية اخرى يقول في وصف الخمرة :

ياقوتة حمراء لكن غدت بالمزج صفراء كلون النضار(٢)

وفي قصيدة ثالثة يصف حديقة ، فيكون نسيجها من (الروضة والمسك والزهر والطل والشقيق واللؤلؤ والعقيق والنرجس الغض وخمر الندى ، والندامى التي تدير الكؤوس ، والغصن والطير فوق الأغصان ، وهبوب الصبا ، والبدر الذي يطوف والراح الممزوجة من شفتي الحبيب) (٣) .

وهذا النسيج اللفظي يكاد يتكرر تكراراً كاملا مع القصيدة الاولى .

ومن القصائد التي تلفت النظر في تكرر ألفاظها وعباراتها وتشبيهاتها وصورها ومعانيها ، قصيدة في وصف الطبيعة ووصف الخمرة ، يقول فيها وقد قدم فيها الخمرة على الطبيعة :

واشرب على نغم الاغاني خمرة من ثغر محبوب يدير الراحا
واذا فضضت ختامها فاح الشذى منها وأبدت نشرها الفواحا
مزجت بريقة شادن في حسنه يسبي العقول ويسلب الأرواحا
تبدو على ثغر الكؤوس حبابها كسقيط طل توج الأقداحا
خذها معتقة محددة الهنا تطوي الهموم وتنشر الأفواحا

ولوحة الخمرة هذه تكاد تتكرر في معانيها وصورها والفاظها وعباراتها مع القصيدة السابقة التي افصحنا القول فيها ، ومن ذلك تكرار فائدة الخمرة وتأثيرها في الشاربين .

(١) نفسه : ورقة /٢٣٥ - ٢٣٧
(٢) نفسه : ورقة /٢٣٨
(٣) نفسه : ورقة/ ٢٤٠ - ٢٤١

وكذلك اشارته إلى لونها وقدحها ورائحتها ، واخيراً في ربطها بجمال الحبيبة التي تسبي العقول .

فاذا تحول الشاعر إلى وصف الطبيعة بعد الخمرة قال :

في روضة قد اينعت أثمارها ... والزهر فيها عرفه قد فاحا
من أحمر في اصفر في اخضر ... في ازرق في أبيض قد طاحا
أزهارها قد طرزت خلع الربى ... والماء بين غصونها قد راحا
وحكى الشقيق بها غصون زمرد ... يحملن كاسات العقيق وراحا
وكأن نرجسه عيون مهفهف ... قد قام في أثر النعاس رواحا
والجلنار زهى على أغصانه ... مثل النجوم اذا زهت ايضاحا
والاقحوان زها بثغر باسم ... لما جرى دمع الغمام وساحا
والزعفران غدا كوجنة عاشق ... لما رأى محبوبه قد لاحا (١)

اما الابيات الأخيرة وعددها ثمانية ، فكان نسيجها من (الورود المفتحة والغيوم المنشورة ومن البرق والرعد ، ومن اللؤلؤ والزبرجد والدر) وامثال هذه العبارات هي كنز الشاعر في وصفه ، ولكنه كنز لا وهج فيه ، ولاتفصح مادته المعنوية ودلالاته اللفظية عن قشعريرة العاطفة ورقة المشاعر التي تجسد صدق التجربة الشعورية .

ولكننا يجب ان لا نلقي اللوم في هذا الوصف على قدرة الشاعر المحدودة حسب ، ولا على ثقافته الضئيلة في الادب الحي المطلوب ، لأن عصر الشاعر وبيئته أسهم كلاهما في تحقيق هذا الضعف .

وللشاعر موشح جميل ، اشار اليه دارسو الموشح ، وهو لا يخرج في موضوعاته عن هذا الخلط في الوصف ، واقصد به اختلاط وصف الطبيعة الميتة بوصف الخمرة ووصف مشاعر الحب (٢) .

---

(١) المرجع السابق /ورقة ٢٤٩ —٢٥٠
(٢) ينظر الموشح بديوان /ورقة ٢٥٩ —٢٦٠
ديوان الموشحات الموصلية : محمد نايف الدليمي / ١١٩

توزع غزل عبدالله باشعالم بين وصف الطبيعة ووصف الخمرة واحتفظ أحياناً بموقعه الخاص مع طللياته ونسيبه بعيداً عن الموضوعات الاخرى ، ولكنه بمجمله غزل مفتعل بعيد عن قشعريرة مشاعر الحب ، ولذلك صار بعيداً عن الصدق الفني والشعوري .

ويبدو لنا أن غزل هذه الفترة، هدف الشاعر فيه الى اختبار قدرته في النظم في كل ميادين الفن الشعري ومنه الغزل. وقد افصح شاعرنا عن هذا بقوله:

لعمر أبي الفضل أني لمغـــرم وفي كـل فن أننـي أنا أعلـم

ولذلك فمن العبث البحث في جدية هذا الغزل وفي صدق الشاعر فيه الا ماجاء عفـو الخاطر او قادت اليه الصدفة. ومن ذلك قوله في احدى قصائده التي نلاحظ في ثنايـــا أبياتها سهاد العاشق وقلق المحب وعذاب المتيم :

أروح ولـي بكـم روح تنظـت وجفـن ليـس يعرفـه المنام
ووجد والتيـاع واحتراق واشـواق واشواق عظام
واحشائي تحـن الـى لقاكـم حنين الطفـل أقلقـه الفطام

وعلى الرغم مما نلحظه من عذاب فراق الحبيب للحبيب، وماتجده في جمال التعبير والتصوير في البيت الثالث، الا ان هذا الألحاح في تكديس الألفاظ ورصفها رصفاً مادياً والتي تبدو على الخصوص في البيت الثاني- هو الذي يقلل من جمالية التعبير عن التجربة .

كما ان سلوك الشاعر في غزليته هذه طريق النسيب القديم قد أبعده عن ذات صاحبة . وقذف به الى الشاعر القديم حيث نسج على منواله .

ومع جدية هذه الملاحظة فلا يمكن أخفاء اعجابنا او موافقتنا على ماجاء في القصيـدة تعبيراً عن مشاعر الحب، لأن الشاعر انسان لايعدم هذه المشاعر اطلاقاً كما سيتبين لنا . يقول في غزليته :

ولم أنس الوداع اذا عشقنـــا وطاش العقـل وانقطع الكلام
وهاج الشوق وانخلعت قلوب وفاض الدمع واشتعل الضرام
وغبت عن الوجود بهم هياماً وغابوا عن وجودهم وهاموا

وفارق بعضنا بعضا بكره — ووجد فتتت فيه العظام
وسرنا والصدور لها التفات — اليهم والقلوب بها كلام
قلوبهم تسير معي وقلبي — مقيم معهم أنى أقاموا
أحبائي محبكم مقيم — على ماتعهدون له التزام
وعهدي فيكم وترعون عهدي — وليس لكم عن الود انفصام (١)

والقصيدة طويلة وكلها يجري على هذا النسق من التعبير عن مواجد الحب بهذه المعاني التي لاتخلو من الجري وراء معاني القدماء كما ذكرنا ولكن المعاني كما يقول الجاحظ مطروحة في الطريق فهي أذن ليست ملكاً لعصر ولاحصراً بأمة ولاوقفاً على شاعر دون آخر

ويمكننا تأكيد الموافقة على قبول هذه الأبيات الغزلية من بعض الصور التي تقف على قدم ثابتة، فهي لاتسقط كمعظم شعر فترة الأنحطاط في فن الشعر . من ذلك على سبيل المثال: البيتان الخامس والسادس ،فإن التعبير بهما ينبيء عن دفق عاطفي ودفء شعوري ومثل ذلك جاء جمال التعبير.

كما ان البيت الثاني يأتي توكيداً لحرارة العاطفة وذلك بقوله :(هاج الشوق) و (انخلعت قلوب) و(فاض الدمع) (واشتعل الضرام) .

ولا يعدم شعر باشعالم من مثل هذه القصائد الغزلية ، ولكنها اذا قيست بمعظم ماجاء في القصائد الغزلية الاخرى فانها تمثل ظاهرة ضعيفة ، لأن اكثر هذا الغزل — على أنه لـ ـم يختلط بالموضوعات الاخرى — قد مهد له بالطلل والنسيب كقوله :

ياحبذا نجد وسكانها — ومرتع الغزلان من لعلع
وحبذا آرام وادي النقا — كم لعبت في قلبي الموجع
لم أنسهم اذ خيموا في الفضا — وناره شبوه في أضلعي
اخفيت وجدي بهواهم وقد — باحت به يوم النوى ادمعي
ولم أزل ابكي على ربعهم — دماً وهل يجدي بكا الأربع (٢)

---

(١) الديوان /ورقة ٣٢٨ –٣٢٩
(٢) الديوان /ورقة ٢٢٢

ومعظم القصيدة يقوم على هذه المعاني الطالية والنسيبية التقديمة حتى يكاد بعضه يخلو من معاني الغزل الحقيقي الصادق ولو استعرضنا العديد من قصائد غزله لما أعجزتنا الشواهد ، من ذلك قوله في احدى قصائده الغزلية :

ذاك العقيق وهذه نجد — فانثر عقيق الدمع يا سعد
قف بين هاتيك الرسوم وعد — نجوى العذيب وعنه لاتعدو (١)

معظم القصيدة يتألف من مثل هذه المعاني . فالشاعر لايعيش تجربة حقيقية ، ولكنه يعود الى اجواء ماقبل الاسلام يستلهم معاني شعرائها ، ويتخذ من العقيق ونجد والرسوم والاطلال ومن الأسماء التقليدية كليلى وسعدى وسعد وامثالها سبيلا لاظهار قدرته في هذا الفن ، بل يتخذ هذه المقدمة سبيلا للوصول الى الممدوح . وهو اسلوب شعراء ماقبل الاسلام كما هو معروف .

ولكن غزل الشاعر لايسير كله في هذا المنحى ، فهو يسلك سبيل النسيب أو الطلل أحياناً لينتهي به الى التعبير عن اعجابه بجمال الحبيبة فاذا هو يصف حسن قوامها وجمال وجهها وسواد شعرها وسحر مطلعها فيقول :

زمن مع المحبوب بت ضجيعه — مع غفلة الواشي وبسات ضجيعي

فعلى الرغم من ان هذا المعنى هو الآخر قديم لكنه يخلص منه الى الوصف الذي أشرنا اليه فيقول :

سرّ الجنا حلو الشمائل أهيف — يزهو بوجه بالجمال بديع
ومليحة مابين غاسق شعرها — لاحت كبدر التم عند طلوع

ولا يخلو وصفه لجمال الحبيبة أحياناً من التفاتات معنوية ونفسية ، تبتعد عن معظم وصفه الحسي الذي يرهق القصيدة بالتشبيهات المادية التي تثقلها وتنأى بها عن التأثير المعنوي كمثل قوله :

من طيب نكهتها ولحن حديثها — كم فزت بالمشموم والمسموع
لو لم يشد نطاقها اردافها — همت ادقة خصرها بوقوع (٢)

---

(١) نفسه / ورقة ٣٢٣
(٢) نفسه / ورقة ٣٢٧

الا ان هذه الالتفاتة التي حققها (طيب النكهة) و (لحن الحديث) قد افسدها الوضوح في الشطر الثاني ، بذكر (المشموم والمسموع) . ولو كان الشاعر ترك الافصاح عنهما لكان أوقع في النفس واشد في التأثير .

وعلى الرغم من اشارتنا الى تقليد الشاعر في نظمه قصائد الغزل ، الا انا لايمكن أن ننفي نفياً مطلقاً مشاعره الانسانية في الحب التي يبوح بها أحياناً ، فالشاعر يبقى في كل الظروف والاحوال وفي مختلف العصور والازمنة محتفظاً باحساس معين تجاه المرأة التي تلفت نظره وتدغدغ مشاعره ، وتثير في عواطفه لواعج الحب وقشعريرة العشق. والذي يختلف فيه الشعراء بين عصر وعصر هو القدرة على الاثارة في التعبير عن صدق الاحساس وعلى توفير قدر من الفن الشعري الذي يثير فضول القاريء ويحقق في نفسه المشاركة الوجدانية. وشاعرنا عاش في عصر ضعفت فيه معظم هذه القدرات لكن هذا لاينفي ماكانت تضمره أحاسيسه ومشاعره من صدق الاحاسيس أحياناً والتي يظل يحتفظ بها — انساناً — أياً كان عصر التخلف الذي يعيش فيه .

وربما وجدنا لدى شاعرنا مايثير هذه الاحاسيس أحياناً فيفصح عنها ويبوح بها على طريقته المعروفة المألوفة . واغلب الظن ان مفارقته للموصل كانت تثير في نفسه الحنين لموطن ولادته وحبه ، حتى اذا آنس في عاصمة الاتراك مايثير مشاعره عبر عنه بصراحته المعهودة دون أن يخفي اعجابه ببعض من سلبن فؤاده من النساء التركيات اللائي أثرن في نفسه لواعج الحب فعبر عنها بقوله :

اقبلت تختال في حلي الامـــارة	وعليها من سنا السعد إمــــاره
من بنات الترك عـن جلبابهــــا	فككت أنمـل افكــاري زراره
خفرت بالغنج صبري عندمـــا	عطلتها مرحاً أيدي الخمـــــاره
اسعرت في مهجتي نار الهــــوى	فتجلت في ضروب الاستعاره(١)

وتثير أخرى مشاعر حبه ، فتحظى المرأة التركية مكاناً في غزله فينشد قائلاً :

---

(١) الديوان /ورقة ٢٧٤

فيا خليليّ رفقاً بالفـــؤاد فقـــد سلبته ايدي النوى من غير سلـوان
جنيت باللحظ ورداً لخدين جنـا علي ظلماً فقال الورد ياجانـــي
فحسنه عربي واللحاظ غـــدت تركية ان سطت واللفظ يونانـي

ومع هذا يبقى غزل شاعرنا بعيداً عن الاثارة التي يؤديها شعر الحب . وتبقى النصوص القليلة التي استشهدنا بها لتأكيد شعره الغزلي الجيد ، بعيدة عن التعميم ،لأن هذه الفترة لم تشهد من الشعر في كل موضوعاته مايدهش الناقد أو يثير القاريء بما يمتلك من عناصر الاثارة التي يحققها شعرنا العربي الحديث :

• • •

يكثر المدح في شعر القرن الثالث عشر كثرة مفرطة يكاد يطغى فيها على كل الموضوعات الأخرى ، لكنه من جانب آخر يسيء الى الفن الشعري اساءة شديدة لبعده عن صدق الشعور ولما أصيب به من ضعف ايضاً يلغي مضامينه الفنية ، ويكرر معانيه تكراراً يكاد يصبح في معظمه قصيدة واحدة تصدق على كل ممدوح ، ولأنه ايضاً جرى على اساليب القدماء في مقدماته الغزلية والنسيبية التي صارت لازمة للشاعر في الوصول الى الممدوح . فاذا مدح عبدالله باشعالم والي الموصل يحيى باشا الجليلي . فلا بد للوصول اليه من الوقوف على الاطلال التي وقف عليها شعراء ماقبل الاسلام ، والاّ عدت المدحة خارجة على تقاليد العصور ، ولذلك الزم الشاعر نفسه : بالبكاء على ربوع عفت بعقيق الدمع وبالوقوف على اطلال المها وبذكر الرسوم التي امحت ودرست بتقادم الزمن . كما لابد له من أن يعيش بذكر ربوع اللهو مع الغواني اللائي تركن في نفسه آثارهن في الحب :

قف بنا نبكي ربوعاً قد عفـــت بعقيق الدمع لو يجدي بكاها
هذه الاطلال اطـلال المهـــا ماتراني قد عرانـي ماعراهـا
يالقومي .من رسوم درســــت قادم الدهـر مـن العهــد محاهـا
حيث ربع اللهـو منها مؤنـــس والغواني رائعـات في رباهـا

ولا يمكن لشاعرنا الوصول الى يحيى باشا ومدحه الاّ اذا انتقل الى النسيب ، والاّ اذا اكثر من الفاظ العشق والحب والهوى والاّ اذا تأسف على الليالي التي سلفت في منازل الأحباب ،

ولا يخلو هذا الأسف من آهات العاشق وتنهدات المسهد في الحب ، ولكنها بعيدة عن حرارة الصدق ، لأنها لاتمثل تجربة صادقة ، بل هي وسيلة للوصول الى الممدوح كما أسلفنا القول :

يارعى الله أوبقات مضت قد قضاها الصب أيام صفاهـــا
آه لو عادت ليالينا التـــي سلفت في منزل الأحباب آهــا
كنت قبل العشق لاأدري الهـوى يسلب الأرواح غصباً من حشاها (١)

فاذا مدح الشاعر الوالي محمد سعيد باشا ، تكررت وقفته على الاطلال والرسوم وبكى أيام الهوى وشكى سهاد الحب ، وتكررت كذلك الفاظ العشق والهوى والصبابة .

ياسائق الركب الملم بحاجر رفقاً بصب هائم معمور
قف يـا رعاك الله بيـن طلولها وانظر مرابع رسمها المعهود
وانشـد فؤدا بالغـرام مقيداً بين الخيام من الهوى بقيود (١)

وهذا التكرار يصدق على المعاني التي يضفيها الشاعر على ممدوحه .والمعاني نفسها في قصيدة المدح قوالب جاهزة تصدق على كل ممدوح .فيحيى باشا حمام الدنيا ومعصمها وملجأها وتاج علاها ، وهو ركنها وحافظها وعامرها وحصنها وحارسها وحامي حماها ونصلهـا وعاملها وجنتهاوسهمها وساعدها وكنزها ومدنها واكسيرها وقطبها ومركزها ونجم هداها :

قلبهـا مقلتهـــا غرتهـــا راحها راحتهـا روح بهاهـــا
شمسهـا زهـرتهـا كوكبـها بدرها رونقهـا نور هداها
روحـــها زينتهـــا نزهتهـــا نـدهـــا عنبرها مسك شذاها
حسنها بهجتهـــا مهجتهـــا هامهـا انسانهـا عيـن ضياها

وينتهي الشاعر الى ان هذه الصفات قد جعلت من ممدوحه ملكاً حكيماً كريماً سمحاً يهابه الأعداء وتخضع له المعالي طوعاً .وهو كذلك :

نشر العـدل بحكـم نافذ صحـف الظلـم بناديـه طواها
هو غيث الأرض ان ضجت لـه نسبـة تعزى الـى ماء سماها (٢)

---

(١) الديوان :ورقة /٣١٣

(٢) نفسه :ورقة /٢٧٦ – ٢٧٧

واغلب الظن ان الشاعر لم يترك صفة لملك ممدوح الا واضفاها على والي الموصل هذا .

وكما كان للمدحة مقدمة طللية ونسيبية جاهزة تصلح لكل ممدوح ، فأن صفات الممدوحين كانت كذلك ، فهي تتحول من ممدوح الى آخر على حسب مايقتضيه الموقف ولكنها في كل حال تبقى الصفات ذاتها دون ان تتغير ، اما الذي يتغير فهو التقديم والتأخير والقلة والكثرة ، على حسب موقف الممدوح من الشاعر وموقع الشاعر من الممدوح :

فاق الملوك سماحة ونجاحة ورجاحة في غيره لم توجد

وهو ايضاً :

من معشر شم الأنوف كأنهم بالفضل عقد بالكمال منضد

وهو يمتلك العزم والحزم والسماحة والندى ، وكذلك :

بطل اذا صلت صوارم عزمه خرت عداه في وجوه سجد (١)

وهو يسير الى العليا فيعلو الفلك وليث تنهزم أمامه ليوث الشرى .

فاذا تحول الى مدح الوزير احمد باشا قال عنه (انه مليك جليل ، اكثر كرماً من حاتم واشد اقداماً من عنترة واعظم رأياً من قيس ، واعمق فهماً من إياس .

وبهذه الأوصاف صار ممدوحه :

فتىً جمع الأحسان والحسن والحجا برأي مصيب ماعتراه توهم

وزير بثوب العزم أضحى مؤزراً شجاع بحزم الله فهو المحزم

وليس هذا فحسب ، فممدوحه :

رفيق شفيق بالرعايا ومنقذ اذا ماجيوش الخطب تسطو وتهزم

بسيط العطايا وافر العقل كامل مديد السجايا بحر فضل مطمطم

أديب حليم الخلق بر مكرم جليل جميل الخلق شهم معظم (٢)

---

(١) نفسه : ورقة ٣٠٤ - ٣٠٥

(٢) نفسه : ورقة / ٣٣٨

ومن هذه المعاني التي تشابهت وتشابكت بنسيج الشاعر قصائده في مدح الولاة والوزراء وغيرهم من الذين اتصل بهم. غير ان واحداً من ممدوحيه قد خص بمدحه تخرج على هذا القالب الجاهز من المعاني التي اشرنا اليها، بل هي تشذ في اسلوبها الذي يخلو من المقدمة الطللية والنسيبية ، او تقتصر على معاني الأدب والشعر والفصاحة دون غيرها من المعاني الأخرى ويبنيها الشاعر على غرار همزية البوصيري فيقول :

كيف تسمو سموك الشعراء ياشهاباً سمت به العلياء
وبروض الآداب جزت فأحرزت وروداً لم يجنها الأدباء
اسكرتنا اشعارك الغرّ حتى سكرت من انشادها الصهباء
فيك سر من البلاغة خاف لم تطق نشر طيه البلغاء
وتناهت بك الفصاحة حتى عجزت عد ذكرك الفصحاء (١)

ويمدح الشاعر الرجل نفسه بقصيدة اخرى فيضفي عليه المعاني نفسها . وبذلك يمكن القول ان مديح باشعالم لايختلف في شيء عن مديح غيره من شعراء عصره لأن معانيه تصلح لكل ممدوح وتجوز في كل حالة .

• • •

ليس لعبدالله باشعالم في الفخر سوى قصيدة واحدة طويلة، وخمسة أبيات متفرقة. وليس في هذا الفخر القليل جديد لأن صاحبه تابع القدماء في معانيه ولم يختلف عنهم في أسلوبه.

واول مايلفت النظر في قصيدته اليتيمة هذه ، فخره بنسبه الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

فنحن بنو الفاروق ليس بذا فتىً لئيم ولا بالمكرمات بخيل

اما المعاني الأخرى في القصيدة فيستخلص منها العز والسؤدد والرشاد والعلى والبأس والكرم ، وبها صار قومه شيوخاً وشباباً وشموساً تشرق نورها دون أفول :

وما نحن الا الشمس يشرق نورها ولكنه لايعتريه أفول
وفينا اذا عدّ المفاخر سادة شيوخ وشبان علت وكهول

---

(١) الديوان : ورقة /٣٣٩

وبهذه الصفات يقول الشاعـــــر :

سبقنـا الورى عزاً وفخــراً وسؤددا وفينـا الى طرق الرشاد دليـــل

والشاعر يفخر بكرم قومه وشجاعتهم فيقول :

رجال لنا عنـد الكفاح ضراغــم وأيـد لنا عند العطاء سيــول

ويستعير صورة الكرم التي تجسد شخصيه حاتم الطائي فيقول :

ونار قرانـا في الليـالي مضيئـة وظل حمانـا للوفـود ظليــل(١)

وفي أبيات أخرى يعتد الشاعر بنفسه الى جانب فخره بنسبة العمري فيقول :

اني وأن كنت في اصلي وفي نسبي أعزى الى عمر الفاروق ذي الحسب

ماسدت بالارث عن جـد سما وأب وانما سدت في علمي وفي أدبي

اني عصامي نفس بالفضائـل قـد بلغت فوق الثريا أرفع الرتـب(٢)

غير أن أفضل ماجاء في فخره قوله :

ان كان كفي مـن الاموال خاليـة فان نفسي ملاء من فضائلهـــا

قطع السيوف بدا في حد جوهرها وليس في غمدها أو في فضائلها

وربما أكد هذا عفته ، ودل على بعده عن اعتاب الولاة والحكام .

° ° °

لايختلف رثاء عبدالله باشعالم عن مدحه وفخره ، لأنه تابع فيه معاني القدماء،وأخفق في التعبير عنها بما يحقق عنصر الجدة والاثارة . وكما كان للزمن دوره في قصائد الشكوى ، فقد كان له حضوره في قصائد الرثاء ، فهو يحمله ماأصابه من فواجع ، وحاق به من نوائب وألم به من مكاره .

فجعتـا يازمـان بسوء فعـــل تبدى منك إذ وافى الحمــام

تعادينـــا بـلا ذنـب وزور وتأخـذ مايهـد بـه الدغـام

(١) نفسه :ورقة ٢٤٢ - ٢٤٣

(٢) نفسة :ورقة /٤٢٢

وفي رثاء أحد اصدقائه يكرر لومه للزمان فيستقبحه ويقول :

فيا زمناً أضحى ذميماً وما رعى   ذماماً ما يراعي الأصيل المكرما
فيا دهر مهلاً أين من كان ذا ندى   زكياً ندياً طيب الذات مكرما
ويادهر مهلاً أين من حاز منطقاً   بديع بيان في معانيه قد سما (١)

وفي مرثية لسليمان افندي العمري يتعرض مرة ثالثة للزمان ويقرنه بالهموم والأحزان والموت فيقول :

أيا زمان به غم وأحزان   وفيه كأس الردى للناس ملآن (٢)

والحق أن مامن مرثية للشاعر تخلو من ذكر الزمان القاسي الذي يأتي أحياناً بلفظة (الدهر) ولكنه يرتبط لديه بمعاني الغدر . كقوله في رثاء محمد شريف بك :

أصاب الدهر منه بسهم غدر   قلوباً خطبها خطب جليل
وحملنا بفرقته هموماً   علينا حملها حمل ثقيل (٣)

ويحتل التأسي في قصيدة الرثاء حيزاً واسعاً يجري فيه على طريقة القدماء ، ولا يخلو هذا التأسي من صدق الموقف الشعوري الذي نلحظه في رثائه لعبد الله أغا عبيد افندي الذي يبدي فيه أساه وحزنه على مفارقته فيقول :

مصاب لايطاق وعظم بلوى   وأحزان يخالطها سقام
وفرط أسىً وفقدان قلب   تأجج فيه من كرب ضرام

وعلى عادة القدماء يطلب للفقيد الرحمة من الله ويتضرع بالصبر على المكاره فيقول :

أيا قبراً يضم عظام فرد   عظام لم تماثلها عظام
عليك الرحمة العظمى تجلت   من المولى المعظم والسلام (٤)

وعلى الرغم من أن رثاء باشعالم لايخرج عن صورته التقليدية المألوفة ؛ ألا اننا نلحظ في بعضه مايجسد لواعج أسى الشاعر ويحرك مشاعره الانسانية ، ويعكس عواطفه النبيلة الحارة.

---

(١) الديوان :ورقة /٤٦٨ – ٤٦٩
(٢) نفسه ورقة /٤٧١
(٣) نفسه ورقة /٤٧٢
(٤) نفسه ورقة /٤٧٥

كمثل موقفه من وفاة محمد شريف بك ، حين يقول تعبيراً عن حزنه بوفاته :

بكت أجفان عين الناس طـــرا ... عليه كأن أدمعهـــا سيـــول
نعته الغانيـــات ذوات خــــدر ... فهتكت البراقـــع والحجـــول
ولو يغني البكــاء لكنت ابكـــي ... عليه دمــاً عــلى خدي يسيـــل
ولو يجـــدي الفداء فديت نفسي ... وأرضى أن يقال هـــو القتيــــل
ولكن لايرد الحزن شيئــــــاً ... ولم يفـــد التأسف والعــويـــل
كفــى بالموصل الحدباء حزنـــاً ... وحق لها النواح المستطيـــل (١)

ويمثل هذا الموقف الوجداني مكان الصدارة في المرثية، لأن المعاني الأخرى فيها تظل تقليدية لاجديد فيها ، ولأنها تجيء جاهزة ومرتبة محددة لاتدغدغ مشاعر الألم أو تجسد عواطف الأسى .

وفي ديوان عبدالله بإشعالم موضوعات متفرقة كثيرة ؛ فقد عالج الشيب واستنبط منه المواعظ والحكم والتجارب وربطه بالزهد في الحياة من ذلك قوله :

اذا الشبــاب تقضى والمشيب أتــى ... فلذة العيش لايبقى لها أثـــــر

وقوله :

لــم يبــق مــن عمــر الفتــــى ... بعــد المشيــب سوى القليـــل
فالشـــباب اذا بــــــدى ... صبح المشيــب سوى الرحيـــل

وربطه أحياناً بوقار صاحبه فقال :

وانما الشيــب وقـــار الفتـــــى ... قالت وحجتـي بـذاك البيـــان (٢)

وللشاعر مواعظ وحكم ونصائح كثيرة استنبطها من تجاربه في الحياة وخبرته بطبائع الناس ، وقد توزعت على كل ديوانه ، ولكنه أفرد لها مطولة جمع فيها الكثير مما يعكس

---

(١) نفسه ورقة /٤٧٥

(٢) الديوان :ورقة /٥٧٦د، ٥٥٩، ٤١٣، ٤٠٢

خبرته للحياة وعمق معرفته بالناس وكثرة تجاربه التي اكتسبتها من عمره الطويل ، ومن عشرته لصنوف مختلفة من طبقات المجتمع وبحكم صلاته بهم ، ومن اسفاره القريبة والبعيدة التي عمقت في نفسه عنصر التجربة وزادت من معرفته لأصناف البشر وكشفت له عن معادنهم المختلفة وهيأت له حصيلة وافرة تحولت الى تجارب واقعية بالحياة . والقصيدة طويلة تزيد عن مائة وخمسين بيتاً يقول فيها :

عقل الفتى يعرف من مقاله — وأصله يعرف من فعاله
هل يستوي الغبي واللبيب — والرجل الصدوق والكذوب
ليس الفتى بالحسن والجمال — بل الفتى بالعقل والكمال
وكن عزيزاً لاتكن ذليلاً — وكن خبيراً لاتكن جهولا
من سابق الجواد بالحمار — جنت يداه ثمر الغبار
خير الندى مال من الحلال — يصرف للفقير في السؤال
أذا الفتى قد ذهب الحياء — منه فقد حلّ به البلاء
وآفة المرء من اللسان — وآفة العلم من النسيان
والعقل للمرء صديق صالح — والجهل في المرء عدو طالح
ان المزاح يزري بالحياء — ويذهب الوقار بالرياء
وليس كل عثرة تقال — وليس كل فرصة تنال
ان يكن الغلام طفلاً عاقلاً — احسن من شيخ يكون جاهلاً
ومن يكن يسرع بالجواب — يكن بطيء القول بالصواب (٢)

وفي ديوان الشاعر تخميسات كثيرة ، اشهرها تخميسه لهمزية البوصيري التي تابع فيها معاني التخميسات التي سبقت (٣) وقد خمس الشاعر ايضاً قصيدة البردة المشهورة سنة ١٢٧٢هـ .

---

(١) نفسه : ورقة /٤٠٢ – ٤٠٨

(٢) تراجع الهمزية ، بديوان المخطوط .ورقة /١ – ١٣٥

وقد قرض هذين التخميسين مجموعة من الشعراء والعلماء ، في مقدمتهم الشاعر عبد الباقي العمري وعبد الغني الجميل وعبدالله فيضي وآخرون (١) .

ولشاعرنا رباعيات وثلاثيات جاء معظمها في الغزل .

وله فصل طويل في الدوبيت ، جاء أغلبه عن (انواع الكلام) وقليل منه في الشيب .وقد ترك في التاريخ الشعري شعراً كثيراً ، أرخ فيه لكثير مما يعد وثيقة تاريخية مهمة لمدينة الموصل في الميادين الاجتماعية والعمرانية والعلمية ، ومنها ولادته التي ورد تاريخها سنة ١٢٠٨ .

الطبيعة الفنية

من بدهي القول ، ان القرن الثالث عشر قد ضعفت فيه مواهب الشعراء ، وهزلت معها قدراتهم الفنية شكلا ومضموناً حتى غدا شعرهم ألاعيب واحاجي ومعميات ،وظيفتها الأولى تزجية الوقت واظهار البراعة والقدرة في النظم ، دون النظر في ماينتهي ذلك كله الى ضعف في العمل الأبداعي .

ولذلك تحولت القصيدة عندهم الى اشكال تخلو من المحتوى الفكري الناضج .

والواقع ان هذه الاساءة الى الفن الشعري ليست وليدة هذا القرن حسب ،بل تمتد جذورها الى قرون اخرى سبقتها الى هذا التخلف ولوبحثنا في طبيعة شعر عبد الله باشعالم الفنية لوجدنا فيها الكثير من مظاهر الضعف سواء في اللغة والأسلوب أو في الصورة الشعرية او في استعمالاته البلاغية .

(١)

اذا كان الشعر في دلالاته ظواهر لغوية، فأن اللغة هي مفتاح الولوج الى جوهر الشعر وحقيقية)(٢)وللشعر دور متميز في اللغة يعبر بها عن مضامينه المختلفة لأنه(يطور اللغة العادية ويجددها وان الشعراء لايخلقون الشعر فحسب، بل انهم يخلقون اللغة ايضاً) (٣) .

---

(١) تنظر التقاريض بديوانه ورقة /١٣٢، ١٣٥، ١٨٤

(٢) لغة الشعر الحديث في العراق : عدنان حسين العوادي /١٠ بغداد ١٩٨٥ .

(٣) مداخل الى علم الجمال الادبي : عبد المنعم تليمة /١١٤ القاهرة ١٩٨٧

وشعر عبد الله باشعالم ينحى في اسلوبه منحى الشعر القديم ،ويبدو اعجابه أكثر بشاعر ماقبل الأسلام الذي كان يتخذ من الطلل والنسيب سبيلا الى غرضه الذي يهدف اليه وخاصة المديح. وقد جرى شاعرنا على هذا الأسلوب حين أتخذ من مواقع الجاهليــة واسمائها واطلالها ومرابعها، تمهيداً لموضوعه ،لذلك فقد ورد في مقدمات قصائده ذكر لوادي العقيق ومغاني حاجر والخيف والمحصب وربع الحمى وسفح اللوى والآرام والأظعان والنوى واستعار من الشاعر القديم قوله :

ياخليلي قفـانبك على طيب عيش قد مضى او كان دامـا

وكثر في شعره ذكر الطلول كثرة مفرطة .من مثل قوله :

بيـن الطلول هـام قلبي فمـا أدري الـى أي الطول أذهب

وكذلك الأضعان والربوع :

حادي الأظعان قـف لي لحظة بربوع كـان فيهـا مرتعـي

واقترنت ريح الصبا في شعره بأرض نجد :

كفـاك ياريـح الصبـا منة حمل شـذا الأحبـاب من نجد

وارتبطت ربى نجد بالسحب والمطر، ووقف على سلع واهله، واقترنت نجد بذكر العقيق ، وارتبطت هذه الصورة بعقيق الدمع :

ذاك العقيـق وهـذه نجـد فـأنثر عقيـق الـدمع ياسعد

وبنيت ابيات من الشعر بأكملها بناء قديماً وتخللتها أسماء قديمة أيضاً:

مرعـى الجآذر فـي مرابعـه الشيـخ والقيصـوم والرنـد

وورت اسماء لبنى وسعدى وليلى وهند وسعد وقيس وارتبطت بمنازل الأحباب وورد معها ذكر ريم الحجاز وريم نجران :

إني فهمـت فـي ليلـى فما أربـي ليلـى ولاسعـدى ولا هنـد
ياصاح ان جزت الحجـاز وحاجـر ومـراتع الارام من نجران

---

(١) الديوان :الاوراق /٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٣٠٧، ٣١٤

وتكررت كثيراً اسماء الاماكن واسماء الأعلام ومواقع الحب ومرابع الهوى واقترنت بها أثار الهجر والام النوى، من مثل (رفقاً بصب هائم) و(قف بين الطلول) و(انظر مرابع الرسم) و (عج بالرسوم الدارسات) و(ربع الحمى) و(رسم الأحبة) و(تغفو الظعون) وبمثل هذه العبارات بنى الشاعر شعره ونوع بها اساليبه، لكنها تظل بعيدة عن روح الشعر الجيد لأنها ظلت تابعة لأساليب القدماء.

* * *

ولموقع الشاعر العلمي، ولثقافته الدينية أثر في لغته، فقد تأثر ببلغة القرآن الكريم حتى جاء بعض أبياته أقرب الى الاقتباس، كقوله :

ولن تنالوا البر حتى تنفقوا   مما تحبون وحتى تتقوا

وقوله :

وليس يحيق المكر الا بأهله   اذا لاح نور الحق عند التجارب

وقوله :

واني لم اشرك سواهم بحبهم   وآمنت في توحيدهم بالبها قدما

وجاء بعض العبارات صدى لرئاسته لعلماء الموصل، وتجسيداً لثقافته الدينية، كقوله :

قضى الله للعشاق بالحزن والأسى   ولا رد لو قاضي القضاة قضى حكما

وقوله :

أبحت قتلي وقاضي الشرع حرمه   فهل بقتلي مفتي العشق أفتاكي (١)

واستخدم باشعاله اللغة العامية اسوة بشعراء عصره، وقد جاء بعض ذلك جميلاً خفيفاً، وورد بعضه الآخر نابياً ثقيلاً شكلا ومضموناً، من ذلك قوله موظفا بعض الالفاظ الموصلية المحلية التي تعكس بيئة الموصل الحضارية والفولكلورية :

آهاً على بطيخها وخيارها   أو قرعها المطبوخ بالرمان

وقوله مشيراً الى الايوان، وهو جزء مهم من دار السكن في مدينة الموصل :

---

(١) الديوان : ورقة /٤٠٤، ٣٠١، ٢٢٧

وأطوف في تلك الوهاد تنزهاً وأعود في فرح الى الايـــــوان

وقد ذكر في قصيدته التي أسلفنا الحديث عنها ، مجموعة من اسماء الأماكن في مدينة الموصل ، لاتزال تعد من مواقعها المهمة التي تشكل تراث المدينة الحضاري والقومي ، من مثل (تل العاشق ، يحيى أبي القاسم ، وادي سحله ، شط الحصا ، الجوسق ، الدندان ، وادي العوينا ، حمام العليل ، تل السبت ، جامع النبي شيت ، جامع النبي جرجيس وغيرها كثير» (١) .

ومن استخداماته العامية السيئة قوله :

قورت به منا العيون وان يكـــن قـــد قـــورت فيـه عيون حقـــود

وأقبح منه قوله يهجو أحد خصومه :

أقبـح من جرم خنـاه عـــذره كمن يغسـل بالبول الخـــرا (٢)

وفي شعر باشعالم ، تكثر الأخطاء الإملائية والنحوية ، وتنتشر التجاوزات العروضية ؛ فقد استخدم لفظة (بلول) وهي محلية موصلية بدلاً من (بلور) ، وأخطأ في كتابة كلمـــة (أضاءت) اذ جعلها (أضائت) ووردت كلمة (ثارة) بالتاء الطويلة (ثارت) وجاءت لفظة (الهوى) بالالف الممدودة (الهوا) ورقعت همزة (ضياءه) ضيا (ضياءه) المنصوبة على كرسي الياء (ضيائه) وذلك بقوله :

فاق الغزالة ونوره وضيائه ...الخ البيت.ووردت كلمة (اهدى) بالالف الممدودة (اهدا) ومثل هذه الاخطاء كثيرة بديوانه وتنسحب هذه الظاهرة على الاخطاء النحوية،اذ تنتشر بديوانه انتشاراً شديداً كمثل قوله (اين لي عمر نوح الف عاماً) والصحيح (الف عام) . وقوله : (وليس عجيب) والصحيح (وليس عجيباً) وقوله (ان كنت بدر) والصحيح (بدراً) وقوله (لو أنها نطاقاً) والصحيح (نطاق) ، ويقول (ولم يردي) والصحيح (يرد) مجزومة بحذف حرف العلة (وسلوا محب) والصحيح (محباً)ومثل هذه الاخطاء تشكل ظاهرة سيئة بديوانه(٣)

---

(١) تراجع في القصيدة ورقة /١٨٨ - ١٩٦

(٢) الديوان ورقة /٣١٦، ٥٧٧

(٣) تراجع بديوان ورقة /٢٠٣، ٢١٣، ٢٥٢، ٢٦٧، ٤٦١

اما ضعف التعبير فانه يشكل اضعف ظواهره الفنية لأن قاموسه الشعري في الفاظه وعباراته ، وكذلك ضعف قدرته في البناء الشعري ، وما يسوده من أخطاء وما يعمه من تكرار ممل يثقل كاهل البيت ، وكذلك ضعف صوره وجريه في اسلوبه وراء الأقدمين كل ذلك قد حقق في تعبيره ضعفاً وفي اسلوبه ركاكة أساءت الى فنه الشعري.

ولايعجز الباحث الاستشهاد بأية قصيدة من قصائده للتأكيد على ضعفه الأسلوبي ومن ذلك قوله.

خمرة قد مزجت في ريقه ... فلهذا أسكرت من جهتين

فكأن في البيت معادلة كيميائية قوامها الخمرة وريق المحبوب ونتيجتها سكر الشارب .

وقوله :

وصفاء ريقها الى ماء السما ... ء ينمي وينسب ثغرها للجوهري (١)

وأمثال هذه التعابير تنتشر بديوانه.

اما التكرار فهو ثالثة الأثافي في شعره . وربما تكرر في كثير من ابيات القصيدة والشطر والبيت، حتى تحول الى لعب بالألفاظ كقوله :

ولطالما طال اشتياقي بعدهم ... طال اشتياقي بعدهم ولطالما

ويلاحظ في البيت تكرر حرف الطاء ولفظتي طال ـ ولطالما. ومثل هذا قوله.

ياليتما عطفوا علي بنظرة ... عطفوا علي بنظرة ياليتما

وكذلك قوله

عهدي به قد كان يرعى في الهوى ... عهدي ويحفظ بالتعاهد معهدي

وقد اساء الى البيت تكرار حرف الهاء ومايتكون منه من الفاظ .

وقوله :

وعام ينقضي معكم كيوم ... ويوم لااراكم فهو عام

فقد تكرر حرف الميم ست مرات، وتكررت لفظتا عام ويوم مرتين ؛ وقوله :

راح بها روح براحة أغيد ان ... راح يسبي الروح من جثمانها

---

(١) ديوان :ورقة/ ٢٦٧، ٢٢٦

فمعظم البيت مبني على حرفي الراء والحاء، فأساء ذلك الى البناء.

ومثل هذا قوله:

بيد الصبا عصر الصباح كرومها فضت وراق عصيرها بدناها

فقد تكرر في البيت حرف الصاد خمس مرات. .ومثله قوله:

اذ راح يحكي الراح في راح كفه ويمزجها من ريقه الشيم الشهد

فقد تكررت لفظه الراح في الشطر الأول فقط ثلاث مرات . وقوله

فويل لهم ويل وويل فكم له عليهم أياد سائغات المشارب (١)

فليس في الشطر الأول غير لفظة (الويل). وعلى هذا النسق المطرد بنى الشاعر كثيراً من قصائده

(٢)

اذا بحثنا موضوع الصورة في شعر عبد الله باشعالم ، فأن أخطر مشكلة تجابهنا هي حقيقة الصورة نفسها خصوصاً اذا سلمنا بأن الصورة في حقيقتها هي عملية (تركيبية وجدانية تنتمي في جوهرها الى عالم الوجدان أكثر من انتمائها الى عالم الواقع) (٢)

واذا آمنا كما يقول دي لويس(ان الخيال هو الملكة التي تخلق وتثبت الصورةالشعرية)(٣)

كما ان اللغة الشعرية تلعب دوراً حاسماً في نجاح الصورة ؛ لأن الصورة في نظر البعض (هي اللغة مضافاً اليها الخيال) (٤). كما ان البحث في العلاقة بين الشاعر ولغة التعبير عن افكاره وعواطفه ومشاعره هي القاعدة التي تعتمدها الصورة) (٥).

فاذا عرضنا الصورة الشعرية في شعر عبدالله بأشعالم واجهتنا مشكلتها مع كل القيم

(١) نفسه ورقة /٣٣٢، ٣٠٣، ٦٢٨، ٢١٢، ٣٠١

(٢) الشعر العربي المعاصر :عز الدين اسماعيل /١٢٧

(٣) الصورة الشعرية :سي دي لويس .ت احمد نصيف الجنابي /٧٣ بغداد ٩٨٢

(٤) التجديد في الادب معناه وتطوره: ابراهيم الفرملي /م/الادب بغداد /٥٤٠ عدد ١٩٧٩/٢٤
وينظر العقاد ناقداً عبد الحي دياب ٤٨٣ - ٤٩٣ مصر ١٩٦٥

(٥) الصورة في القصيدة العراقية الحديثة :عناد غزوان /الا قلا م /٨٦ عدد /١١ - ١٢

الفنية التي استشهدنا بها، سواء مايتصل منها بوجدان الشاعر الذي يضعف ضعفاً شديداً ، أوما يتعلق بعنصر الخيال الذي يكاد يغيب في شعره او في صلتها بالعاطفة التي يسودها الجفاف أوفي علاقتها بعنصر اللغة الشعرية التي رأينا ضعفها وركاكتها وضحالتها في الكثير من قصائده.

والحق اننا لوحاولنا بحث الصورة الأدبية لشعراء القرن الثالث عشر الهجري ومنهم شاعرنا لما امكننا أن نضعها الا في باب الصورة البيانية حسب ، ولكنها تخفق أيضاً في تأكيد حضورها ، من حيث نجح شعراء العصر العباسي في رسمها نجاحاً كبيراً. والسبب يعود اولا وآخراً الى ضعف قدرة الشعراء وامكاناتهم الفنية في هذه الفترة ومنها الصورة لدى شاعرنا اذ فقدت كل المقومات الضرورية في تشكيلها وصياغتها وفي توفير عناصرها الأساسية المطلوبة لديه (١) .

وازاء هذه المتطلبات لأبد ان نبحث في الصورة الشعرية لعبد الله بشعالم في ضوء واقع فنية القصيدة في هذا القرن. أول مايلاحظ في صوره أنها تقليدية جافة ، ذات ابعاد محدودة ،وطبيعة مادية قاسية ،وانها في معظمها ترسمت صورة شاعر ماقبل الأسلام .

من ذلك قوله :

ومــلاح فــي خــدود طلعــت بوجــوه كالبــدور المطلــع
أقبلت تختال في حلتها بقــدود كـالرمــاح الشرع
تركــونــي يــوم زمــت عيسهم بفؤاد مستهام موجع (٢)

ويلاحظ في هذه الأبيات الثلاثة الحدود القاسية والمادية المستحكمة في الصورة، ولو كان الشاعر حاول استغلال العنصر العاطفي والنفسي الذي تحققه حالة وداع الحبيب للحبيب لأ ستطاع البيت الثالث ان يحقق صورة جيدة وذلك بتوفير عنصري العاطفة والخيال على الوجه المطلوب ولكنه أخفق في تحقيق ذلك. ويقول في القصيدة نفسها :

حادي الأضعان قـف لي لحظة بربـوع كـان فيهـا مرتعـي

والصورة منسوخة نسخاً تاماً من صور شعر ماقبل الأسلام .

---

(١) يرجع بهذا الى عناصر الصورة : العقاد ناقداً عبد الحي دياب /٤٤٤ – ٤٤٧

(٢) الديوان ورقة /٢٠٨

ومن صوره التقليدية تقليداً ملحاً للصورة القديمة قوله :

وبدت تجر من الدلال ذيولها قد وشحت بجواهر وعقود

فليست صورة الدلال والغنج والتبختر التي يعج بها التصوير القديم هي مانلاحظ فيها حسب ،ولكنه الشطر الثاني الذي توافر على ادوات الزينة ، وهي أدوات محسوسة منظورة مادية هي التي اساءت الى البيت ، وقضت على العنصر المعنوي الذي كان يمكن ان يستغل في الشطر الأول . .

ويتابع الشاعر تصوير حبيبته فيقول :

واذا تبسم ثغرها ضاعت لنا مابين بانات النقاد وزرود

يزهو محياها الجميل كروضة مشحونة بمحاسن وورود

بشقيق وجنات ونرجس أعين وخزام أصداغ وورد خدود (١)

وعلى هذه الشاكلة راح الشاعر يصف وجهها بالرياض المشحونة بالورد – وهو تعبير سيء – ويصف وجنتيها بشقائق النعمان وعينيها بالنرجس ، وصدغها بورد الخزام وخدودها بالورد .

وكل التشبيهات في البيت الثالث يعتمدها البيت الثاني في لفظة الروضة لان هذه التشبيهات مجموعة اشياء في شيء واحد وهو الروضة،وكلها منتزع من المألوف في الوصف العربي القديم، ويعتمد المحسوس المنظور – وليس فيه أي أثر نفسي أومعنوي .

وعلى هذا الاساس يقوم معظم تصوير باشعالم ، بل يقوم عليه معظم تصوير شعراء هذه الفترة .

والملاحظة التي تلفت النظر في هذا التصوير ، هي ارتباطه ارتباطاً شديداً بمظاهر الطبيعة كما اسلفنا في ذلك القول وربما قامت قصيدته التي وصف فيها معالم مدينته الموصل على هذا الاعتبار ، واغلب الظن أن بيئته التي قضى فيها معظم سني حياته كان لها أثر في ذلك .

وليست ادوات الزينة المنظورة والمحسوسة الطبيعية هي التي اعتمدها الشاعر في تشبيهاته واوصافه ، وهي التي تنتشر في الرياض والحدائق ، بل امتدت أداته التعبيرية الى مايكمن في

---

(١) نفسه ورقة /٣١٣

البحار من ياقوت ودر ومرجان وجواهر وأصداف . ومن ذلك قوله :

والخد ياقوتة والثغر جوهرة وقد حكت شفتاه عقد مرجان
له ثنايا كدر ضم في صدف من فيه والريق فيه من شهد حلوان
وورد خديه في جنات وجنته من عارضيه لقد حفت بريحان (١)

ويتابع الشاعر وصفه لمظاهر جمال الحبيبة، فيتحدث عن لحظها وجيدها وأعطافها التي تحكي غزلان نجران وعن خصرها الذي يشبه دقته الهلال ، وعن قوامها الذي يحكي الاغصان .

وبتعبير دقيق ، يمكن القول : ان الصورة في شعر عبدالله باشعالم اعتمدت مادتها ونسيج ملامحها كل مظاهر الطبيعة الحية المعروفة ، وقد أساء هذا الى فنيتها اساءة شديدة ، لأن هذه المظاهر ظلت تحتفظ بعنصرها المادي وبقيت في الصورة الشعرية مقطوعة الصلة بمواقف الشاعر الانسانية ومشاعره الوجدانية ، وذلك لأن عنصر الخيال — وهو عنصر أصيل في الصورة — لم يكن على وفاق مع عنصر العاطفة . كما ان اتجاه الشاعر الى التقليد حسب ،قد أضاع الفرصة على ابتكار الصورة الجيدة بل يمكن القول ان معظم العناصر الفنية الاخرى المطلوبة في الصورة لم تكن على وفاق هي الاخرى مع اتجاه الشاعر في رسم الصورة الأدبية المطلوبة .

وتبقى ملاحظة أخيرة : وهي توفر هذه الصورة على عنصر اللون توفراً لاحدود له ، ويعزى هذا في رأينا الى ان اللون عنصر منظور أولاً ، وأنه بعد ذلك مرتبط ارتباطاً عضوياً بمظاهر الطبيعة التي سيطرت — كما قلنا — على عنصر التصوير في شعره سيطرة شديدة .

(٣)

ان غلبة الصورة البيانية والمحسنات البديعية في شعر عبدالله باشعالم ،قد وفرت قدراً كبيراً من الأوجه البلاغية ولكنها لم تحقق الهدف الجمالي المطلوب ،لأنها اساءت الى فن الصورة وجمال

(١) الديوان : ورقة /٣٢٠

العبارة وقوة الفصاحة ، وذلك لأن هندسة هذه الاوجه لم تكن على قدر من البراعة البيانية بل جاءت تكديساً للجناس والطباق والكناية والتشبيه غير الموفق – وبذلك لم تؤد غرضها المطلوب في الجمال والايحاء ، بل اثقلت الصورة وحملت البيت الشعري اكثر من طاقته

ويبدو ان فن الجناس والطباق كان اكثر حظا من كل المحسنات في شعر شاعرنا ، وربما كان معظم شعر القرن الثالث عشر كذلك . وهدف هذين اللونين في الشعر القديم هو تجميل البيت وترصيعه واضفاء حلة من الجمال عليه . لكن شعراء فترة ركود الفن الشعري قد اساؤا استعماله ، وتابعهم في ذلك عبدالله بإشعالم فأكثر الاساءة ، وجعل البيت كله يقوم على المجانسة والمطابقة . من ذلك قوله

واهوى الغواني وانعى المغاني وانشي المعاني وأبدي الفضولا

فقد جانس بين الغواني والمغاني وعلى ذلك قام البيت ففقد جماله وهدم معناه .

ويبنى البيت كله من الجناس في كثير من شعره كقوله :

تقياً نقياً حيياً بهياً ذكياً زكياً جميلا جليلا
عطوفاً رؤوفاً عفيفاً شريفاً رحيماً حليماً كريماً أصيلا(١)

ولو حاولنا حصر الجناس وانواعه في شعره الشاعر لعجزنا عن المحاولة ، لأن هذا اللون في شعره يشكل اعظم الظواهر الشكلية التي أساءت الى فنه الشعري .

في شعره يطابق بين الوصل والقطع بقوله :

وما هو الا اقتحام مهالك ووصل ملمات وقطع سباسب

وفي طابق البيت التالي بين فساد وصلاح فقال :

ومن يك من اهل الفساد فماله صلاح سوى تقطيعه بالقواضب(٢)

---

(١) الديوان ورقة /٢٨٦ – ٢٨٧
(٢) نفسه ورقة /٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠١

وعلى هذا النحو راح « الشاعر يملأ شعره بالطباق الذي يحول بين الشعر وجماله .

وليست الكناية أقل حظاً في شعر الشاعر ، على انها اقوى اداء ، واجمل تمثيلا ، وذلك لمايتوافر عليه من أيحاء لايتوافر في والجناس والطباق ؛ فمن كناياته المقبولة قوله :

يكفيه للراجين عشر سحائب وفيها لأهل البغي عشر كتائب

كنايه عن كرمه وسطوته . ومثله قوله :

نمير إذا عاديته عاد علقماً وصعب لدى الهيجا مع لين جانب(١)

كناية عن طبعه في حالتي اللين والشدة :

أما التشبيه بأنواعه المعروفة ، فلم يكن اقل تأثيراً في الأساءة الى فنه الشعري، لانه لم يوضع في موضعه الذي هوله، ولم يبن على اساس ماأسند اليه من إيحاء واثارة . من ذلك قوله :

والخصر مثل هلال والقوام حكى غصناً يميل بردف مثل كثبان (٢)

وهو تشبيه بالأداة ، ويجيء احيانا بغير أداة مصاحبا التشبيه بالأداة كمثل قوله :

جبينه الفجر والشعر والدجى والـ ـسه وجه جميل كمثل التم نوراني

وكقوله وفي تشبيهه أداة :

وان تثنت كغصن البان قامتها فليتني لتثني عطفها ثان

وقوله بغير اداة

ان كان دمعي من الأجفان فاض دماً فالدمع دمعي والأجفان اجفاني(٣)

ويلاحظ في البيت تكرار لفظة (الدمع) ثلاث مرات ومثلها لفظة (الأجفان) ، ومرتين في لفظة (تثنت) وهو ماأساء الى معناه .

---

(١) نفسه ورقة /٣٠٠

(٢) نفسه ورقة /٣٢٠

(٣) نفسه ورقة /٣١٨، ٣١٩

ولايجد الباحث لشعر عبدالله باشعالم أية صعوبة في تقصي الوجوه البلاغية ولكنه سيجد الجانب الشكلي يقضي على بهاء الفن الشعري بما حشر فيه الشاعر من الوان خرجت عن طبيعتها الصحيحة فاستحالت بذلك الى الفاظ ميتة فقدت وظيفتها الجمالية .

° ° ° ° °

بقي ان نشير اخير الى الموشحة الوحيدة التي ضمنها عبدالله باشعالم ديوان شعره في موضعين ، ولهما يبدأ بالصفحة ٢٥٩ –٢٦٣ ،ويتكون من سبعين بيتا،وثانيهما ورد في ص٢٦٥–٢٦٦ مكرراً منه ماجاء على قافية الحاء فقط باثنين وعشرين بيتاً فقط . في حين ورد قافية حرف الحاء في الموشحة الكاملة في ثلاثين بيتا كاملا . ومعنى هـذا ان ماورد من الموشحة في صفحة ٢٦٥ – ٢٦٦ قد تكرر في اثنين وعشرين بيتاً من اصل ثلاثين ورد مع أصل الموشح الكامل .

ويبد و ان ناسخ الديوان لم ينتبه الى هذا الغلط الذي وقع بعض الدارسين فيه ايضاً .

يتألف موشح باشعالم من سبعين بيتاً يبدأ بقوله :

أيـهـــا الساقي تنبه ان نـجـم الأفـق طـــاح

وظــلام الليـل أدبـر وضيـــاء الـفـجـر لاح

فـــأدر كأس الـحـميا واسـقـنـي يـاصـاح راح

ويقوم مضمون الموشح على ثلاثة موضوعات هي الغزل ووصف الخمرة والطبيعة .وهذه الموضوعات – كما اسلفنا القول فيها – قد تقاطعت في عدد كثير من قصائد الشاعر ، حتى كادت تشكل وحدة موضوعية فيه والحق ان هذه المحاور الثلاثة ، في مضمون الشعر العربي وربما الشعر العالمي هي موضوعات في موضوع رئيس واحد لان وصف الخمرة لايطيب عند الشاعـر الا في ظل الطبيعة ، ولايجمل الحديث عن الحب الا في كنف هذين الموضوعين ويجيء في معظم الشعر العربي وصف الخمرة مع وصف ساقيهــا الـذي هو لمحبوب احيانا . ولاتكتمل هذه الصورة الافي احضان الطبيعة التي تضفي على الشاربين ، وسقاتهم جوانفسيا لايتحقق الا بها .

ولذلك صار طبيعيا ان ترتبط معاني الخمرة بمعاني الغزل ومظاهر الطبيعة . وقد حققت موشحة باشعالم هذه الوحدة وعلى الرغم من قصور الجانب الفني في معظم شعر الشاعر ، لغلبة الجانب الحسي عليه ، الا ان هذه الموشحة على طغيان هذا الجانب ، قد وفرت الجانب المعنوي ، اوعلى اقل تقدير قد خففت من قسوة الجانب الحسي في بعض صورها ، كمثل قوله في وصف ، أثر الحبيب في العشق .

فتن العشاق حسنا ... كلما ماس ومراح
بتثن واعتدال.. ... ..كغصون ورماح
جلنار الخد أورى ... في فؤادي جلّ نار
وعيون الحب سكرى ... هي من غير خمار
كيف أسلو عن حبيب ... أخذ العقل وراح

ولم يأت وصف الطبيعة أقل اثارة وجمالا ، كقوله :

ماترى الأزهار تزهو ... بين آس وخزام
وطيور الأيك تشدو ... من هزار وحمام
وغدا النرجس يرنو ... بعيون لاتنام
وشقيق الروض فتح ... وشذا النسرين فاح
ونثار النهر طرز ... وجنة النهر وساح (١)

ولاشك في ان الشاعر قد حقق في موشحته اليتيمة هذه ، العديد مما يتطلبه هذا الفن الأندلسي الذي فتن به اهل المشرق فنظم فيه شعراؤهم وعارضوه واجادوا فيه . فقد وفر الشاعر له قدراً مقبولا من صفاء اللغة ورقة العبارة وجمال الموسيقى ورشاقة الوزن ، وتلك صفات قلما نجد لها مثيلا في موضوعات شعره الأخرى .

---

(١) الديوان : ورقة /٢٥٩ – ٢٦٣

ومن طريف الصدف ، القول ان شعراء هذه الفترة الذين نظموا الموشح ، قد حققوا في نظمه قدراً مقبولا من متطلباته الفنية ، كما حققوا فيه الأجواء المعنوية والنفسية ، في حين أخفقوا في تحقيق هذه المتطلبات في فنونهم الأخرى .

ونذكر على سبيل المثال ، ماحققه الشاعر عبدالباقي العمري — وهو من اشهر شعراء هذا العصر — في موشحته التي عارض فيها موشحتي ابن سهل وابن الخطيب الأندلسيين ، والتي فضلها محمد مهدي البصير على معاني الموشحتين . (١) .



---

(١) انظر : الموشح في المشرق وفي المغرب — محمد مهدي البصير / ٤٦ بغداد ٩٤٨
عبد الباقي العمري — حياته وأدبه :سالم الحمداني /٢٣٤ — ٢٣٩

مراجع البحث

الأدب العربي الحديث ـ دراسة في شعره ونثره سالم الحمداني وفائق مصطفى ـ الموصل ١٩٨٧ .

التجديد في الأدب ابراهيم الوائلي بغداد ١٩٧٩

ديوان عبدالله باشعالم عبدالله باشعالم مخطوط

ديوان الموشحات الموصلية محمد نايف الدليمي الموصل ١٩٧٥

الشعر العربي المعاصر عزالدين اسماعيل بيروت .ب . ت

الصورة الشعرية دي لويس. ترجمة احمد نصيف الجنابي بغداد ١٩٨٤

الصورة في القصيدة العراقية الحديثة عناد غزوان ـ الأقلام ١٩٨٦

العقاد ناقداً عبدالحي ذياب القاهرة ١٩٦٥

لغة الشعر الحديث في العراق عدنان حسين العوادي بغداد ١٩٨٥

مداخل الى علم الجمال الأدبي . عبدالمنعم تليمه القاهرة ١٩٨٧

فن الوصف في الشعر العراقي محمد حسن علي مجيد رسالة دكتوراه بغداد ١٩٨٥

الوصف وتطوره في الشعر ايليا حاوي بيروت ١٩٨٠ ط٣

«صيغ المبالغة في القرآن الكريم»

دراسات لغوية :

د. حازم طه مجيد
كلية الآداب — جامعة الموصل

منهجنا في هذا البحث يسير بطريقة علمية احصائية تنبني على حصر المواضع التي وردت فيها صيغ المبالغة في القرآن الكريم .

واني —قبل أن أعرض لصيغ المبالغة في القرآن— أود ان الم المامة عجلى بأمر قياسية وسماعية هذه الصيغ من أثر وجهود علماء النحو قدامى ومحدثين .

١ — صيغ المبالغة بين القياس والسماع .

١ — سيبويه :

تناول سيبويه في مؤلفه صيغ المبالغة، فقال : (وأجروا اسم الفاعل اذا ارادوا ان يبالغوا في الأمر ، مجراه اذا كان على بناء فاعل ، لأنه يريد به ماأراد بفاعل من ايقاع الفعل ، الاأنه يريد ان يحدث عن المبالغة . فما هو الأصل كرحيم .... والخ) (١) يفهم من عبارة سيبويه إجازة القياس لصيغ المبالغة وذلك في قوله (إذا ارادوا ان يبالغوا) ولوكان يرى أنها تقتصر على السماع لقال : سمع عن العرب هكذا وأكتفى ، ولذا نراه يدلل على صحة هذا ويعللّه بقوله(لأنه يريد به ماارادوا بفاعل من ايقاع الفعل الا أنه يريد ان يحدث عن المبالغة).

٢ — المبرد: —

عبارة المبرد في المقتضب تنحو بظاهرها نحوقياسية صيغ المبالغة فيقول :(فإذا اردت أن تكثر الفعل كان للتكثير أبنية .....) ثم يورد الأبنية الخمسة ، ففي كلامه « اذا اردت» اشارة واضحة كل الوضوح الى قياسية صيغ المبالغة الخمس .

(١) الكتاب :لسيبويه ١١/١ تحقيق عبد السلام هارون
(٢) المقتضب :للمبرد ١١٣/٢ تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة

٣ – الزمخشري :

نقل الزمخشري في مؤلفه عبارة سيبويه، فقال (قال سيبويه: وأجروا اسم الفاعل إذا ارادوا ان يبالغوا في الأمر مجراه اذا كان على بناء فاعل يريد نحو شرّاب وضروب ومنحار ...(١).

وقد تابعه ابن يعيش فقال ....(لأنه يريد به ماراد بفاعل من ايقاع الفعل الا ان فيه اخباراً بزيادة مبالغة وتلك الأسماء فعول وفعّال ومفعال وفعل وفعيل لجميع هذه الأسماء تعمل عمل فاعل ... هذا ضروب زيداً ، هذا ضرّاب عمراً وحَذِر عدوه ورحيم أباه) (٢) .

٤ – ابن مالك :

قال ابن مالك فى الألفية : (٣) .

فَعّال اومفعال أوفعول — في كثرة – عن فاعل بديلُ
فيستحق مالَهُ من عمل — وفي فعيل قلّ ذا وفعل

أشار ابن مالك بهذين البيتين الى كثرة ورود الصيغ الثلاث : فعّال ومفعال وفعول ،والى قلة ورود فعيل وفَعِل .

وأشار الصّبان في حاشيته على الألفية بأن قوله (فيستحق ماله من عمل) يفيد ان جميع الأمثلة الخمسة تعمل قياسيا وهو الأصح) (٤) .

وذهب الدنوشري الى ان البصريين قد جعلوا الصيغ الخمس قياسية .

فقال : (مذهب البصريين منقاسة في كل فعل متعد ثلاث ، نحو ضرب .

تقول : ضرّاب ، ومضراب ، وضروب ، وضريب ، وضرب) (٥) .

---

(١) ابن يعيش .شرح المفصل ٧/٦

(٢) المصدر نفسه. ٧/٦

(٣) ابن عقيل ٩٠/٢٠

(٤) انظر حاشية الصبان ٢٩٦/٢

(٥) انظر شرح التصريح على التوضيح ٦٧/٢

٥ ـ السيوطي :

أشار في مؤلفه همع الهوامع، اليها فقال : (يعمل بشرطه ماحول منه للمبالغة الى فعّال وفعول ومفعال وفعيل وفَعل .. وبعد ان اورد الأمثلة قال : ولدلالتها على المبالغة لم تستعمل الا حيث يمكن الكثرة ، فلايقال موات ولاقتال زيد (١). فالظاهر من كلامه جواز الصياغة على هذه الأوزان مانريد من الأفعال اذا مادلت على الزيادة وكانت قابلة للتكثير .

نحويون معاصرون ؟

آ ـ عباس حسن :

يجدر بنا بعد ماأسلفناه ان نذكر آراء بعض النحويين المحدثين واول مانتجه اليه هو عباس حسن .يقول (يمكن تحويل صيغة فاعل الدالة على اسم الفاعل من الثلاثي الى صيغة«فعال» او غيرها (من الصيغ المعروفة باسم صيغ المبالغة . واشهرها خمس قياسية في : فعّال ،ومفعال وفعول ، وفعيل ، وفعل) ثم يذكر صيغاً اخرى مقصورة على السماع ، واشهرها من الفعل الماضي الثلاثي ، « فعّيل ، مفعل ، نحو « شريب ، مسْعر ... »

ب ـ محمد الخضر حسين :

لقد ورد في مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة بحث قيم لمحمد خضر حسين ، جاء فيه قوله (ثم وقفنا على عبارة لأبي اسحاق الشاطبي في شرح الخلاصة تدل على ان بناء صيغ المبالغة مقيس ، وظاهر اطلاقها أن هذه الصيغ «فعّال ، مفعال ، فعول ، فعيل ، فعل » مقيسة في المتعدي واللازم » (٣) .

الى هنا قد استعرضنا عدداً من الكتب النحوية لمعرفة آراء النحويين في صيغ المبالغة ولو شئنا ان نستقصي ماحظيت به كل الكتب النحوية لذهبنا الى مدى بعيد ، ولأن المقام يقتضينا الأيجاز وحسبنا بعد ماأسلفناه يمكننا ان نحكم مطمئنين بقياسة الصيغ الخمس الدالة على المبالغة وهي : فعّال ، ومفعال وفَعول وفعّيل وفَعِل ، وماعدا هذه الصيغ فهو مسموع عن العرب ولايقاس عليه .

(١) السيوطي .همع الهوامع ٢/٩٧

(٢) عباس حسن .النحو الوافي ٣/٢٠٩

(٣) انظر دراسات في اللغة لمحمد الخضر حسين ص٧٢

«صيغ المبالغة في القرآن الكريم»

بعد هذا التمهيد الذي لم يكن بدّ من تقدمته نعود الى موضوعنا ، واول مانتجه اليه في هذا الصدد هو صيغة :

١ – فعيل

لقد تتبعت صيغ المبالغة في القرآن فوجدت ان صيغة (فعيل) اكثر صيغ المبالغة وروداً في القرآن ، واحصيت عددها فوجدتها (مائة) لفظة على وزن (فعيل) غير مكررة وهذا العدد يشمل صفات الله عزوجل وصفات الرسل – عليهم الصلاة والسلام وصفات المؤمنين ، وعامة الخلق من حيوان وجماد ! ....

ومايجدر بنا ان نشير اليه في هذا المقام ان صيغة (فعيل) وردت في صفات الله تبارك وتعالى مكررة (٩٢٧) مرة وكانت (٢٣) صفحة ، وهي : بديع كريم ، حفيظ ،سميع بصير رحيم حليم ، شهيد ، حسيب ، رقيب ، عليم ، قدير .... والخ

وحري بنا ان نشير اليه في ضوء دراسة هذه الشواهد أننا لم نجد ذكراً لأعمال صيغة فعيل في القرآن الكريم مطلقاً .

فالبصريون والكوفيون اتفقوا على وجود الأسم المنصوب بعد صيغ المبالغة،ولكن اختلفوا في تعليل ذلك

قال الشاعر (١) :

فتاتان امّا منهما فشبيهـــة هـــلالا واخرى منهما تشبه البدرا :

الشاهد فيه قوله : «فشبيهة هلالاً» حيث أعمل صيغة المبالغة التي على زنة فعيل – وهي قوله «شبيهه» عمل اسم الفاعل الذي هو أصلها ، نصب بها مفعولا وهو قوله « هلالا» .

فالبصريون يجوز في مذهبهم أعمال صيغ المبالغة عمل الفعل واستدلوا له بالسماع والقياس . اما السماع فهذا الشاهد الذي أوردناه وغيره في الكتب النحوية.

---

(١) هو عبد الله بن قيس الرقيات

وأما القياس فلأنها واقعة موقع اسم الفاعل الذي فعله على مثال فعل — بتشديد العين الا ترى أن صيغة فعل — بتضعيف العين — تدل على الكثرة والمبالغة أما الكوفيون فيمنعون ذلك ولايجوز في مذهبهم ، وعندهم أنه إذا ورد في كلام العرب ما ظاهره أعمال صيغة منها فإنه مؤول (١) ويجمل بنا أن نورد أمثلة عما ورد في القرآن الكريم لنعلم نهجه في أيراد صيغ المبالغة .

قال الله تبارك وتعالى (فإن تولّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولاتضرونه شيئاً أن ربي على كل شيء حفيظ) (٢). هذه الاية ذكرها القرآن الكريم على لسان هود عليه الصلاة والسلام بعد أن كذّبه قومُه واستهزؤا به وقالوا له فيما قالوا : (أن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) (٣) فهم يعتزون بآلهتهم ، وهود عليه الصلاة والسلام يريد صرفهم عنها ولكنهم كانوا يستهزؤن به ، ويزعمون أن آلهتهم تضر وتنفع ، فأراد هود أن يحطم هذا التصور ، ويعلمهم أن الله هو الذي يحفظ كل شيء ولايعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الارض ، وكذلك يحفظ نبيه من الكيد ومن المكر .فلما أراد أن يضخم هذه الصفة العظيمة في هذا الموضع وهي «الحافظ» قال : «حفيظ» وهي على صيغة «فعيل» مبالغة «حافظ» على وزن «فاعل» وبذلك أدت صيغة المبالغة المعنى المطلوب في السياق ، فوجد هذه الصفة في الله تبارك وتعالى وهي صيغة المبالغة أغنت كثيراً من التكرار أو التوكيد . قال النسفي : (وحفيظ : رقيب عليه ومهيمن ، فما تخفى عليه اعمالكم ولايغفل عن مؤاخذتكم) (٤)

ولنأخذ آية أخرى وهي قوله تعالى (وبشرناه بغلام حليم) (٥) وهذه بشارة الله تبارك وتعالى لابراهيم عليه الصلاة والسلام جزاء أخلاصه لداعي السماء ، واخلاصه في توحيد الله ربه . فوهبه الله اسماعيل عليه الصلاة والسلام . ولكن البشرى لابد أن تنطوي على

---

(١) انظر شرح الأشموني على الفيه ابن مالك ٦٦/٤

(٢)سورة هود .أية ٥٧

(٣) سورة هود .أية ٥٤

(٤) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات النسفي ١٩٤/٢

(٥) سورة الصافات أية ١٠١

صفات عظيمة للمبشرّ به ليتم القصد من البشارة . ولذلك وصف الله تعالى اسماعيـــل بأنه كثير الحلم ، وهذه الصفة عظيمة لكبار العظماء ، إذ لايوصف بالحلم الا الوقور المهيب ، ثم لم يكتف بذلك بل بالغ في شدة حلمه فقال (حليم) وهي صفة اسبغها الله عزوجل الى نفسه ، ولكن شتان ما بين صفات الخالق والمخلوق.

ونفهم ضمناً من هذه الاية الكريمة أن البشارة تنطوي على بشارة اخرى وهو أن هـذا المولود سيكبر ويصير غلاماً فرجلا، لان الله أخبره بأنه سيهبه غلاماً ولم يقل وليداً أو طفلا ثم قال «حليم» والحلم الكثير لايكون ، ولايمتدح عليه الا الكبير . فدلّ على أن «اسماعيل» سيكبر ويصير رجلاً حليماً ، وهذا في غاية الروعة والسرور بالنسبة لرجل لاينجب أولاداً وقد بلغ من الكبر عتياً وأمرأته عجوز عقيم . وكذلك قوله تعالى (أن ربّك يقضي بينهم بحُكمه وهو العزيز العليم) (١) وردت كلمتا (العزيز العليم) وهما على صيغـــة فعيل غير أن لفظة عزيز من الفعل اللازم وهو (عزّ) ويجوز مجيء صيغ المبالغة من الفعل اللازم ويكاد يكون هذا إجماعاً ، أما المختلف فيه فهو عمل الصيغ التي ترد من الفعل اللازم وقد أجازه سيبويه.. . أما لفظة(عليم)فجاءت متعدية لأنها مأخوذة من الفعل(علم)وهومتعد.

فالعزيز العليم ، صفتان لله تبارك وتعالى – تدلان على كثرة وسمو العزة وسعة العلم الذي لايدركه مخلوق كما قال تعالى (ولايحيطون بشيء من علمه الابما شاء) (٢) فإذا كان (شيء من علمه) لايُحاط به فكيف بعلمه كله ؟ وكذا (العزة) إذا كان هذا المخلوق يدعي التجبر والعزة ويقول «لأوتينّ مالاً وولداً» (٣) ويقول (ليخرجنّ الاعزُ منهـا الأذلّ) (٤) يقصد بالأعز نفسه والأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم أذا كان هـذا شأن مخلوق مهين في أدعاء العزة ، فمابالك بجبار السماوات والأرض .... لقد ذكرت هذه الصفات على بناء (فعيل) للدلالة على السعة والشمول والكثرة . وبهذا نعلم السرّ العظيم الذي تؤديه هذه الصيغ

---

(١) سورة النمل اية ٧٨
(٢) سورة البقرة أية ٢٥٥
(٣) سورة مريم أية ٧٧
(٤) سورة المنافقون أية ٨

٢ ـ صيغة فعّال

ترد صيغة فعّال في المرتبة الثانية بعد صيغة (فعيل) وذلك حسب العدد الذي ورد في القرآن الكريم. فقد أحصيتها فوجدتها «٤٢» لفظة عشراً منها في صفات الله تبارك وتعالى واثنتان وثلاثون في صفات عباده من البشر، وصفات عدد من الظواهر الطبيعية وفي يوم القيامة. وهذا العدد أنما هو من دون تكرار، اما المكررة فهو «١٢٣» مرة. وهذا الرقم لصيغة «فعّال» الواردة في صفات الله تعالى في القرآن الكريم هي: جبّار. فعال، علاّم، قهّار، خلاّق، غفّار، فتّاح، رزّاق، تواب، وهّاب. أما باقي الصفات فلاداعي لذكرها لكثرتها على نطاق هذا البحث.

وصيغة (فعال) لم تعمل عمل فعلها في القرآن الكريم قط، وإنما وردت صفات مشبهات ويجدر بنا أن نسوق عدداً من الامثلة على صيغة (فعال) حسب ورودها في القرآن الكريم.

قال الله تعالى (وماكان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها أياه فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه أن أبراهيم لأوّاه حليم) (١) فكلمة (أوّاه) على وزن (فعّال) للمبالغة وأوّاه الرجل إذا توجع. والمصدر تأوّيهاً (٢). والمبالغة منه: أواه والأوّاه. الكثير التأوه أي كثير التوجع أما وصف ابراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه (أواه حليم) فيقول الزمخشري «معناه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته (٣) عليه (٤).

يبدو لنا من الاية الكريمة أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان رقيقاً أشد ما تكون الرقة مع أبيه، ورحيماً غاية الرحمة، فعندما يراه وقومه في ذلك الضلال يعبدون «ما لايسمع ولايبصر» كان يكبر ذلك في نفسه فكان يتأوه عليهم من أعماق نفسه، ولهذا أصر على الاستغفار لأبيه على الرغم من هجره أياه، وتهديده له بالرجم، بيد أن تأوه أبراهيم ورقته لم تخرجاه عن الطريق السوي فإنه حينما تراءى له أن أباه عدوّ لله قطع

---

(١) سورة التوبة آية ١١٤

(٢) انظر مختار الصحاح للرازي ص٣٤

(٣) شكاسته: أي صعوبته

(٤) انظر حاشية الكشاف ٢/٣١٥

الاستغفار ، بل تبرأ منه ... وهنا — والله أعلم — يكمن السر في أتباع صفة «حليم» بعد «أواه» فلما وصفه بأنه «أواه» أعلمنا الله تبارك وتعالى — أن هذا التأوه من ابراهيم ليس تأوه العواطف التي تقوم على الصلات والروابط العنصرية ، وانما كان حليماً في تأوهه أذ تبرأ من أبيه لأنه قد عصى الله — تعالى — فإبراهيم هنا قد تجرد من الهوى ومن نزعات العاطفة الخاصة ، وأخلص الاخلاص كله لعقيدته — فاستحق الوصف الكامل لذلك — فوردت صيغة المبالغة لتؤدي دورها في وصف ابراهيم عليه الصلاة والسلام فجعلنا نحسُّ من وراء حروف صيغة المبالغة العظمة النبوية الكريمة ، وهذا — مامن شك دور أبنية المبالغة .

ومما ورد على وزن (فعّال) قوله تعالى (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلاّم للعبيد (١)

تبين لنا في هذه الاية الكريمة دلالات معنوية عالية ، وذلك بما تتضمنه من شرح لخوالج النفس البشرية ... من خلال كلمات معدودات .

والاية وردت في معرض الكلام عن اليهود ، بعد أن تجاوزوا حدودَ الله فقالوا :(أن الله فقير ونحن أغنياء (٢)) وقتلوا أنبياء الله وحرفوا كلامه ، وأفرطوا كل الافراط في عمل المنكرات والخبائث بعد كل ذلك جعل الله تعالى عاقبتهم كما قال :(ونقول ذوقوا عذاب الحريق) (٣) فهذا هو جزاؤكم : «ذلك بما قدمت أيديكم» .

وكأن الكافرين قد استثقلوا هذا العذاب ووجدوه زائداً عن قدر معصيتهم لشدته وهوله فأجابهم الله تبارك وتعالى بأن ذلك حق لاريب فيه فقال (أن الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤتِ من لَدنْه أجراً عظيماً) (٤) فالله يحاسب على كل صغيرة

(١) سورة آل عمران ، أية ١٨١

(٢) سورة آل عمران أيه ١٨١

(٣) سورة آل عمران . أية ١٨١

(٤) سورة النساء .أية ٤٠

وكبيرة مهما كانت . ولذلك يعجب الكافرون من هذه الدقة المتناهية في الحساب ، ويقولون (ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة الا أحصاها) (١) .

فلما كانت محاسبة الله تبارك وتعالى — وعدله بهذه الدقة اقتضى السياق الإتيان بلفظة تجمع كل ذلك المعنى وتوحيه لنا من خلال حروفها ، وفيما وراء حروفها، وهذه اللفظة هي صيغة (فعال) فقال: (وان الله ليس بظلام للعبيد) ولم يقل — سبحانه —: وان الله ليس بظالم للعبيد . لانه أراد بذلك وجوهاً منها:

١ — ليُعلمهم «أن ترك مثلهم يعد ظلماً كبيراً»

٢ — ليُفيد أن مساواتهم مع المؤمنين هو ظلم كثير ، وانما العدل أن يحاسب كلا بما عمل

٣ — قال بعض العلماء : «ان كان القليل من الظلم يعدُّ كثيراً بالنسبة إلى رحمته الواسعة ، عبر في نفيه بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة (٢)

٤ — أن «ظلاماً» وإن كان يراد به الكثرة لكنه جاء في مقابلة العبيد ، وهو جمع كثرة ، أذا قوبل بهم الظلم كان كثيراً (٣)

٥ — قيل أنه أتى بلفظة (ظلام) التي هي للمبالغة استغناء عن ذكر القول مكرراً ؛ فكانه أراد : ليس بظالم ليس بظالم (٤) ...

ولا يخفى على القارىء دقة الاسلوب ، فقد ورد في قوله تعالى (وان الله ليس بظلام للعبيد) عدةُ مؤكدات . ف (أنَّ) تفيد التوكيد بالإضافة إلى عملها ، و(ليس) للنفي القاطع ، ثم ورد (الباء) في خبرها ليؤكد النفي ويزيده قوةً ، ثم تأتي القوة المؤكدة الكبرى وهي صيغة المبالغة (ظلاّم) فاستحكم الأمر وانتفت الشبهة بها ، فالقرآن يضع كل كلمة في موطنها الذي هو اجدر بها وهي اجدر به .

---

(١) سورة الكهف . آية ٤٩
(٢) تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ٢٦٦/٤
(٣) البرهان للزركشي ٥٧/٣
(٤) المصدر نفسه ٥١٣/٢

م/٥/م.أ.د

٣ ـ صيغة فعُول

ترد صيغة «فَعُول» في المرتبة الثالثة وذلك حسب ورودها في القرآن الكريم لقد احصيت عددها فوجدتها «١٩» مرة من دون تكرار .

وردت في صفات الله تبارك وتعالى ، وصفات الرسل وغيرها من الصفات ، أما صفات الله تبارك وتعالى فهي خمسة (غفور ، شكور ، ودود، رؤوف ، عفو) (١)

واما باقي الصفات فقد جاء اثنتان منها للأنبياء والمؤمنين : وهي في الوقت ذاته تُعدان من صفات الله عز وجل ، وهي : «رؤوف وشكور لقد وردت «رؤوف» صفة لله عز وجل في قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم إنَّ الله بالناس لرؤوف رحيم (٢))وكذلك وردت صفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)(٣)كما وردت صفة «شكور» لله تبارك وتعالى بقوله (ليوفّيهُم اجورهم ويزيدهم من فضلهِ إنه غفور شكور) (٤)،ووردت صفة لبعض الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومنهم نوح وذلك بقوله تبارك وتعالى (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) (٥)

ووردت صفة للمؤمنين عامة ، وذلك كقوله تعالى (إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور) (٦) .

أما باقي الصفات فهي : (فخور ، عجول ، كفور ، زهوق ، قتور ، خذول ، طهور ، غرور ، ظلوم ، جهول ، قنوط ، نصوح ، عبوس) (٧) .

(١) قال الرازي في مختار الصحاح : والعفو :على فعول :الكثير العفو ص٤٤٣

(٢) سورة البقرة . أية ١٤٣

(٣) سورة التوبة .أية ١٢٨

(٤) سورة فاطر .أية ٣٠

(٥) سورة الاسراء .أية ٣

(٦) سورة ابراهيم .أية ٥

(٧) هذه الصيغ يمكن الرجوع أليها في مواردها من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبدالباقي .

ومما تجدر الإشارة اليه أن صيغة (فَعول) كما هو معلوم تصاغ من اسم الفاعل لتفيد الكثرة والمبالغة في الوصف . فصفات الله تبارك وتعالى ترد تارة على (فَعول) وتارة أخرى على (فاعل) وما من ريب أن (فَعول) أبلغ من (فاعل) ولكن صفات الله عز وجل — لا تخضع لهذا المقياس لأنها دائماً وابداً لا يمكن أن يتطرق اليها النقص ولكن سياق الاسلوب القرآني يقتضي احياناً المبالغة ، فترد الصفات على هذه الأوزان وكأنها تعبّر عما تعارفنا عليه نحن البشر ، فالقرآن الكريم يخاطبنا على قدر طاقتنا . وهذا سرٌّ من أسرار الإعجاز القرآني) .

نسوق مثلاً واحداً لإيضاح ما ذكرنا ، فكل من لفظ (غفور) ولفظ (غافر) وارد في القرآن الكريم بخصوص الله — تبارك وتعالى — فقوله تعالى (ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور) (١) . أتي بصيغة (فعول) في قوله (غفور) ولم يقل (غافر) .

ويتراءى لنا أن الله — تبارك وتعالى — لما وصف المؤمنين بأنهم هم (الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور) (٢) أراد أن يقابل هذه الطاعات العظيمة من قبل عباده المؤمنين أن يقابلها بالغفران الواسع لأنهم أهل لذلك — وهو تبارك وتعالى — أهل للغفران فذكر أنه «يوفيهم اجورهم» وهذا من باب العدل والفضل . لأن العامل إذا حصل اجرة فقد سقط حقه .. ولكن الله — تبارك وتعالى — وهو الكريم الذي لا يحيط به وصف — امتنَّ على عباده ، فذكر أنه لا يقتصر على إيفائهم اجورهم ، بل «ويزيدهم من فضله» فهذه الزيادة في عُرفنا تقتضي في مقابلها صفة معبرة عن ذلك تمام التعبير فوردت «إنه غفور شكور» .

أما ان كان السياق لا يقتضي المبالغة فيأتي اسم الفاعل كما هو على صيغة «فاعل» من دون مبالغة ، وذلك كقوله (غافر الذنب وقابل التوب) (٣) .

ومما ورد على صيغة (فعول) من صفات الإنسان قوله تعالى (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمةً ثم نزعناها منه إنه ليئوسٌ كفورٌ) (٤) . فوصف الإنسان في سياق هذه الآيات بهذه الصيغ

---

(١) سورة فاطر .أية ٣٠
(٢) سورة فاطر .أية ٢٩
(٣) سورة غافر ٣.
(٤) سورة هود. ٩

البليغة المعنى إنما هو في موضعه ، وانه لتعبير صادق عن طوايا النفس الإنسانية (ومن أصدق من الله قيلا) (١) .

فصفة اليأس جاءت على (فَعُول) لماذا ؟ تبين لنا أنه ورد في عدد من الآيات أن الإنسان إذا أصابته نعمة ، ووسّع الله عليه الرزق ، نَسِي ربه ، ونسي المصدر الذي امده بهذا الرزق فكفر وتجبّر ، وادعّى انه إنما جمع المال بحوله وقوته . وهذا يصوره اروع تصوير قوله تعالى (ولئن اذقناه نعمة منا من بعد ضراء مسته ليقولَنّ هذا لي وما أظن الساعة قائمة..) (٢). أو كما قال قارون (قال إنما أوتيته على علم عندي .) (٣) ...وهذا كفر صريح غاية الصراحة بالرزاق المنعم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (٤) . فالإنسان اذا ما أصابته مصيبة في ماله أو ولده أو شيء عزيز يعتز به الإعتزاز كله دبَّ اليأس اليه واضطرب اشد الإضطراب وظن أنه فقد كل شيء ... فكفره الصريح بالمنعم العظيم . ويأسه من إعادة ما كان قد فقد... كل ذلك تصوره صيغتا المبالغة (يؤوس كفور فالمبالغة إذاً أفادت دوراً عظيماً في مجال التعبير ذي المدلول الواسع . فهذا ما تضمنته صيغة المبالغة في هذه الآية الكريمة من الأسرار وهي قطرة من بحر ، بل بحر لاساحل له . وانما نذكر طرفاً يسيراً منه ليكون منها على ماوراءه من براهين لأن برهان القرآن الكريم بيّن كافٍ لايحتاج الى غيره .

٤ — صيغة فَعِل

وردت صيغة (فعل)في القرآن الكريم بيد ان ورودها قليل اذاما قارنا بينها وبين الصيغ الثلاث المتقدمة.

وعلى الرغم من ذلك . فقد وردت هذه الصيغة أكثر عدداً من صيغة (مفعال) هذا الأستعمال القرآني يزيل ماتعارف عليه علماء اللغة العربية بهذا الصدد اذا انهم جعلوا صيغة (فعّل) في المرتبة الأخيرة من صيغ المبالغة القياسية اما (مفعال) فإنها ترد في المرتبة الثانية بين الصيغ وهي (بعد فعال وقبل فعول) .

---

(١) سورة النساء ١٢٢.
(٢) سورة فصلت ٥٠.
(٣) سورة القصص ٧٨.
(٤) سورة طه ٥٠.

وفي ضوء ورودها في القرآن الكريم أحصينا ذلك فكان «٥» مرات من غير تكرار، ووردت (١٢) مرة .

والصفات التي وردت بها(فعل) هي (كذب) (١)، وجلون، نخرة، فرح، أشر) (٢) وقد ثبت لنا من تتبع هذه الصيغة أنها لم ترد في شيء من صفات الله – تبارك وتعالى – بل ان الصفات التي جاءت على هذه الصيغة انما هي صفات سلبية اي انها صفات غير محمودة

ونحن اذا انعمنا النظر وجدناها وردت متفرقة مستعملة استعمالا دقيقاً وللنظر في هذه الصيغة نظرة متزنة لندرك موقعها من العمل في القرآن الكريم .

١ – كذب

أكثر ورود كلمة (كذب) على انه مصدر. وخاصة في القرآن الكريم بيد ان الذي يلفت نظر الباحث في هذه الكلمة، انها قد وردت في بعض الايات القرآنية على صيغة (فعل) التي للمبالغة .والدليل على ذلك مايستنبط من التدقيق في معنى الاية الكريمة وترصّد المراد من هذا الأستعمال قال الله تبارك وتعالى .(وجاءوا على قميصه بدم كذب) (٣).

ذهب جمهور المفسرين الى ان (كذب) انما هي مصدر نزل منزلة الصفة في هذا الموطن ليفيد المبالغة (٤). اي انه ليس للمبالغة ولكن الأستعمال اللغوي للكلمة جعلها للمبالغة .وبعبارة أوضح. ان كلمة «كذب» في هذه الاية بالذات فيها مبالغة في المعنى وليس في الصيغة .

ويبدو لنا انه لما اراد أخوة يوسف –عليه الصلاة والسلام– دليلا يدعمون به دعواهم وهو ان يوسف قد أكله الذئب «جاءوا على قميصه بدم كذب) .فهذا الدم هو بمنزلة الشاهد لهم في هذه الدعوى، والشاهد تحتمل شهادته الصدق والكذب ،فاراد الله –تبارك

---

(١) كلمة كذب مصدر . ولكني لاحظت أن القرآن استعملها في بعض المواضع مبالغة كما هو بين انظر معجم الفاظ القرآن الكريم.

(٢) ذهب الزركشي الى أن (حاذرون) في قوله تعالى (وانا لجميع الحاذرون) هي على وزن (فعل) للمبالغة . فلا أرى ذلك لأنها جمع حاذر وليس جمع حذر لا ن جمع حذر حذرون

(٣) سورة يوسف. أية ١٨

(٤) سورة هود. أية ١٠

وتعالى ـ أن ينفي صدق هذا الشاهد ،فجعله (كاذباً) بيد انه بالغ في كونه كاذباً فقال (كذب) على زنة فعل للمبالغة .ومن تدبر الاية حق التدبر وما اشتملت عليه من حكمة وعدل تبين له الوجه في هذه الاية. فالقرآن الكريم قد اجتمع فيه مالم يجتمع في غيره فإنه الدليل والمدلول عليه .

٢ ـ فرِح

هذه اللفظة على وزن (فعل) للمبالغة في وصف المتصود بكثرة الفرح وقد وردت في مواطن من القرآن الكريم منها قوله تعالى (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني وانه لفرح فخور) (٢) وهذه الاية من تدبرها حق التدبر او جب له تدبره علماً ويقيناً ان الأنسان بصورة عامة حريص أشد الحرص على جمع المال. فاذا اصابته جائحة في ماله حزن اشد الحزن ،ونسي باقي النعم. فهو « كفور»واذاقه الله تبارك وتعالى رغد العيش ويسره فرح الفرح كله وهذا الوصف يوجب كلمة تجمع هذه المعاني ، فكانت لفظة «فرح» التي هي للمبالغة مصورة هذه الحالة النفسية لدى كثير من الناس .

٥ ـ صيغة مفعال

هي احدى صيغ المبالغة القياسية . وقد جعلناها في المرتبة الأخيرة من صيغ المبالغة ، تبعاً لورودها في القرآن الكريم .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن علماء القرآن لم يذكروا هذه الصيغة ضمن صيغ المبالغة الواردة في القرآن الكريم . فصيغة «مفعال» من الصيغ القياسية المشهورة لدى النحويين واللغويين ، والذي اعتقده انهم اما لم يعثروا على كلمة في القرآن الكريم على وزنها ، واما انهم لم يبحثوا عنها بدقة .

غير اننا بعد التأمل في القرآن الكريم واستقراء آياته وجدنا كلمتين فيه على وزن «مفعال» هما : مرصاد ، ومدرار . وتحقيق القول في هذا يدعونا إلى ان نوضح بعض التوضيح كل كلمة منهما .

١ ـ مدرار

وردت كلمة مدرار ثلاث مرات في القرآن الكريم . الأولى في قوله تعالى (ألم تروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض مالم نمكّن وأرسلنا السماء عليهم مدراراً

وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) (١) والثانية قوله تعالى – حكاية عند هود عليه الصلاة والسلام (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يُرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولوا مُجرمين) (٢) والثالثة قوله تعالى – حكاية عن نوح – عليه الصلاة والسلام – (يرسل السماء عليكم مدراراً)(٣).

وجميع هذه الصفات «مدراراً» وردت صفات للسماء ، ولم ترد في موضع آخر فقوله تعالى «مدراراً» هي من قولهم : درت السماءُ بالمطر دراً ودروراً : إذا كثر مطرها ، وسماء مدرار وسحابة مدرار (٤) .

ففي هذه الآيات تبيّن أنه مَنٌّ الله – تبارك وتعالى – على عباده بأنه يرسل عليهم غيثاً مغيثاً متتابعاً ينشيء في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق . وقد جرى الرسل – صلوات الله عليهم – في تبليغهم لرسالات ربهم هذا المجرى ، فنوح وهود قد أمرا قومهما بكثرة الإستغفار والتوبة إلى الله تبارك وتعالى – لأن في ذلك صدقاً للعبودية وتمثلاً كاملاً للطاعة كما أمر الخالق جل شأنه .

٢ – مرصاد

هذه الكلمة وردت في القرآن الكريم مرتين إحداهما في قوله تعالى (إن جهنم كانت مرصاداً) (٥) . والثانية في قوله تعالى (إن ربك لبالمرصاد) (٦)

أما الآية الأولى فقد وردت (مرصاد) فيها على وزن (مفعال) صيغة مبالغة من رصد يرصد فهو راصد ، فإذا زاد الفعل منه نقول (مرصاد) فقد جعلت جهنم مرصاداً ترصد العصاة فلا ينجونَّ منها أحد . ونسبة هذه الصفة لجهنم وإن كانت جماداً ؛ إنما هو لزيادة التهويل وتعظيم الموقف .

---

(١) سورة الأنعام .أية ٦
(٢) سورة هود. أية ٥٢
(٣) سورة نوح . أية ١١
(٤) ابن منظور . لسان العرب ٢٨٠/٤
(٥) سورة النبأ. أية ٢١
(٦) سورة الفجر .أية ١٤

وقد نسب القرآن لجهنم في مواضع أخرى انها تلتهم الكفار وتطلب المزيد (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) (١) أما قوله تعالى (إن ربك لبالمرصاد)(٢). فالمشهور ان المرصاد هنا من اسم المكان على وزن (مفعال) يقول ابو حيان : (والمرصاد والمرصد : المكان الذي يترتب فيه الرصد «مفعال» من رصده وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعتاب وانهم لا يفوتونه) (٣) وهذا رأي وجيه ، وذلك لدخول الباء عليها فلا يمكن حملها على الصفة ، وحملها على اسم المكان أولى وأوفق .

وقد ذكر ابو حيان عند ابن عطية قوله (ويحتمل أن يكون المرصاد في الآية اسم فاعل كأن قال : لبالمراصد فعبر ببناء المبالغة) (٤) . بيد أنه ردّ عليه بقوله (ولو كان كما زعم لم تدخل الباء لأنها ليست في مكان دخولها ، لا زائدة ولا غير زائدة) (٥) .

وخلاصة القول في صيغة «مفعال» من صيغ المبالغة غير انها لم ترد في القرآن الكريم كثيراً وانها ورد في «مدرار» ثلاث مرات ، وفي «مرصاد» مرة واحدة .

٦ ـ صيغة فُعَلة

هذه الصيغة هي احدى الصيغ غير القياسية التي وردت في القرآن الكريم بيد أنه قد ثبت لنا من تتبع هذه الصيغة في القرآن الكريم وجدناها قد استعملها القرآن ثلاث مرات ، أي أنها اكثر وروداً من صيغة «مفعال» مكررة . ومن الجدير بالذكر أن صيغة «فُعَلَة» على ندرة ورودها في القرآن الكريم إلا أنه قد وردت الفاظها الثلاث في سورة واحدة هي سورة الهمزة وهي قوله تعالى (ويلٌ لكل هُمَزَة لُمَزَة ..(وقوله تعالى)فلا يُنبذنَّ في الحُطمة وما أدراك ما الحُطَمَة) (٦) .

---

(١) سورة ق .أية ٣٠
(٢) سورة الفجر. أية ١٤
(٣) ابو حيان. البحر المحيط ٤٧٠/٤
(٤) ابو حيان .البحر المحيط ٤٧٠/٤
(٥) المصدر نفسه ٤٧٠/٤
(٦) سورة الهمزة . أية ٣،٢

فالألفاظ : هُمَزَة ، لُمَزة ، الحطمة ، هي على وزن «فُعَلَة» التي للمبالغة واختلف العلماء في «الهمز واللمز» فمنهم من قال (١) : إن الهمزة هو الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل ، واللمزة : هو الذي يغتابه من خلفه إذا غاب ، ومنه قول حسان بن ثابت :

همزتُكَ فاحتضنتَ بذلِ نفسٍ بقافيةٍ تأججُ كالشُّواظِ (٢)

واختار هذا القول النحاس ، قال : ومنه قوله تعالى (ومنهم من يَلْمِزُكَ في الصدقات) (٣) .

وقال مقاتل ضد هذا الكلام : إن الهُمزة : الذي يغتاب بالغيبة ، واللمزة : الذي يغتاب في الوجه (٤) .

واللفظتان صفتان ذميمتان ، قد حذر الله — تبارك وتعالى — المؤمنين منهما ، وذم غاية الذم من اتصف بهما . ولذلك وصفه القرآن الكريم بإحدى صيغ المبالغة ، للدلالة على كثرة هذا الفعل منه ، ولولا كثرة هذا الفعل منه لما وصفه الله بأنه «همزة لمزة» .

وقد ورد في غير هذه الصورة ذكر لصاحب هذه الصفة الذميمة في سورة اخرى بصيغة المبالغة ، وذلك في قوله تعالى (همّاز مشّاء بنميم) (٥)

فوردت همّاز على صيغة «فعّال» . وهذا — ما من ريب — دلالة واضحة على عناية القرآن بتطهير المجتمع من هذه الصفة الذميمة ، فلما أراد ردع النفوس عنها ، وصرف الناس إلى ما هو أفضل وجب أن يكون اللفظ الذي يعبر عن هذا الردع قوياً جامعاً مؤثراً وهذا هو دور صيغ المبالغة ، فكأننا عندما نقرأ هذه الآية نحس بقبح هذه الصفة ونقر من أعماق أعماقنا بخبث هذه النفوس . وهذه طريقة من طرق التعبير القرآني يستثمر برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد اكثر ما يمكن من المعاني .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٠/١٨١ — ١٨٢
(٢) الديوان
(٣) سورة التوبة .آية ٥٨
(٤) انظر تفسير القرطبي ٢٠/١٨٢
(٥) سورة القلم .آية ١١

أما تناسب ذكر «همزة ولمزة» . مع ذكر «حطمة» فإن هذا الاسلوب القرآني يوحي الينا سراً من اسرار العدل الإلهي العظيم ؛ حتى في العبارات عدل .... فما دام هذا الشخص «همزة لمزة» فإن جزاءه «حطمة» فالكلمات على وزن واحد ، وصيغة واحدة ... وكأنه يقول له : (إن كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة) (١) .

٧ – صيغة فُعال

وردت صيغة «فُعال» في القرآن الكريم مرتين ، إحداهما قوله تعالى (أجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيء عُجاب) (٢) ، والثانية قوله تعالى (ومكروا مكراً كُبّارا) (٣) . وهنا امر لا مذهب لنا دون التنبيه اليه ، هو أن صيغة «فُعّال» وردت عند العرب بتشديد العين «فُعّال» وبتخفيفه «فُعَال» وهذان الإستعمالان وردا في القرآن الكريم . مع انهما اللفظان الوحيدان فيه . فقوله تعالى (إن هذا الشيء عُجاب) (٤) قُرئت بالتشديد «عُجّاب» وبالتخفيف «عُجاب» ولكن القراءة المشهورة بالتخفيف . ومعنى «عُجاب» الشيء الكثير العجب . قال الإمام ابو البركات : (بليغ في العجب ؛ وقيل . العجيب . ماله مثل ، والعجاب ما لا مثل له) (٥) .

فالكافرون يستبعدون كون الآلهة إلهاً واحداً ، ولذلك جاء بلفظ يُنبيء عن هذا الإستنكار الشديد والرفض القاطع ، فكان لفظ «فُعَال» المعبر عن هذا المعنى البليغ .

وكذلك قوله تعالى (ومكروا مكراً كُبّارا) (٦) يدل على عظم عنادهم وصدهم عن سبيل الله . فقد بعث نوح – عليه الصلاة – في هؤلاء القوم (الف سنة إلا خمسين عاماً) (٧) فلم يؤمن له الا قليل ، وهؤلاء الكفرة لم يكتفوا بعدم الإيمان به ولكنهم مكرو الإبطال

(١) الرازي . التفسير الكبير ٩٤/٣٢
(٢) سورة ص. أية ٥
(٣) سورة نوح . أية ٢٢
(٤) سورة ص. أية ٥
(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل لابي البركات النسفي ٣٤/٤
(٦) سورة نوح . أية ٢٢
(٧) سورة العنكبوت . أية ١٤

الدعوة ، وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس ، ومكروا لتزيين الكفر والضلال ، والجاهلية التي تخبط فيها القوم وتحريضهم الناس على الإستمساك بالأصنام ، وبعد كل ما ذكرنا من الصفات وجب وصف مكرهم : بصفة تدل على المكر المتناهي الموغل في الكفر ، فوردت «كُبّار» على زنة «فُعّال» للمبالغة لتؤدي هذا المعنى ، وقد وفّت بالمراد خير توفية.

٨ ــ صيغة فعلان

هذه الصيغة هي إحدى صيغ المبالغة . والغريب أن علماء النحو والصرف لم يذكروها في كتبهم ، مع أنهم ذكروا في كتبهم كثيراً من صيغ المبالغة القياسية وغير القياسية . بيد أن علماء التفسير ذكروها في مؤلفاتهم وهي لفظة (الرحمن) .

ولا اعلم ما هو وجه التخصيص لهذه اللفظة دون غيرها ؛ مع انه قد ورد في القرآن الكريم غيرها .

لقد ورد في القرآن الكريم لفظان على وزن «فَعلان» غير لفظ «رحمن» وهما : قوله تعالى (قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونُردُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا اللهُ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قُل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لربِّ العالمين) (١) .

وقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) (٢) فكلمة (حيران) في الآية الأولى صيغة مبالغة على وزن فَعْلان . وكذلك كلمة (ظمآن) في الآية الثانية صيغة مبالغة على وزن فَعْلان .

أما كلمة (الرحمن) فقد وردت في القرآن الكريم كثيراً ، وفي مواطن مختلفة ، وهي تعني الكثير الرحمة ، فهي (مبالغة اسم الفاعل (راحم) وقد ذهب جمهور العلماء إلى ان (رحمن) هو اسم الله ــ تبارك وتعالى ــ وليست صفة . قال ابن سيدة (فالرحمن اسم الله

---

(١) سورة الأنعام . أية ٧١

(٢) سورة النور . أية ٣٩

خاصة ، لا يُقال لغير الله رَحمن . ومعناه : المبالغ في الرحمة ... ، وفعلان من بناء المبالغة) (١) .

وكلمة (حيران) تعني الكثير الحيرة . ووجه مجيء المبالغة في هذه الآية أن الله تبارك وتعالى — أراد تصوير قبح من يرتد عن دينه . فبعد التوحيد ينغمس في متاهات الشرك واتباع الأهواء ، وبعد ان كان يعبد إلهاً واحداً لا شريك له أصبح فريسة لعقائد استهوتها آلهة وهمية متعددة.. فالشخص في هذا الموقف يتحسس العذاب النفسي الذي يرتسم في اعماقه حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير ... هذا الإضطراب النفسي يبلغ أشده عندما يدعوه أصحابه إلى الهدى ... ففي هذه الحالة يكون بين قوتين قوة الهدى وقوة الضلال ، وما من ريب أن صيغة المبالغة وردت معبرة خير تعبير عن حالته النفسية .

ولفظة ظمآن هي على وزن (فَعلان) أيضاً للمبالغة . وتعني الشديد البطش . فالقرآن الكريم صور هذا المقام أروع تصوير وأبلغه . وهذا ماثل أمام أبصارنا من خلال دقة وروعة استعمال الكلمات في الآية الكريمة ، ومن خلال النسق التعبيري المترابط ... حتى كأننا بالكافر يقف يوم الحساب زاعماً أنه قد قدم اعمالاً صالحة في الحياة الدنيا ... ولكنه يفاجأ بالحقيقة وما أعماله إلا هباء منثور لأنه كفر بربه ولم يستقم في عقيدته . وهذه المفاجأة تتطلب لفظاً موحياً يعبر عن تلك الحالة التي تلازم الكافر ، وقد كانت صيغة (فعلان) موفية للغرض فورد وصفه على (ظمآن) إمعاناً في إبراز المعنى وإظهاره .

أما الرحمن فقد أفردت لـ «الرحمن الرحيم» موضعاً في نهاية هذا البحث تحت عنوان (موازنة بين فعلان وفعيل) .

٩ — صيغة فُعَل

لقد وردت صيغة (فُعَل) للمبالغة في القرآن الكريم في موضعين ، وذلك في قوله تعالى (يقول أهلكت مالاً لُبَداً) (٢) وقوله تعالى (إنها لاحدى الكُبُر) (٣) . فكلمة (لُبَد) هي بناء للمبالغة ، وتعني المال الكثير . يقول ابن منظور : (ومالٌ لُبَد : كثير لا يُخاف فناؤه

(١) المخصص لابن سيده ١٥١/٥
(٢) سورة البلد . آية ٦
(٣) سورة المدثر . آية ٣٤

كأنه التبد (١) بعضه على بعض و في التنزيل العزيز «يقول أهلكت مالاً لُبداً» (أي جماً)(٢).
فكلمة (لُبَد) على وزن (فُعَل) وهي مبالغة اسم الفاعل : ألا ترى ان العرب تقول : حَطَم يَحطِمُ فهو حاطم ، فإذا أرادوا أن يبالغوا في وصف الشيء بكثرة التحطيم قالوا (حُطَم)
وبهذا المعنى قال شاعرهم (٣) :

هذا أوان الشد فاشتدي زيَم ... قد لفها الليل بسواق حُطَم

وكذلك (لُبَد) تقول : تلبّد الشّعْرُ فهو مُتَلَبِّد : أي : غيرُ شَعْثٍ ولا منثور بل متجمع بعضه على بعض . وفي هذا المعنى قال زهير (٤)

لدى أسدٍ شاكي السلاح مقذّف ... له لُبَدٌ أظفارُه لم تقلّم

ومن هنا أخذ هذا اللفظ للمال الوفير . ومن هنا نعلم مدى ما أدّته صيغة (فُعَل) في الآية الكريمة من معنى . لقد صوّرت تكبُّر هذا الشخص وافتخاره على الناس بأنه أهلك مالاً وفيراً ، غير أن كلمة (وفير) أو (كثير) لا تعطي لنا المدلول المعنوي لـ «لُبَد» فهذه تُشعرنا بأن الكفَرة متشدقون متكبرون حتى في ألفاظهم .
أما كلمة (الكُبَر) في قوله تعالى (إنها لإحدى الكُبَر) فخليق بنا أن نذكر شيئاً مما أدّته هذه اللفظة في سياق الآيات الواردة فيها . فلهذه الكلمة وقع مثير ينسجم كل الإنسجام مع ذكر القسم ، ولفظة الردع (كلا) وذكر المشاهد الكونية المثيرة . فالقسم ذاته ، ومحتوياته والمقسوم عليه بهذه الصورة كلها مطارق تطرق القلوب بعنف وشدة ، وتتسق مع النقر في الناقور . فهذه اللفظة التي نحن بصددها — أعني الكبر — جاءت جواباً للقسم ، وهي تُنبيء عند الأهوال التي سيراها الإنسان يوم القيامة .

١٠ — صيغة فُعلى

هذه الصيغة لم أجد من علماء النحو أو الصرف من ذكرها بأنها من صيغ المبالغة ، ولكنّ الذي ذكر بأنها من صيغ المبالغة هو : بدرالدين الزركشي في مؤلفه (البرهان) (٥) .

(١) التبد : يقال : التبد المال : مركوم بعضه فوق بعض
(٢) جما : كثيراً
(٣) انظر الكامل للمبرد ٣٨١/١
(٤) شرح القصائد السبع لا بن الأنباري ص٢٧٧
(٥) الزركشي . البرهان في علوم القرآن ١٦/٢ه

بيد أنني فحصت الأمثلة التي أوردها لم اجد ما يقوي حُجته ؛ فقد أورد كلمات منها : الشورى ، الحسنى ، السوآي ، العليا ... وهذه الكلمات ليست للمبالغة في بنائها ، ولكنها تحوي معنى المبالغة . وهذا الذي اذكره ما أفهمه من خلال كلام المفسرين . ولنأخذ احدى هذه الكلمات ولتكن كلمة (الشورى) لتكون لنا مثالاً على صحة ما نقول ثم نقيس أخواتها .

لقد وردت كلمة الشورى في قوله تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) (١) .

ففي هذه الآية وردت كلمة الشورى مصدراً ، ونحن نعلم أن صيغ المبالغة هي من اسم الفاعل ، وهذا دليل على عدم كونها من أبنية المبالغة بقول الزمخشري (والشورى : مصدر كالفُتيا ، بمعنى التشاور) (٢) .

ويقول الآلوسي : (وامرهم شورى بينهم) أي : ذو شورى ، ومراجعة في الآراء بينهم ؛ بناء على ان الشورى مصدر كالبشرى ، فلا يصح الإخبار ؛ لأن الأمر متشاور فيه . إلا إذا قصد المبالغة» (٣) .

وواضح من كلام الآلوسي : «إلا إذا قصد المبالغة» إن ذلك يكون بجعل كلمة (شورى) هي خبر (امرهم) ؛ فيكون الأمر هو المشاورة . وهذا الكلام مبالغة في المعنى وليس في البناء والصيغة ؛ وهو من باب تنزيل المصدر منزلة الصفة .

موازنة بين فعيل وفعلان

ان الوجه بين هذه الموازنة بين فعيل وفعلان هو أكثار العلماء من الكلام بصددهما فتارة يرجحون «فعلان» على «فعيل» في المعنى وشدة المبالغة وتارة أخرى يعكسون الترجيح وفضلا عن ذلك ذهب بعضهم الى جعل احدى الصيغتين عامة والاخرى خاصة .

---

(١) سورة الشورى . أية ٣٨

(٢) الزمخشري . الكشاف ٤/٢٢٨

(٣) الآلوسي . روح المعاني ٧/٢٢٨

ومحور الخلاف في هاتين الصيغتين ، هو الكلام على قوله تعالى (الرحمن الرحيم» (١) وأني لذاكر أهم الآراء التي وردت ثم أعقب عليها برأيي . ورد في كتاب :(تنوير المقباس تفسير عبدالله بن عباس) بصدد تفسير قوله تعالى (الرحمن الرحيم) : والرحمن: العاطف على البر والفاجر بالرزق لهم ، ودفع الآفات عنهم ،الرحيم :خاصة على المؤمنين بالمغفرة وأدخالهم الجنة...) (٢)

وأورد الطبري كلاماً مفصلا عن لفظتي (الرحمن الرحيم) نقتبس بعضاً منه :«الرحمن هو فعلان، من رحم، والرحيم ، فعيل منه ، والعرب كثيراً ما تبني الأسماء من فعل يفعل على «فعلان» كقولهم من غضب غضبان ، ومن عطش عطشان..) (٣)

ثم يقول :(فان قال قائل: فاذا كان الرحمن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة ، فما وجه تكرار ذلك وأحدهما مؤد معنى الآخر ؟

قيل له :ليس الأمر في ذلك على ماظننت ؛ بل لكل كلمة منها معنى لاتؤدي الأخرى منها عنها ...فلا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب أن قول القائل (الرحمن) عن ابنية الأسماء من :فعل ويفعل أشدُّ عدولا من قوله الرحيم ...) »(٤).

فالظاهرة من كلامه أنه من القائلين بزيادة (فعلان) على (فعيل) في معنى المبالغة.

ثم ينتهي الى رأيين نقلهما عن السلف: الأول يرويه بسنده عن العزري قوله: « الرحمن الرحيم» قال: الرحمن بجميع الخلق، الرحيم : قال بالمؤمنين (٥).

والثاني : يرويه بسنده عن أبي سعيد الخدري . قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ان عيسى بن مريم قال : الرحمن : رحمن الاخرة والدنيا والرحيم :رحيم الاخرة .

ثم نراه يجمع بين الرأيين برأي واحد وهو قوله «أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه» (٦)

(١) سورة الفاتحة .أية ٢
(٢) تنوير المقباس ــ لا بن عباس ــ مطبوع بهامش كتاب :الدر المنثور للسيوطي ٣/١
(٣) تفسير الطبري ٥٥/١
(٤) المصدر نفسه ٥٥/١
(٥) تفسير الطبري ٥٥/١
(٦) المصدر نفسه ٥٥/١

أما الزمخشري : فقد ذهب الى أنه «في الرحمن من المبالغة ماليس في الرحيم ، ولذلك قالوا : رحمن الدنيا والاخرة ورحيم الدنيا، ويقولون : أن الزيادة في البناء لزيادة المعنى..)(١)

أما ابن قيم الجوزية . فقد قال : «فالرحمن : الذي الرحمة وصفه والرحيم : الراحم لعباده .ولهذا يقول تبارك وتعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً) (٢) . ولم يرد رحمن بعبادة ولارحمن بالمؤمنين ، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن «فعلان» من سعة هذا الوصف، وثبوت جمع معناه الموصوف به ...» (٣).

ومن العلماء المحدثين الذين تناولوا هاتين الصيغتين الامام محمد عبده يقول : « والذي أقوله أنه صيغة (فعلان) تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة كفعّال . وهو في أستعمال اللغة للصفات العارضة ، كعطشان وغضبان ... وأما صيغة «فعيل» فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس، كعليم وحكيم وحليم... فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل، وهي أضافة النعم والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشيء هذه الرحمة والاحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لايستغنى بأحد الوصفين عن الاخر، ولايكون الثاني مؤكداً للأول» (٤) بعد أن بسطنا آراء بعض المفسرين وائمة اللغة في معنى «فعلان» و«فعيل» حقيق بنا أن نزجي اليهم الشكر على جهودهم المخلصة الغيورة على كتاب الله تبارك وتعالى — وما من ريب في أنهم افنوا حياتهم في خدمته نود ان ندلو بدلونا بين الدلاء في معنى هاتين الصيغتين . ورأينا يتلخص فيما يأتي :

١ — أن صيغة «فعلان» بصورة عامة تدل على الامتلاء الشديد أو الخلو الشديد . فكلمة (شبعان) تدل على الشبع الشديد. «وجوعان »تدل على الجوع الشديد .وفعلان صفة عارضة على الأغلب.

أما الرحيم فهي اكثر ماتدل على الصفات الثابتة، والتي تكون ميزة من مميزات الموصوف بها وكلا الصيغتين تدلان على الكثرة والمبالغة .

---

(١) الكشاف للزمخشري ٦/١

(٢) سورة الاحزاب . أية ٤٣

(٣) الجوزية. أبن قيم .مدارج السالكين ٣٣/١

(٤) عبده .الامام محمد دروس من القرآن الكريم ص٤٨

٢ — أما بالنسبة للرحمن الرحيم فأقول : أن «الرحمن» وردت هنا اسماً وهذا الاسم قد حمل معنى الوصف ، وهو شدة وكثرة الرحمة منه . أما الرحيم فهي الصفة الثابتة التي وصفت لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى «بسم الله الرحمن الرحيم» (١) فالرحيم صفة(الله) وليس للرحمن ؛ لأن لفظ الجلالة «الله» هو غير مشتق من جذر معلوم (٢) — على الأغلب فوصف — سبحانه — نفسه بأنه الإله الرحمن الرحيم . ولعل اظهر مايظهر من أدلة تدعم ماذهبنا أليه :

١ — أننا لانجد أبداً في القرآن الكريم وصف لفظ الجلالة (الله) بـ(الرحمن) وأنما يوصف بأنه (رحيم) ويسمى بأنه (رحمن) هذا في غير البسملة ومما ورد في ذلك قوله تعالى (أن الله بالناس لرؤوف رحيم((٣)

وقوله تعالى (وهو الرحيم الغفور) (٤) ،وقوله تعالى (أن الله غفور رحيم) (٥)... والــخ من الايات التي تورد صفة (الرحيم) مع غيرها — لله تبارك وتعالى . ولانجد من بين هذه الشواهد ولاغيرها مثلا «الله رحمن بعباده» وأنما أكثر ماورد لفظ (الرحمن) اسم من اسماء الله تبارك وتعالى وليس صفة،الا أن من خصوصية هذا الاسم أنه مشتق من صفة من الصفات العلية وهي الرحمة.

ومما ورد من الايات الدالة على أن لفظ «رحمن» اسم : قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (٦) وقوله تعالى (قل أدعو الله أو أدعو الرحمن أياً ماتدعو فله الأسماء الحسنى) وهذه (٧) الاية صريحة غاية الصراحة في أن (رحمن والله) هما اسمان للخالق تبارك وتعالى ثم أنه فيها ناحية اخرى وهي :انها قرنت الاسمين معاً ، وهذا ينهض دليلا على ماقررناه

---

(١) سورة الفاتحة

(٢) القرطبي ١٠٢/١ ، ١٠٣٠

(٣) سورة البقرة . أية ١٤٣

(٤) سورة سبأ . أية ١٤٣

(٥) سورة المائدة . أية ٣٩

(٦) سورة طه . أية ٥

(٧) سورة الاسراء . أية ١١٠

أولا ، وأي دليل أوضح وأظهر من هذا ؟ويقوي رأينا قوله تعالى – على لسان ابراهيم – صلى الله عليه وسلم (ياأبتِ أني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) (١) .وقوله تعالى (وأذا قيل لهم أسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن؟أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً) (٢).

٢ – أن القرآن الكريم استعمل كل اسم من اسمي الجلالة (الله)(والرحمن) بصورة منفردة ، ثم أجرى لهما أوصافاً وأفعالا . فشواهد لفظ الجلالة (الله) كثيرة منها قوله تعالى (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز) (٣)

واما اسم (الرحمن) فوصفه بقوله تعالى (وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون (٤) وقد يعترض معترض فيقول :أن كان ذلك كما زعمت، فلماذا جعل القرآن الكريم لفظ (الرحمن بين لفظ الجلالة (الله) وصفته (الرحيم) ؟والجواب عن ذلك انه – تبارك وتعالى – أراد أن يجمع بين الاسمين الكريمين في بداية الذكر الحكيم تأكيداً لمصدر القرآن الرباني . ثم أن ذكر الرحيم بعد (الرحمن) لايلبس المسألة ؛ لأن (الرحمن) حاو معنى الرحمة في ذاته فهو مشتق منها، فلابد أن تتجه صفة الرحيم الى لفظ الجلالة (الله) المذكور قبل الرحمن والذي لاريب فيه أن كلمة (الله) اشهر في تسمية الخالق تبارك وتعالى من كلمة (الرحمن) لكن لكلمة الرحمن .مدلولاتها في مواطنها ، مايؤدي معنى جليلا يقصده السياق القرآني وهذا معلوم في مواطنه في القرآن الكريم ويؤيد هذا الرأي – أي كون «الرحمن» اسماً – ويدعمه ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله عزوجل : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » (٥) وبعد .

---

(١) سورة مريم .أية ٤٥

(٢) سورة الفرقان . أية ٦٠

(٣) سورة الشورى . أية ١٩

(٤) سورة الأنبياء . أية ١١٢

(٥) هذا النص أورده القرطبي في تفسيره ١٠٤/١

وها نحن اولاء قد بسطنا فيما قدمناه «صيغ المبالغة الواردة في القرآن الكريم» فالقرآن الكريم وهو كتاب العربية الأكبر قد اكتنفه علماء اللغة من كل جهة، وتعاودوه من كل ناحية وحسبنا أن نقول أدلينا بدلونا بين الدلاء فكان خلاصة ماهُدي أليه الاستقراء القرآني .

ووفاءً بحق البحث وتوفية بالفائدة مانحن بصدده لأبد لي أن أشير الى أن علماء النحو — بصريين وكوفيين — قد اجمعوا على ورود منصوبات بعد صيغ المبالغة. بيد أنهم يختلفون في المناصب (١) لها . أما صيغ المبالغة في القرآن الكريم فلم اجد صيغة واحده أتت عاملةً ، وإنما وردت جميعها في القرآن الكريم صفات لزيادة الحدث الوصفي، وتعرب حسب موقعها من الجمل.

والله أسأل ان ينفع به وأن يجعله خالصاً لوجهه ، وهو حسبي ونعم الوكيل.



(١) انظر في بحثنا هذا ص٤

المصادر والمراجع

١ – البحر المحيط :لأبي حيان الأندلسي . مطبعة دار السعادة بمصر

٢ – البرهان في علوم القرآن للزركشي . دار أحياء الكتب العربية بمصر . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم

٣ – التفسير الكبير للرازي . المطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر – مصر

٤ – تفسير المنار لمحمد رشيد رضا .دار المنار بمصر

٥ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . ط٣. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م القاهرة

٦ – حاشية الصبان على شرح الأشموني على الفية ابن مالك . دار أحياء الكتب العربية على البابي الحلبي . القاهرة

٧ – دراسات في اللغة العربية لمحمد الخضر حسين جمع وتحقيق علي الرضا التونسي ط١ ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م

٨ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي . وبهامشه تنوير المقباس لعبدالله بن عباس .

٩ – دروس من القرآن الكريم . للامام الشيخ محمد عبده . تقديم طاهر الطناحي طبع بمطابع دار الهلال

١٠ – شرح الأشموني على الفية ابن مالك . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة البابي الحلبي بمصر ط٢

١١ – شرح ابن عقيل على الفيه ابن مالك . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر .

١٢ – شرح التصريح على التوضيح للأزهري.دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

١٣ – شرح المفصل لابن يعيش ،طبع أدارة المطبعة المنيرية

١٤ – الكتاب لسيبويه . تحقيق عبد السلام هارون . دار العلم ١٣٨٥هـ – ١٩٦٦م

١٥ – مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات ، مطبعة عيسى البابي الحلبي

١٦ – المقتضب لأبي العباس المبرد . تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة . دار نهضة مصر

١٧ – النحو الوافي لعباس حسن. ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٢م

١٨ – همع الهوامع للسيوطي . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت .

التأثيرات المعمارية بين مصر والعراق
خلال العصور الاسلامية حتى العهد العثماني

د. أحمد قاسم الجمعة

كلية الاداب — جامعة الموصل

يعد العراق ومصر من اقدم المواطن التي نشأت فيهما الحضارة البشرية ، كما حدثت بينهما علاقات وتبادل حضاري منذ اقدم العصور . والرسائل المكتشفة في تل العمارنة خير دليل على ذلك ، وامتد تأثيرها الى الحضارات القديمة والبقاع الأخرى ولاسيما ايران في العهد الأخميني والعهود اللاحقة له في الشرق والحضارة الاغريقية وما تفرع عنها من حضارات في الغرب .

والبحث سيتناول التأثير المعماري المتبادل بين العراق ومصر في العصر الاسلامي ، حيث ازداد ذلك التأثير بفعل الوحدة السياسية والحضارية بين أقطار الوطن العربي لفترة طويلة بعد ظهور الاسلام والتي تمخضت عنها الوحدة التعبيرية للعمارة والفنون (١) .

وسيكون الاعتماد في ذلك على مدى التشابه بين الظواهر والعناصر المعمارية في كلا القطرين على الرغم من كون التشابه لايشير في كل الأحيان الى التبادل ، وانما تكون نشأته محلية بفعل الحاجة اليه .

وتبادل الولاة والحكام وهجرة وتنقل الصناع وارباب الحرف من قطر لآخر له الدور الكبير في ذلك التبادل . وخير دليل على ذلك احمد بن طولون الذي ترعرع في سامراء في العراق وعاش في عصري المعتصم والمتوكل اللذين اهتما بالعمارة والبناء وعليه فمن البديهي ان ينقل بعض تلك الظواهر المعمارية الى مبانيه في مصر بعد أن ولي أمرها(٢).

(١) الدكتور احمد قاسم الجمعة: أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي في العصر الأسلامي ، مجلة آداب الرافدين، العدد التاسع أيلول ١٩٧٨، ص١٩٠.

(٢) الدكتور فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الأسلامية ، المجلد الأول، القاهرة ١٩٧٠م، ص٤٢١؛ الدكتور طاهر مظفر العميد: العمارة العباسية في سامراء، بغداد ١٩٧٦م، ص٢٣٨.

ثم قدوم بعض الصناع واهل الحرف من مصر الى الموصل في اواخر القرن (٦هـ/ ١٢م) (١) وهجرة الصناع من الموصل الى ربوع الشام ومصر بعد استيلاء المغول عليها سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) (٢) .

ومن تلك التأثيرات تخطيط مدينة القطائع التي بناها ابن طولون عام (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) حيث كان يخترقها شارع واسع يصل بين قصره وجامعه سمي بالشارع الأعظم على غرار الشارع الأعظم الذى كان يخترق مدينة سامراء ويمتد لعدة كيلو مترات واصلا قصر بلكوارا وجامع ابي دلف شمال سامراء (٣) ، كما ان جامع ابن طولون كان قد استوحى تخطيطه مباشرة من العمارة العباسية في سامراء (٤) ولاسيما الزيادات التي تكتنف جدرانه الخارجية (رسم ١) التي تمثلت قبل ذلك في مسجد سامراء (٥) وأبي دلف . كما وجدت في الجامع الأعظم بسوسة في تونس ، وهي عبارة عن افنية طولية تشكل على جبهة الجامع وجانبيه بما يشبه السور (٦) ، علما بأن المآذن في هذه الجوامع تقع خارجها في تلك الزيادات . (٧)

وتصميم المئذنة الملوية في الجامع الكبير في سامراء ذات القاعدة المكعبة والسلم الصاعد حولها من الخارج (رسم٢ ، ٣) هو الآخر يبين مدى تأثير العمارة العراقية على مصر ، فقد تمثل في مئذنة الجامع الطولوني (٨) (رسم ٤،٥) على الرغم من تشييدها بعد اربعة

---

(١) سعيد الديوجي: الموصل في العهد الأتابكي ، بغداد ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، ص٤٥.

(٢) الدكتور صلاح العبيدي :التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي ؛ بغداد ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م، ص٢٥.

(٣) شافعي : المرجع السابق، ص٤٢٣.

(٤) جورج مارسيه: الفن الأسلامي، ترجمة الدكتور بهنسي، ومراجعة عدنان بني، دمشق ١٩٦٨م، ص٧١.

(٥) محمود عكوش: تأريخ الجامع الطولوني . القاهرة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م. ص٣٠،٣١.

(٦) مارسيه: المرجع السابق ،ص٧٢.

(٧) العميد :المرجع السابق، ص٢٣٨.

(٨) شافعي : المرجع السابق، ص٤١١، العميد :المرجع السابق، ص٢٣٨؛ ثروت عكاشة القيم الجمالية في العمارة الأسلامية ،القاهرة ١٩٨١م، ص١٥٩.

قرون في عام (٦٩٦هـ – ١٢٩٦م) ، كما تمثل بعد ذلك في مئذنة جامع ابي دلف المشيد حوالي عام (٢٤٧هـ – ٨٦١م) (١) .

وهناك تأثير معماري آخر تناول المآذن فقد اشتملت مئذنة خانقاه الأمير قوصون بصحراء السيوطي (٧٣٦هـ / ١٣٣٦م) من عهد المماليك البحرية على سلمين فيما بين الدورة الأولى والثانية لايرى الصاعد النازل منها(٢)،ومثل هذه الظاهرة وجدت من قبل في العراق بمدينة الموصل في مئذنة الجامع النوري من العهد الأتابكي (٥٦٦ – ٥٦٨هـ/ ١١٧٠ – ١١٧٢م)، فقد اشتملت هي الأخرى على سلمين أحدهما يبدأ من أسفل قاعدتها المنشورية ، والأخـر من اسفل بدنها الأسطواني ولايلتقيان الا في الأعلى (٣) (رسم ٦) وانتقلت الميزة المذكـورة الى المئذنة المظفرية في اربيل بالعراق (٥٨٦ – ٦٣٠هـ / ١١٩٠ – ١٢٣٢م) . (٤) .

وحقق المعمار بوجود السلمين تخفيف الثقل وزيادة تماسك وشدة المواد البنائية للبدن بالمحور الوسطي وعدم اندفاعها نحو الخارج (٥) .

ومن الظواهر المعمارية الأخرى المبتكرة في سامراء ذات العلاقة بتطور العمارة في مصر هي البدنات . فقد وجدت في الجامع الكبير بسامراء على هيئة أكتاف مربعة لحمل السقف في ظلات المسجد مباشرة بغير عقود (٦) ، وتحف بأركانها اعمدة اسطوانية رشيقة (٧) . وفي جامع ابي دلف وجدت الأكتاف بهيئة مستطيلة لتحمل عقودا تتكون

---

(١) شافعي : المرجع السابق، ص٤١١.

(٢) حسن عبد الوهاب: من روائع العمارة الأسلامية في مصر، المؤتمر الرابع للاثار في البلاد العربية ،القاهرة ١٩٦٥م، ص٣٠٩.

(٣) الدكتور احمد قاسم الجمعة: من نفائس الفن المعماري في الموصل، مجلة الشعب، العدد الأول، حزيران ١٩٧٨م، ص٥٦.

(٤) الدكتور احمد قاسم الجمعة: المئذنة المظفرية في أربيل،مجلة الشعب،العدد الرابع ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩، ص١٦٨.

(٥) الجمعة: من نفائس الفن المعماري في الموصل، ص٥٦.

(٦) شافعي : المرجع السابق، ص٤٠٣.

(٧) ربيع القيسي : جامع الجمعة في سامراء تخطيطه وصيانته، مجلة سومر م ٢٥، لسنة ١٩٦٩، ص١٤٨، مخطط رقم ٣.

منها بائكات يوضع فوقها السقف.وانتقلت هذه الظاهرة الى الجامع الطولوني بمصر (١) (رسم ٨).وامتدت الى العصر الأخشيدي في مشهد آل طباطبا بالقرافة الصغرى بالقاهرة(٢) وتعدتها الى العهد الفاطمي عندما تمثلت في جامع الحاكم (٣) . وطالعتنا بعد ذلك في جامع قرطبة من عهد الخليفة المستنصر (٤) .

أما ظاهرة عمود الناصية الملصق التي وجدت في نواصي دعامات جامع سامراء الكبير طالعتنا هي الأخرى بعد ذلك في الحنايا الزخرفية اواجهات جامع عمرو بن العاص وترجع الى عهد توسيعه من قبل الوالي عبدالله بن طاهر سنة (٢١٢هـ - ٨٢٧م) (٥) .

ولابد لنا من الأشارة ونحن في مجال التطرق الى الأعمدة الى تيجان الأعمدة الكأسية التي ظهرت بصورتها الواضحة في قصر الجوسق الخاقاني للخليفة المعتصم في سامراء (٢٢١هـ / ٨٣٥م) (رسم ٧) . ثم ظهرت أمثلتها بعد ذلك في شاهد قبر مؤرخ في سنة (٣٤٥هـ / ٨٥٩م) وبعد سنتين وجدت في قواعد بعض الأعمدة بمقياس الروضة ثم تمثلت بجميع تيجان الجامع الطولوني وكذلك كنسية العذراء ذات الطراز الطولوني بدير السريان بحدود عام (٣٠٢هـ / ٩١٤م) (٦) ، وعلى الرغم من الأستخدام النادر للتيجان الكأسية في المغرب العربي غير أنها وجدت في اعمدة طاقات جامع القيروان (٧) .

وشمل التأثير المعماري المتبادل بين العراق ومصر تصميم القصور والمساكن . فعلى الرغم من اندثار قصر ابن طولون في اسفل هضبة المقطم الا انه من المحتمل تأثر تصميمه بالأساليب المعمارية (٤)التي اتبعت في قصر الجوسق الخاقاني وقصر بلكوارا شمالها(٨). وفي العصر الفاطمي كان في قصر الخليفة نفق يصل بين غرف الخليفة وجناح الحريم على غرار النفق الذي سبق وجوده بقصر الخليفة المعتصم بسامراء (٩) .

(١) شافعي : المرجع السابق، ص٤٠٣.

(٢) الجمعة: أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي في العصر الأسلامي ،ص٢١٢.

(٣) حسن عبد الوهاب: تأريخ المساجد الأثرية. القاهرة ١٩٤٦م، ج١ ص٣٥.

(٤) مانويل جوميث: الفن الأسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور جمال محمد محرز ،مصر ١٩٦٨م، ص١٠٩.

(٥) شافعي: المرجع السابق ،ص٤١٧.

(٦) شافعي: المرجع السابق، ص٤١١.

(7)Creswell The Muslim Architecture of Egypt, Oxford 1959,Vol II, Fig.237.

(٨) شافعي : المرجع السابق ،ص٤٢٥.

(٩) الدكتور صالح لمعي مصطفى : التراث المعماري في مصر ، بيروت ١٩٧٥م ، ص.

وأقدم الدور السكنية المكتشفة في حفريات الفسطاط تعود الى العصر الطولوني ، وتوضح مدى تأثير العمارة العراقية في العصر العباسي على العمارة الطولونية بمصر حيث يتألف الدار من صحن يحيط به اربعة ايوانات احدهما وهو الرئيس يتخذ شكل حرف T ومثل هذا التصميم وجد في قصر الأخيضر (١) المنسوب الى سنة (١٦٠هـ/٧٧٦م) . هذا وان أقدم تلك المرافق المكتشفه تمثل جناح لدار في منطقة العسكر ينسب الى العصر الطولوني او حوالي(٢٨٥هـ/٩٠٠م)ويتكون من ايوان وسطي وحجرتين على جانبيه ، وتتقدم كل ذلك سقيفة مستعرضة تنفتح على فناء مكشوف من خلال ثلاث فتحات وهذا التصميم تمثل قبل ذلك في دارين من دور قصر الأخيضر ،وكذلك دور سامراء التي تنسب للفترة (٢٢١ — ٢٢٨هـ/٨٣٧ — ٨٩١م) (٢) .

والملاحظ على احد الدور المكتشفة من قبل الدكتور عباس حلمي انها تحتوي على ايوانين فقط في الجهتين الشمالية والجنوبية وهو التقليد الذي ساد جميع الدور المتكاملة المساقط المكتشفة في الفسطاط (٣).

وتتجلى أهمية هذه الدار ايضاً باحتوائها على المدخل المنكسر لكونه أقدم مثل قائم ثابت للتاريخ من نوعه ليس بمصر فقط وانما في بقية العالم العربي الاسلامي ، على الرغم من انتشار المداخل المنكسرة في دور الفسطاط وظهورها في العصر الفاطمي في القصر الغربي الذي بناه العزيز بالله(٤)، كما أن مداخل بغداد المنكسرة من اولى الامثلة الصريحة لتلك المداخل في العصر الاسلامي . (٥)

---

(١) الدكتور صالح لمعي مصطفى : التراث المعماري في مصر. بيروت ١٩٧٥م. ص٨٠،٨١.

(٢) شافعي :المرجع نفسه ،ص٤٢٣.

(٣) المرجع نفسه ص٤٢٣ .

(٤) المرجع نفسه، ص٤٣٥.

(٥) الدكتور احمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل ، القاهرة ١٩٦١م،ص٣٤ حاشية ٢؛ طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، النجف ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص٢٢٠، ٢٢١.

وظهرت المداخل المزورة بعد ذلك بالشام في العصر الاتابكي أبان الحروب الصليبية، واستعملها صلاح الدين في أحد أبواب حصن القاهرة للفترة بين (٥٦٤ ـ ٥٦٧هـ / ١١٦٩ ـ ١١٧٢م) ايام وزارته للعاضد الفاطمي، ثم استخدمها بعد أن ولي الحكم في مصر في مداخل أسوار العاصمة مصر، ومداخل قلعة الجبل التي بناها سنة (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) (١)، ثم ظهرت في بعض مباني المغرب العربي كمدخل الرواح في الرباط من فترة مقاربة (٢)، وامتد تأثيرها الى الحصون والقلاع الأوربيه (٣).

ويؤدي المدخل المنكسر في المساكن غرضين أحدهما اجتماعي يحجب انظار المارة في الخارج والآخر أمني يزيد من فرص الدفاع ايام الاضطرابات (٤)؛ في حين تؤدي في المدن والقلاع والحصون غرضاً عسكريا. وذلك لاضطرار الغزاة لدى اقتحامها الى الانحراف نحو اليسار فتتعرض جوانبهم لسهام المدافعين من شرفات المبنى المقابل للمداخل(٥)

وهناك نوع آخر من المداخل شمله التأثير المتبادل بين العراق ومصر هو المداخل البارزة عن مستوى الجدران. فقد ظهرت امثلتها الاولى في العراق في خان عطشان (١٦١هـ/ ٧٧٧م) (٦)، وتمثلت هذه الظاهرة في المدخل الرئيس لجامع الحاكم بالقاهرة (٣٨٠ ـ ٤٠٣هـ/ ٩٩٠ ـ ١٠١٢م) في العهد الفاطمي) (٧)، وعلى الرغم من ظهور المداخل البارزة في العراق قبل مصر، الا ان الحسم لايمكن فيما اذا كان انتقالها الى مصر بصورة مباشرة من العراق اوبصورة غير مباشرة من المغرب العربي لانها تمثلت في بعض

---

(١) شافعي: المرجع السابق، ص٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) صبحي أعشى: نماذج من الفن المعماري الموحدي بالمغرب، المحمدية ١٩٧٧م، ص٥٠ شكل ٦.

(٣) شافعي: المرجع السابق، ص٢٧٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٣٥.

(٥) الدكتور احمد فكري: المرجع السابق، ص٣٤. حاشية ٢؛ الدكتور طاهر العميد: المرجع السابق، ص٣٣٠-٣٣١.

(٦) الدكتور احمد فكري: العمارة الأسلامية في مصر، القاهرة، ص٨٢

(٧) الدكتور عبد الرحمن زكي: القاهرة تأريخها وآثارها من جوهر الصقلي الى الجبرتي المؤرخ. القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص٥٤.

مبانيه كما هو الحال في مدخل مسجد المهدية في تونس (٣٠٣ / ٣٠٨هـ ٩١٥ — ٩٢٠م) (١) لأن شمال افريقيا كان خاضعاً للحكم الفاطمي في هذه الفترة (٢) .

واذا تناولنا التصميم والظواهر المعمارية في بيوت الفسطاط الآنفة الذكر بشيء من التفصيل لوجدنا ان ترتيب الأواوين التي تحف بالفناء وتقع على ميمنتها وميسرتها الأجنحة المتناظرة يمثل الطراز المعروف بالحيرى نظرا لتطوره وانتشاره في قصور الحيرة بالعراق (٣) وامتد الى المباني العربية الأسلامية في العصر الأموي في بعض مساكن الكوفة وواسط ، واسكاف بنى جنيد (٤)، ثم العصر العباسي من بعده بشيء من التطور كما في بعض بيوت للاحصن الأخيضر (٥) .

وربما يكون الطراز الحيري مشتقاً من هيئة مضيف بيت الشعر ، حيث يتوسط المضيف الواسع المفتوح من الأمام بيت الشعر وعلى جانبيه مساكن العائلة من القصب (٦) . وقد وجدت بوادر هذا الطراز في العراق منذ عصر آيسن لارسا البابلي القديم (٢١٧٠ — ١٦٥٠ ق.م) (٧) كما ظهر مايماثل ذلك بعض الشيء في اللاهون من عهد الدولة الوسطى بمصر القديمة ، فقد كانت بيوتها القديمة تتألف من قسم اوسط وجناحين (٨) .

---

(١) فكري: المرجع السابق، ص٨٢ .

(٢) الجمعة: المرجع السابق، ص١٩٣.

(٣) الدكتور عفيف بهنسي : تكوين الفن العربي الأسلامي في ديار الشام ، الحوليات السورية، م٢ لسنة ١٩٧٢، ص١٩.

(٤) فريال مصطفى : البيت العربي في العراق في العصر الأسلامي ، بغداد ١٩٨٣م، ص٢١

(٥) الدكتور عيسى سلمان وآخرون: العمارات العربية الأسلامية ، ج١ (قصور ومشاهد) ، بغداد ١٩٨٢م، ص ٣١.

(٦) الدكتور مصطفى جواد : الديوان والكنيسة في العمارة الأسلامية، مجلة سومر، م ٢٥ لسنة ١٩٦٩م، ص١٦٦.

(٧) فريال: المرجع السابق، ص١٦٠، شكل ٦.

(٨) الدكتور محمد انور شكري: العمارة في مصر القديمة ، القاهرة ١٩٧٠م. ص١٠٥.

أما تصميم المنازل الذي يتخذ شكل حرف T الذي يمثل الممرات الرئيسية لمرافقها فقد تمثلت نماذجه في الطبقة الرابعة لمعبد انا في الوركاء (٢٨٠٠ — ٢٥٠٠ق.م) ، والذي اصطلح على تسميته بالطراز الحيري الناقص (١) .

ولقد كان للمناخ الأثر الرئيس في اعتماد ذلك التصميم ، فالفناء يساعد على تخفيف حدة الضوء والحرارة صيفاً ويساعد على الدفء شتاء عند غلق الفتحات : كما يرشح الهواء من الغبار ويخفف ضوضاء الطرقات ويحجب سكان الدار عن انظار المارة بها(٢).

أما الأيوان فيعد بمثابة فناء مسقف يستخدم في كثير من المناسبات العائلية ، وسطحه المقبب يساعد على تلطيف الحرارة والتهوية صيفاً (٣) . كما تكون السطوح المقببة اكثر تماسكا من السطوح المستوية وتساعد على تخفيف القوى الضاغطة على الجدران والأسس(٤).

وابتكر التقويس في البناء منذ العصر السومري في العراق متمثلا في العقد الكامل في مدينة اريدو (٥) ، واقتبسته العمارة الفارسية (٦) ، ويغلب على الظن انه انتقل الى الطراز الروماني (٧) .

وبخصوص السقيفة المستعرضة التي تتقدم الأواوين وملحقاتها في اجنحة المساكن . فكانت بمثابة الأروقة التي تقي الأبنية التي تتقدمها من الحر الشديد صيفاً والبرد والأمطار شتاءاً. بينما اقتصرت الأجنحة على الجهتين الشمالية والجنوبية لمعالجة مشاكل المناخ ايضاً. فالاجنحة الشمالية تكون شتوية لانها تتعرض لاشعة الشمس في حين تكون الأجنحة الجنوبية صيفية لانها تتفادى شمس العصر ذات الضغط الحراري العالي .

---

(١) فريال: المرجع السابق، ص١٦٠: شكل ٥.

(٢) شافعي : المرجع السابق ،ص٢٨١.

(٣) محمد بدر الدين الخولي: المؤثرات المناخية والعمارة العربية. جامعة بيروت العربية ١٩٧٥، ص٣٤.

(٤) الدكتور أحمد قاسم الجمعة: العناصر المعمارية والفنية المميزة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى ، مجلة آداب الرافدين، العدد الخامس عشر، ايلول ١٩٨٢م : ص٢٣٧ .

(٥) طه باقر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ،ج١، بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م،ص٢٧٥.

(٦) جواد: المرجع السابق، ص١٦٤.

(٧) شافعي : المرجع السابق، ص١٦٦.

وهناك تأثيرات معمارية اخرى بين العراق ومصر شملت العقود . فالعقد المدبب العادي وجد في العراق قبيل الأسلام لضرورة معمارية وفي العصر الأسلامي وجدت نماذجه الأولى في المسجد الأموي بدمشق (٩٦هـ — ٧١٧م) (١) واستخدم بعد ذلك في حصن الأخيضر وقصر الجوسق الخاقاني ، ثم طالعنا في المسجد الجامع بالقيروان من عهد زيادة الله الأغلبي (٢٢١هـ — ٨٢٦م) ، وبعده في مقياس الروضة بمصر (٢٤٧هـ — ٨٦١م) ثم انتشر بصورة واسعة في مشرق العالم الأسلامي ومغربه ، علاوة على ظهوره في العمارة المسيحية الرومانسية في اوربا (٢) .

اما العقد المدبب ذو المراكز الأربعة فيعد من الأبتكارات العربية الأسلامية المهمة حيث تمثلت امثلته الأولى في باب بغداد في الرقة (حوالي ١٥٥هـ — ٧٧١م) ، وبعدها وجد في باب العامة في قصر الجوسق الخاقاني وجامع ابي دلف. ثم انتقل الى عمائر المغرب العربي . ولم يظهر في مصر الا بالعصر الفاطمي مما يوحي بأنه لم ينقل من العراق بصورة مباشرة بل جاء عن طريق المغرب العربي (٣) .

والعقود المفصصة التي تعتمد على التدوير والأنكسار تعد هي الأخرى من العقود المبتكرة من قبل العرب المسلمين . فقد وجدت امثلتها الصريحة الأولى في مئذنة مسجد الحاكم بالقاهرة (٣٨٠ — ٤٠٣هـ / ٩٩٠ — ١٠١٢م) وأحد محاريب الجامع الطولوني من نهاية العهد الفاطمي (٤) ، ومنذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي انتشر هذا العقد في مشرق العالم الأسلامي ومغربه (٥) . ففي العراق تمثل في عقود ضريح محمد

---

(١) شافعي : المرجع السابق ص١٧٣، ٢٠٧.

(٢) الدكتور احمد فكري : التأثيرات الفنية الأسلامية العربية على الفنون الأوربية ، مجلة سومر ، م٢٣ لسنة ١٩٦٧م، ص٥٧.

(٣) شافعي : المرجع السابق ، ص٤١٣، ٤١٥.

(4) Shafiei (F). An Early Fatimit Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun. Bulletin of the Faculty of Arts, Vol, xv, Part I, May 1953, PP. 75,81, Fig. 16.

(٥) احمدقاسم الجمعة: محاريب مساجد الموصل الى نهاية حكم الأتابكة، رسالة ماجستير (غير منشورة) قدمت الجامعة القاهرة ١٩٧١،ج١ ، ص٢٢٣ .

الدوري (القرن ٥هـ / ١١م) (١) وعقد محراب عمارة الأربعين في تكريت (نهاية القرن ٥هـ — ١١م) (٢) ، وقلعة بن حماد في الجزائر (القرن ٥هـ / ١١م) (٣) ، والبيمارستان النوري في سوريا (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) (٤) .

ولابد في ختام البحث من التنويه انه قد تناول ابرز التأثيرات المعمارية بين مصر والعراق في العصر الأسلامي ، ولم يتطرق الى التأثيرات الأخرى التي شملت الفنون التشكيلية والصناعات التطبيقية المستخدمة في المباني لاغراض جمالية وتوثيقية خشية الأتساع ، ومنها اعمال الجص والتكسية بالرخام وتلبيسه والأجر المزجج والزخرف والخط العربي .

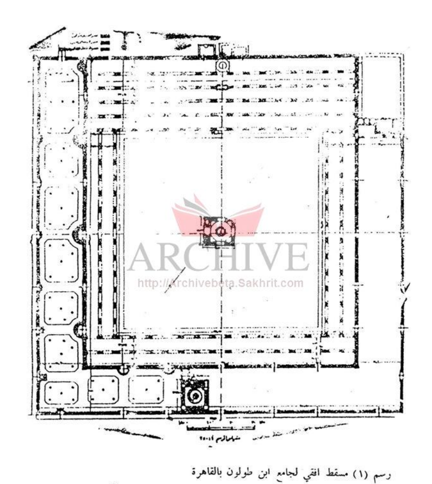


(1) Shafei, Op. cit, Pl, 74, Fig. 2

(٢) الدكتور عبد العزيز حميد : عمارة الأربعين في تكريت ، مجلة سومر م٢١ لسنة ١٩٦٥م، ص١٣٩، ١٤٠.

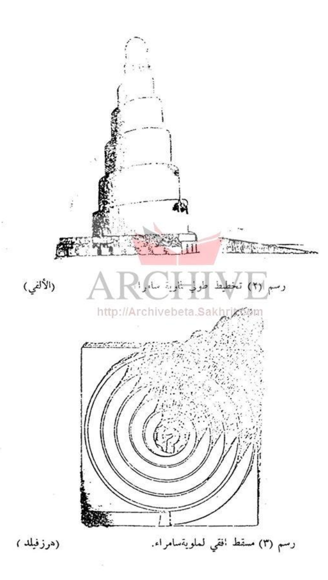
(3) Marcais, Manuel D'Art Muslman E'Architecture, PP, 155' Figs, 80, 368, 199B .

(4) Shafiei, Op. cit., P. 74, Fig. 8.12



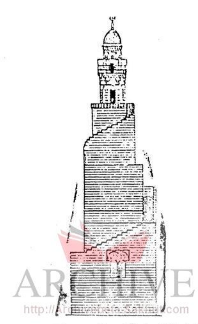
رسم (١) مسقط افقي لجامع ابن طولون بالقاهرة

(د. عكاشة)

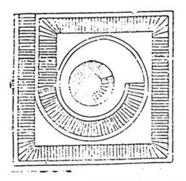


رسم (٢) تخطيط طولي لملوية سامراء (الألفي)

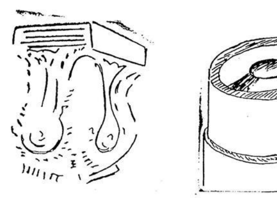
رسم (٣) مسقط افقي لملوية سامراء. (درزفيلد)

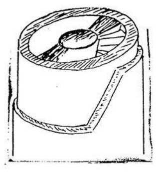


رسم (٤) تخطيط طولي لمئذنة جامع ابن طولون في القاهرة (دافن)



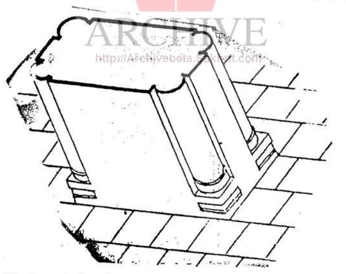
رسم (٥) مسقط افقي لمئذنة ابن طولون (ديولافوا)





رسم (٦) مقطع لمئذنة الجامع النوري بالموصل (باكليرو)

رسم (٧) تاج عمود بقصر الجوسق الخاقاني في سامراء (كريسويل)



رسم (٨) بدنة من جامع ابن طولون بالقاهرة وجامع ابي دلف بسامراء (د. شافعي)

(العرب في مواجهة محاولات الفرس التخريبية في العصر العباسي)
١٣٣هـ ـ ٤٤٧هـ

د. توفيق سلطان اليوزبكي
كلية الآداب / جامعة الموصل

تقديم : ـ

ان جذور الصراع العربي الفارسي تعود الى عصور سحيقة في القدم وقد دارت على ارض العراق حروب عديدة وبصورة متقطعة طيلة قرون عدة. استخدم فيها الفرس تارة الأساليب العسكرية وتارة الخداع وبث الشقاق والفرقة بين قبائل العرب واستمر الحال على ذلك حتى بزوغ فجر الأسلام الذي انطلق بأسم الجهاد لتحرير العراق من السيطرة الفارسية مما أحدث تصادماً عنيفاً بين الأسلام والمجوسية وخلق صراعات عسكرية وفكرية وثقافية بين العرب والفرس عبر التأريخ العربي الأسلامي :

فقد اعتنق بعض هؤلاء الفرس الأسلام ظاهراً وتسللوا اليه وشغلهم بث الفتن والشكوك والدسائس ونشر الاباطيل والبدع والضلالات وهدفهم تشويه الأسلام وهدمه لأنه سر انتصار العرب وقوتهم .

فأتجهت العناصر الفارسية المتطرفة في اتجاهين: الأول مساهمتهم بكل تمرد مسلح او حركة سياسية فأنضموا الى جانب الحركات السياسية المناهضة للدولة الأموية . والثاني سعي الفرس الى التكتل ضد العرب فأثاروا العنصرية الفارسية تحت ستار اسلامي لتحقيق طموحاتهم واهدافهم .

ولما ظهرت الدعوة العباسية انخرطوا فيها وراحوا يعملون على السيطرة على المراكز السياسية والعسكرية والادارية بعد نجاحها وقيام الدولة وساندوا الحركات الدينية والمجوسية

التي ظهرت في بلاد فارس وحاولوا احتواء الثورات العلوية لتحقيق آمالهم من خلالها . ولما خابت آمال الفرس في تحقيق اهدافهم الخبيثة بالوسائل العسكرية والسياسية اتجهوا الى استخدام الأسلوب الفكري والثقافي والديني بهدف هدم المجتمع العربي الأسلامي بتحطيم السياج الديني والقيم والفضائل العربية بنشر تعاليم فاسدة ونشر الشكوك حول الأسلام ومهاجمة الحضارة العربية والتراث العربي .

وما الصراع في العصر الحديث الا استمرار لسلسلة الصراعات التي حدثت في التأريخ العربي الأسلامي وهي تبدو حية بتجارب الحاضر كما ان تجارب الحاضر تتجلى في اتجاهاتها بدراسة الماضي ونأمل ان نكون قد وفقنا من خلال هذه الدراسة في عرض صيغ واشكال التيار الشعوبي الفارسي خلال العصر العباسي .



١ – (الفرس وموقفهم من قيام الدولة العربية الاسلامية)

كان لظهور الاسلام اثر بعيد في حياة العرب والشعوب المجاورة وبخاصة الشعوب الفارسية، كما ان مبدأ الجهاد في سبيل نشر رسالة الاسلام وفي سبيل تحرير الارض العربية ادى إلى حدوث تصادم حاد ومتصل بين مبدأ التوحيد الاسلامي والتحرير العربي وبين المجوسية والعنصرية الفارسية ، وكانت النتيجة انتصار العروبة والاسلام، وتحرير الاراضي العربية من النفوذ الفارسي والبيزنطي . فخلفت وبشكل خاص منازعات بين العرب والفرس على مر التاريخ العربي ، وعملت على ظهور الشعوبية والزندقة التي استطاعت ان تلعب دوراً بعيد الاثر في الصراع السياسي والفكري والديني بين العرب والفرس عبر العصور وحتى الوقت الحاضر .

لقد كان نزول القرآن الكريم على العرب وبلغتهم يعني بالبداهة اصطفاء الله تعالى العرب من بين شعوب الارض لحمل الرسالة واختيار العرب لحمل رسالة الاسلام يبرز حقيقة مهمة وهي ان العرب كانوا على استعداد فكري ونفسي لقبول الرسالة وتحمل عبئها والدفاع عنها .

ان الترابط والتكامل بين العروبة والاسلام اثار الحقد في نفوس بعض الشعوب غير العربية وخاصة الفرس . وقد صور الجاحظ ذلك بقوله : (فإن عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه من الشعوبية ، فإذا ابغض شيئاً ابغض اهله ، وان ابغض تلك اللغة ابغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف الصالح) (١) .

لقد انطلقت الدولة العربية الاسلامية منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين من مبادىء الاسلام ومن القيم العربية في تحقيق المساواة بين العرب والشعوب الاسلامية الاخرى لقوله تعالى (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) (٢) .

وأكد الرسول هذه المبادىء والتزم الخلفاء الذين جاءوا بعده بهذه المبادىء والقيم الانسانية ، الا ان الفرس استغلوا روح الشريعة الاسلامية وسياسة العرب السمحاء فتستر

---

(١) الجاحظ كتاب الحيوان ج٧ ص٦٨ مطبعة المعارف بمصر .
(٢) سورة الحجرات آية ١٢

الكثير منهم بمبادىء الاسلام لتحقيق مآربهم في ضرب السلطان العربي الذي قضى على الامبراطورية الفارسية ، والاطاحة بالاسلام الذي قضى على الدين المجوسي : بعد ان وجدوا ان الاسلام والعروبة مفهومين مترادفين ومتلازمين (١) ، فاعتنقوا الاسلام ظاهرياً على مضض ولما يدخل الايمان في قلوبهم وانما تسللوا اليه وشغلهم الشاغل زرع الفتن ونشر الاراجيف وحبك الدسائس ،واقحموا على الاسلام الاباطيل والبدع والضلالات واسقطوا بعض المسلمين في حبائلهم حتى اخرجوهم عن طريق الهدى (٢) .

وقد عبر الحقد الشعوبي الفارسي على العرب باسهامهم في اغتيال الخلفاء الراشدين الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) بشكل مباشر او بدعم حركات المعارضة ضدهم وبانضوائهم في العصر الاموي تحت الوية الحركات التي قامت ضد الدولة الاموية . وقد استهدفوا من مساندتها القضاء على السلطان العربي وقد عبر الوالي العربي في خراسان نصر بن سيار عن نقمتهم على العرب والاسلام ويحذرهم من الفرس بقوله : (٣)

ابلغ ربيعة في مرو واخوتهم فليغضبوا قبل الا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا حرباً يحرق في حافاتها الحطب
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فإن تكن سائلا عن اصل دينهم فإن دينهم ان يقتل العرب

واندفع الفرس بشكل واسع وبقوة في العصر العباسي بدافع عنصري . وتمثل حركتهم جانباً من محاولة شعوب غير عربية لضرب السلطان العربي الذي انكشف في الصراع السياسي والثقافي والديني الواسع الذي قامت به العناصر الفارسية المتطرفة (٤) في عدائها للعرب والاسلام . فعملوا على التشكيك في الاسلام ، والتقليل من شأن العرب والحط من ثقافتهم التي ازدهرت بالاسلام ، فقد عبر البغدادي عن لسان احدهم بقوله : (فمن كان مائلا للعبادة

---

(١) عبدالله سلوم : الشعوبية حركة مضادة للاسلام والامة العربية ص٣٣ نشر وزارة الاعلام بغداد ١٩٨٠ .
(٢) الدينوري الأخبار الطوال ص٢٢٧ .
(٣) الدينوري الاخبار الطوال ص٣٦٨ ليدن ١٨٨٨م .
(٤) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ص٩ .

حمل على الزهد والعبادة ثم سأله عن معاني العبادات ، وعلل الفرائض وشككه فيها ، ومن رآه ذا مجون وخلاعة قال له العباد بله وحماقة ، وانما الفطنة في نيل اللذات ، ومن رآه شاكاً في دينه أو في المعاد والثواب والعقاب صرح له بنفي ذلك وحمله على استباحة المحرمات) (١).

وقد وجدت العنصرية الفارسية في الالتفاف حول آل البيت ستاراً كثيفاً لحركتها فقالوا: (انا ان اظهرنا رأينا الذي نعتقد رمينا بالكفر والزندقة ، وقد وجدنا اقواماً ينتحلون حب علي ويظهرونه ثم يقتعون بمن شاؤا ، ويعتقدون ما شاؤا فنسبوا بذلك الترفض فلم نر لمذهبنا امراً الطف من انتحال هذا الرجل ثم نقول ما شأنا فلان يقال لنا رافضة احب الينا من ان يقال لنا زنادقة كفار وما علي عندنا احسن حالا من غيرهم ممن نقع بهم (٢).

لقد وجد هؤلاء الزنادقة في الولاء المصطنع لال البيت تحقيق هدفين : الاول حماية انفسهم من الاتهام بالزندقة ، والثاني : تشويه مفاهيم الاسلام ومبادئه الصحيحة فقالوا : (نحن نطمع في ابطال دينهم الا اننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم فليس الطريق إلى انشاء دعوة في الدين والانتماء إلى فرقة منهم ... فتناصروا وانتسبوا إلى اسماعيل بن جعفر الصادق) (٣).

كما عملوا على مقاومة السياسة العربية التي انتهجتها الخلافة الاموية وساندوا كل حركة ترمي إلى القضاء على الخلافة العربية الاموية لتحقيق اهدافهم في ضرب السلطان العربي والدين الاسلامي من جهة ونشر مبادئهم ومفاهيمهم بشكل سري او علني من جهة اخرى. فانضموا إلى جانب الخوارج منذ خلافة الامام علي بدليل كان في صفوفهم في موقعة النهروان عدد كبير منهم (٤) . ثم اخذوا يدعمون الحركات التي قامت بوجه الامويين فبعثوا إلى عبدالله بن الزبير يطلبون الدخول في دعوته (٥) ولما ظهر المختار بن عبيدة الثقفي احتضنه الفرس وقد اشترك في حركته نحو من ثلاثين الف منهم (٦) ثم انضموا إلى حركة عبدالرحمن

---

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٨٠-١٨١ .

(٢) الدارمي : كتاب الرد على الجهمية ص٩٨-٩٩ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم جـ٥ ص١١٠ .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ٣ ص١٥٩ المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٤٩هـ .

(٥) ابن الاثير : جـ٣ ص٣٣٨ .

(٦) الدينوري : الاخبار الطوال ص٢٢٩ .

إبن الاشعث (١) ، ودعم الفرس تمرد يزيد بن المهلب بن ابي صفرة (٢) . ولما خرج وكيع إبن ابي اسود بخراسان على القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي مالت الاعاجم إلى عسكره فأهاجوا الناس عليه ، وكان نتيجتها ان قتل القائد العربي واخوه واولاده واهله (٣) .

ولما ظهرت الدعوة العباسية في خراسان التي كانت مركزاً للعناصر الفارسية المتطرفة في عدائها للعرب عامة ولبني أمية خاصة ، التفوا حول الدعوة العباسية وكان لهم دور في انجاحها وفي قيام الدولة العباسية . ولم يجد العباسيين بدأ من استخدام الفرس في مرافق الدولة من وزارة وامارة وقيادة ودواوين .

٢ – (دور الوزراء الفرس التخريبي للدولة العباسية)

لقد واجهت الدولة العباسية في مطلع تأسيسها الكثير من المخاطر التي كادت تؤدي بالدولة وقد اضطلع بهذا العبيء العباسيون الاوائل ، وقد تمثل في حركات سياسية مسلحة وفي حركتين فكريتين هما الشعوبية والزندقة وكان العراق قاعدة عربية لمواجهة هذه الحركات مما ادى بشكل فاعل إلى الارتقاء بالوعي العربي إلى مستوى التحدي ، والصمود امام هذه المخاطر الجسيمة التي واجهت الامة . فقد راح هؤلاء العنصريون الفرس بعد قيام الدولة العباسية يعملون بحذر على ابعاد العرب من المراكز السياسية والعسكرية والادارية البارزة واحلال الفرس محلهم ،وعملوا ايضاً على مساندة الحركات الدينية المجوسية التي ظهرت في بلاد فارس ومن هذه الحركات المسلمية والسنباذية والراوندية والمقنعية والبابكية وحركة اسحق الترك وحركتي الافشين والمازيار ، كما ساندوا الثورات العلوية واحتووها لا حبابا العلويين وانما لتوسيع شقة الخلاف بين العباسيين وبنو عمومتهم من العلويين ولاضعاف العرب بشكل عام لتمكينهم من تحقيق اهدافهم .

وقد لعب الوزراء الفرس دوراً تخريبياً في اضعاف الدولة العباسية بتعريضها للمكائد والمؤامرات فإن ظهور منصب الوزارة في العصر العباسي الاول كان نتيجة لاشتراك الفرس في

---

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص١٧١ ، اليعقوبي : جـ٣ ص٢٤ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص١٣٤ .

(٣) الطبري : تاريخ جـ٦ ص٥١٢ ، مجهول : العيون والحدائق جـ٣ ص١٩

الدعوة العباسية ولذا لم يجد العباسيون بدا من استحداثها واقتصارها عليهم لتحقيق التوازن بين العرب والفرس . فكان تعيين الوزير من الفرس إلى جانب خليفة عربي رمز هذه المشاركة الفعلية في السلطة (١) .

وكان الوزراء يزدادون نفوذاً واستئثاراً بالاموال كلما زاد اعتماد الخليفة عليهم في شؤون الدولة حتى صارت معظم الاموال اليهم ، ونافسوا الخلفاء في اتساع ثرائهم وتوافرت عليهم من العمال وغيرهم من موظفي الدولة التماساً لرضاهم (٢) . إلى جانب ماكان يغتصبه الوزير من ضياع الدولة ومن عامة الناس فأصبحت الوزارة في العصر العباسي الاول قرينة الخلافة ، وارتبطت قوة الوزارة سياسياً وادارياً بقوة الخلافة ، وكثيراً ماحدث تصادم بين الخليفة والوزير وتولد عنه احداث خطيرة .

كان ابو العباس من الخلفاء العباسيين الاقوياء ، ولم يمنع من ظهور روح الصدام في عصره من الناحية السياسية ، فقد استوزر ابا سلمة الخلال وقد حدث صدام بين الخليفة ووزيره الخلال عندما حاول الوزير التآمر على سلامة الثورة العباسية وممارسته الاساليب التخريبية بالاطاحة بها وبالعباسيين لانه اراد تحويلها إلى العلويين .

وبعد مقتل الخلال استوزر ابو العباس مكانه أبا الجهم بن عطية ، وهو فارسي الاصل ايضاً ومن صنائع أبي مسلم واحد ثقاته ،وكان قائداً لاحدى فرقه ، فلما استوزره ابو العباس صار عيناً وجاسوساً عليه يخبر أبا مسلم بأسرار الدولة ، وينفذ رغائبه حتى قال عنه الجهشياري : ان ابا الجهم كان ينوب عن ابي مسلم بحضرة ابي العباس ويخلفه (٣) .

وبدأت سياسة الوزير التخريبية للدولة بالعمل على ابعاد نفوذ ابي جعفر المنصور عن بلاط اخيه ابي العباس ، ليخلو الجو من اية معارضة تقف دون سياسة ابي مسلم الخراساني ونزعاته الشعوبية الفارسية . ولقد لعب ابن عطية دوراً خطيراً في طغيان النفوذ الشعوبي في الدولة العباسية وفي التجسس لحساب ابي مسلم الخراساني (٤) .

---

(١) برانق : الوزراء العباسيون ص٥٩ .
(٢) الجهشياري : ص٨٦ المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٢٥٣ .
(٣) الجهشياري : ص٩٣ .
(٤) الجومرد : داهية العرب المنصور ص١١٤-١٤٦ .

ولما تولى المنصور الخلافة وجد ان ابا العباس قد خلف له عدة مشاكل الا انه استطاع ان يوطد دعائم الدولة كما واجه اتساع نفوذ ابي مسلم الخراساني ونكل بوزيره أبا الجهم لخيانته له وبذلك حال دون استبداده بالدولة (١) . وبلغ الوزير درجة كبيرة من النفوذ عندما اسند الرشيد بعض امور الدولة إلى يحيى بن خالد البرمكي — وتحدث براون عن نفوذ البرامكة فقال :

ان البرامكة الفرس كان لهم نفوذ قبل حكم الرشيد فخالد بن برمك من المقربين عند للسفاح والمنصور ولما تولى الرشيد الخلافة قوي يحيى واولاده واصبحت جميع عائلته لها نفوذ في الحكم (٢) . على الاجهزة الادارية والسياسية والعسكرية في الدولة ، واغرقوا في استخدام الفرس فيها مما ادى إلى رد فعل شديد لدى العرب ضدهم ، والبرامكة باسلوبهم هذا هددوا فكرة التعاون والتماسك الاداري بين عنصري الدولة العرب والفرس (٣) .

ويرى بعض المؤرخين : ان سبب التصادم بين الرشيد والبرامكة يعود لميول البرامكة السياسية وخطورتها على الدولة . فقد اتهمهم الرشيد بالخيانة العظمى للدولة وذلك لميلهم إلى اعدائه والخارجين على الدولة العباسية ، فقد امر الرشيد جعفر البرمكي بقتل يحيى بن عبدالله العلوي فتحرج جعفر واطلقه دون علم الرشيد فكان هذا العمل في نظر الرشيد تهديداً خطيراً للخليفة نفسه ويؤيد الطبري ذلك بقوله : من قال ان الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبدالله العلوي فلا تصدقه (٤) . ويشير ابن الاثير إلى خطر موسى البرمكي بقوله : ان موسى بن يحيى البرمكي كان متهماً بتحريض اهل خراسان نبذ الطاعة (٥) وبهذا كان هدف البرامكة من تشجيع الخارجين على الدولة العباسية وتأييدهم مادياً ومعنوياً هو اضعاف الدولة العباسية والسعي في تجزئتها وقد عبر الرشيد عن مخاوفه من البرامكة بقوله اني خائف

---

(١) ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام ج١ ص٣٥ .

(٢) Brown : History of Persia of literature ; P 250 .

(٣) الدوري : الجذور التاريخية الشعوبية ص٤٦ .

(٤) الطبري : تاريخ ج١٠ ص٨٠ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ج٩ ص٧٠ .

ان تمكن هؤلاء من خراسان ان يخرج الامر من يدي (١) . وانهم كانوا يحاولون ان يعيدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجوه عن صيغته العربية (٢) .

وقد اورد بعض المؤرخين رواية مفادها ان جعفر البرمكي روى عن ابي مسلم الخراساني دوره في نقل الخلافة من الامويين إلى العباسيين اذ قال : ان ابا مسلم نقل الدولة من قوم إلى قوم بالقتل وسفك الدماء، وانما الرجل من ينقل من غير سفك دم ، وقد نقل ذلك إلى الرشيد فقتل جعفر واسقط افراد اسرته لانهم شركاؤه في تدبير هذه المكيدة السياسية (٣).

والواقع ان البرامكة كانوا يعدون العدة للانقضاض على الدولة في خلافة الرشيد فقد اعدوا الجيوش الكبيرة من الفرس في خراسان وغيرها وكونوا فرقاً عسكرية كبيرة سموها العباسية وكان قوادها من الفرس ، واجرى عليهم ارزاق دائمة من بيت مال المسلمين دون علم الرشيد ، وجعلوا ولائهم جميعاً لآل برمك دون غيرهم ، ويعتبر هذا العمل من الامور الخطيرة التي تهدد امن وسيادة الدولة والخلافة العباسية فقد اوجس الرشيد ريبة من ذلك لضخامة العدد ولعدم وضوح الهدف ولعدم أخذ رأي الرشيد في تكوينها ، ولما عاد الفضل إلى بغداد من خراسان كان معه فرقة قوامها عشرون الف جندي من الاعاجم وليس فيهم عربي واحد وقد ابقى البرامكة هذه الفرقة العسكرية في قلب بغداد فهيأوا لها معسكراً واسعاً بجانبهم في الرصافة وانزلوها فيه فعرفت عند البغداديين بأسم (الكرمينية) (٤) ولعل هناك اسباب أخرى كان لها خطرها في تقويض دعائم الدولة وتخريب وضعها الاقتصادي والمالي منها سيطرتهم على الاموال وانفاقها حسب رغباتهم واهوائهم فيذكر ابن خلدون : ان سقوط البرامكة لما كان من استبدادهم على الدولة واحتجازهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على امره وشاركوه في سلطانه ...فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنعائهم ... من

(١) طنطاوي جوهري : برامكة العباسية ص ٩٧ (٢) كرد علي : الاسلام والحضارة الاسلامية ج٢ ص٢١٣ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب في خبر من ذهب ج١ ص٣١٢ .

(٣) الجومرد : هارون الرشيد ج٢ ص٤٧٢ وما بعدها .

(٤) الطبري : تاريخ ج١٠ ص ٦٧ .

وزارة وقيادة وكتابة وحجابة وسيف وقلم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب..

وتحطت اليهم من اقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء ، وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة اموال الجباية ... وكسبوا من بيوتات الاشراف ... ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ... واستولوا على القرى والضياع ... فكشف لهم وجوه المنافسة والحسد وانتهى بهم الامر على شأنهم إلى كبائر المخالفة) (١) . ويذكر الدميري ان البرامكة أرادوا اظهار الزندقة وفساد الملك فأوقع بهم الرشيد فقتلهم (٢) . ويقول ابن النديم (ان البرامكة بأسرها الا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة) (٣) ويؤكد براون ميول البرامكة المجوسية بقوله : ان حادثة ايوان كسرى ومحاولة يحيى البرمكي تأجيل النوروز لمدة شهرين ليدلان على ان البرامكة كانوا لا يزالون يضمرون المجوسية (٤) .

وقد صور بعض الشعراء ميول البرامكة الشعوبية واعتناقهم الزندقة في هذين البيتين (٥) :

اذا ذكـر الشـرك فـي مجلـس اضـاءت وجـوه بنـي بـرمـك
ولـو تليـت عليهـم آيـة اتـو بالاحـاديـث عـن مـزدك

بعد ان تأكد للرشيد من خيانة البرامكة للدولة وخطرهم عليه اخذ يعد خطة مرسومة للتخلص منهم فأقدم على انتزاع السلطة منهم فصرف الرشيد يحيى عن الوزارة والخاتم ، ومحمد بن خالد عن حجابته وجعفر عن قيادة الحرس وولاية مصر (٦) .

والواقع ان ابعاد البرامكة كان لخيانتهم للدولة وادى سقوطهم الى زيادة حدة الخصومة بين العرب والفرس حيث ظهرت بصورة عنيفة خلال الصراع بين الامين والمأمون ، فأخذت العناصر الفارسية تتجمع بعد ازالة نفوذ البرامكة السياسي وتنشر الاشاعات المغرضة والاباطيل الكاذبة للنيل من الخلافة العباسية ووصفها بالضعف والانحلال ، وباختلاف القصص الخيالية

---

(١) ابن خلدون : المقدمة جـ١ ص ١٥-١٦ .
(٢) الدميري : حياة الحيوان جـ٢ ص١٣٢ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٤٨٧ .
(٤) Brown: History of persia Literature; P 259
(٥) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٣ ص٢٠٩ .
(٦) الجهشياري : ص٢٣٣ / الطبري جـ١٠ ص ٦٢ .

للطعن في الشرف العباسي كقصة العباسة لاشفاء غليلهم(١)ونكاية بالعرب وانتقاماً من الرشيد فتذكر المستشرقة سورديل: انه بعد التحقيق ظهران قصة العباسة حكاية شعبية أو اسطورة خيالية حاكها ونسجها الفرس بعد زوالهم مباشرة ومن اناس عاديين، ولو انها قصة عاطفية بدليل ليس هنا بين أيدينا مايدعمهما من الرسائل الثبوتية كوثائق العقد وشهادة الشهود والتي هي من مستلزمات العقد الشرعي ولكن الحقائق تظهر لنا ان الصراع ضد البرامكة كان سببه هو التصادم السياسي في امور الدولة (٢).

لعب الوزراء الفرس دوراً خطيراً في سياسة الدولة العباسية بما كانوا يعدونه من الدسائس والمؤمرات لتحقيق غاياتهم الخطيرة، وقد بدأت بتعجيل عوامل الفتنة بين الأخوين (الأمين والمأمون) والتي ظهرت نتيجة تحريض وزيرهما وغشمهما ولتحقيق مصالح الوزيرين أدت دورها في قيام هذا النزاع فالفضل بن الربيع وهو فارسي كان يعتقد إن آلت الخلافة بعد الامين الى المأمون فلن يكون له شأن فعمل ولمكاسب نفعية وشخصية على التعاون مع بني هاشم والكتلة العربية التي تكونت منذ خلافة الرشيد ومع بعض العناصر الفارسية المنحرفة عن المأمون وبني سهل كعلي بن عيسى بن ماهان من أجل الوقوف ضد فكرة استخلاف المأمون، وكان الفضل بن سهل وكتلته من الفرس العنصريين تؤيد استخلاف المأمون ويشكلون جميعاً كتلة معادية للامين ولوزيره الفضل بن الربيع والكتلة العربية . واستطاع الفضل بن الربيع ان يسعى في اغراء الأمين وحثه على خلع أخيه المأمون واخذ العهد لأبنه موسى ، في حين شجع الفضل بن سهل المأمون على الأقامة في خراسان والتمسك بحقوقه وبين له قوة مركزه وتأييد العناصر الفارسية له فقال مخاطباً المأمون: (وكيف بك وانت نازل بين اخوالك (الفرس) وبيعتك في اعناقهم واجبة ..... أصبر وانا اضمن لك الخلافة) (٣).

وسرعان ماالشتد الخلاف وتحول الى نزاع مسلح وانتهى بمقتل الأمين وانتصار المأمون فعظم شأن الفضل بن سهل. وعقد له المأمون على المشرق وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين

(١) الدوري : العصر العباسي الاول ص١٧٥ .

(٢) Sourdel, Le, Vizirat Abdaside P-167

(٣) الجهشياري : ص٢٧٨ .

ولقبه (ذا الرياستين) رئاسة السيف ورئاسة القلم ، وجعل له المأمون لقب الأمارة مع لقب الوزارة وهو اول وزير يجمع له اللقبين ، وولى أخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج (١).

كان الفضل بن السهل وزير المأمون كغيره من الفرس ينتصر للعنصر الفارسي فعمل على ان تكون السيادة في الدولة للعناصر الفارسية فحاول التخلص من القواد العرب الذين ناصروا المأمون في محنته مع اخيه الأمين فدبر مؤامرة للخلاص من القائد العربي هرثمة بن اعين. ومقتل هرثمة بن اعين دليل واضح على السياسة العنصرية الفارسية التي سار عليها الفضل بن سهل وعلى قوة الحركة الشعوبية ومحاولتها الرامية الى القضاء على رجالات العرب وابعادهم عن مراكز القيادة والسياسة والأدارة لكي تتمكن من ان تعبث بسلامة الدولة العباسية، وسعى الفضل بن سهل في تحقيق خططه الفارسية الأخرى .

فحسن للمأمون تولية علي الرضا عهده لتحويل الخلافة ظاهرياً الى آل علي ، وقد تجرأت بعض الشخصيات العربية كنعيم بن خازم ان يناقش الفضل بن سهل هذا التصرف الذي يرمي من ورائه تحويل الخلافة الى الفرس قوله له : انك انما تريد ان تزيل الملك عن بني العباس الى ولد علي ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسروياً ، ولو انك اردت ذلك لما عدلت عن لبسه علي وولده من البياض الى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس(٢)

لقد أدرك المأمون حقيقة الأمر وخطورة السياسة العنصرية الفارسية التي انتهجها وزيره الفضل بن سهل فبدأ التصادم الحقيقي بين الخليفة ووزيره بأعنف صورة، فقرر المأمون مغادرة خراسان والعودة الى بغداد ،والواقع ان هذا الأتجاه لم يكن مجرد تبديل العاصمة بل كان انقلاباً سياسياً على السياسة التي تمثلها العاصمة الأولى (مرو) ومعنى ذلك لزوم التخلص من وزيره الفضل بن سهل ومن ولي عهده .

ولانكون مغالين اذا قلنا ان الفترة الأولى من العصر العباسي الأول شهدت صراعاً فارسياً عنيفاً وملموساً من خلال الوزراء الفرس واعوانهم يرمي الى تخريب الدولة العربية واضعافها لاحياء مجد الدولة الفارسية المندثرة

---

(١) الجهشياري : ص٣٠٦ .

(٢) الجهشياري : ص٣١٣ ، ابن الاثير : الكامل ج٦ ص١١٨ .

٣. دور الحركات السياسية والعسكرية الفارسية التخريبي للدولة

بلغت حركة التحرير العربي الأسلامي اوج عظمتها وتوسعها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث تم تحرير العراق وفارس من السيطرة الفارسية والمجوسية، وبدأ السلطان العربي يقوى ويمتد وتبعه انتشار الأسلام بين صفوف عرب العراق وبين عامة بلاد فارس وبدأت بوادر النقمة السياسية من الفرس الذين بقوا على دينهم تظهر وذلك لزوال سلطان الفرس السياسي والديني وبشكل واضح في اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب وقد عبر عنها بعض من المؤرخين بأنها المؤامرة التي دبرها الهرمزان لما كان يكنه من الحقد للعرب بعد ان قضوا على عرش الفرس ومزقوا دولتهم (١).

واما آل الحكم الى الأمويين ظهرت الحركات السياسية المجوسية بثوب فكري، واجتماعي وظهر هذا الأتجاه بشكل واضح في الصراع بين العرب والموالي ،فوقف الأمويون من الموالي الفرس الموقف الحاسم فحافظوا على العنصر العربي بتقريبه والأعتماد عليه وتقويته ، وعلى الدين الأسلامي بتوسع نشره خاصة في الجهات الشرقية من الدولة العربية الأسلامية ، ولكن الحركات السياسية الفارسية أخذت تتسلل داخل حركات المعارضة ضد الدولة الأموية لتجد المتنفس لها لتحقيق احلامها فكانت الدعوة العباسية خير متنفس لها فأنضوت تحت لواء ها، واستغلت الدعوة العباسية نقمة الموالي عامة والفرس خاصة لأن الجذور المجوسية كانت لاتزال قوية حتى عند من اسلم من المجوس حديثاً وهم لايزالون يحنون الى اعادة مجد امبراطوريتهم الذي تحطم تحت اقدام العرب المسلمين .

فلما قامت الدولة العباسية تكتل الفرس – مسلموهم ومجوسيهم – حول ابي مسلم الخراساني الذين اعتبروه زعيماً للعنصر الفارسي ورمزاً للطامعين منهم والحاقدين على العرب والأسلام فقد زعم بعض الفرس المجوس ان روح الله حلت في جسده فهو ربهم كما تقول الراوندية والخرمية ومما زاد في خطورة الموقف الوجود الفارسي في البلاط العباسي ، والجو الكثيف من العناصر الفارسية والشعوبية فالحرس والجند من الخراسانية

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص٨٨ .

والوزراء ،وكتاب الدواوين ،وكان هؤلاء عيوناً لأبي مسلم على الخليفة فلما انطلق المنصور الى خراسان ليبحث مع ابي مسلم الخراساني امر ابي سلمة الخلال استطلعه أحوال المنطقة فرأى وسمع عن جبروت ابي مسلم وسفكه للدماء وعدم أكتراثه لأوامر الخليفة وقد حادثه سليمان بن كثير شيخ نقباء الدعوة العباسية ،واطلعه على اعمال ابي مسلم ، و ما يصيب العرب من ظلم واضطهاد واسرافه سفك دمائهم في خراسان بأسم الثورة العباسية لدرجة امر قادته (بقتل كل من يراه يتعصب من العرب) فراح نتيجة هذا الحقد الفارسي حسبما احصي ستمائة الف (١)

وقد استغل أبو مسلم الخراساني اوضاع الخلافة العباسية بعد مقتل الخلال وراح لاشباع حقده الشعوبي وتحقيق اهدافه البعيدة في الأنفصال عن الدولة العباسية بكسر كل شوكة عربية تناهضه وغذى الجند الخراساني بالنزعة العنصرية والحقد على العرب تحت ستار الدفاع عن الدولة العباسية (٢) فعلم المنصور بعزم ابي مسلم الخراساني على اعلان العصيان في خراسان والأنفصال عن الدولة العباسية فقرر المنصور تعيينه والياً على الشام ومصر وكتب اليه فغضب ابو مسلم وقال: يوليني الشام ومصر وخراسان لي (٣). وقد ضيق المنصور علي ابي مسلم الخراساني الخناق بحيث لم يستطيع ان يفضل غير المجيء اليه فدخل على المنصور واستقبله وبعد ايام دعاه لمقابلته واخذ يعاتبه ويعدد أفعاله السيئة بأقدامه على قتل عدد من نقباء الدعوة العباسية وقتله حوالي ستمائة الف عربي بريء(٤)وادعائه بأنه من ولد سليط بن عبد الله بن العباس وخطبته لامينة بنت علي العباس ، واستبداده بأموال خراسان واغتصابه من معسكر عمه عبد الله بن علي العباس من اموال وسلاح (٥) وتحريض عيسى بن موسى على الثورة وطلب الخلافة ، وتقديم اسمه على اسم الخليفة في

---

(١) الطبري : تاريخ جـ٩ ص ١٦٧ ، الذهبي : دول الاسلام جـ٥ ص٢١٨ .

(٢) الجومرد : المنصور داهية العرب ص١١٧ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ العبر جـ٣ ص٤٨٨ .

(٤) الذهبي : تاريخ دول الاسلام جـ٥ ص٢١٨

(٥) مجهول : العيون والحدائق ص٢١١ .

المراسلات (١) وتقدمه على ابي جعفر المنصور في طريق الحج(٢)وتأخره في بيعة ابي جعفر المنصور ، وعاتبه أخيراً: في محاولته الخروج الى خراسان رغم استدعاء الخليفة له وقال له :

لقد ارتقيت لا أم لك مرتقاً صعباً ....ثم قال له : قتلني الله بسيف الهدى ان لم اقتلك فقتله وكان ذلك في شعبان سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة. (٣)

لقد ظهرت بعد مقتل ابي مسلم الخراساني حركات فارسية سياسية ودينية رفعت شعار الثأر لمقتل ابي مسلم واتخذته كمبرر لها للخروج على الخلافة العباسية علنا واتخذت اتجاهين متلازمين وهما: الأتجاه السياسي (العنصري) والأتجاه الديني (الزندقة) وسعت لتحقيق هذين الأتجاهين بحسب طبيعة المرحلة التأريخية التي عاشتها الحركات نفسها.فأتخذت اول الأمر الطابع السلمي السري وبقيت كذلك حتى مقتل أبي مسلم الخراساني واتجهت بعدها اتجاهاً مسلحاً لضرب الدولة العربية والدين الأسلامي ، وذلك بالدعوة الى العودة بالدولة الفارسية والدين المجوسي ومن هذه الحركات: الراوندية، المقنعية، السنباذية . حركة استاذ سيز ، حركة اسحاق الترك حركة بابك الخرمي وحركتي الافشين والمازيار والتي سنتناولهما اجمالا .

تعتبر الراوندية اولى الحركات السياسية الفارسية في العصر العباسي وظهرت كرد فعل لمقتل ابي مسلم الخراساني، وكانت اراؤها مزيجاً من الشعوبية والمجوسية واظهرت مدى اخلاصها لابي مسلم الخراساني ،ورأت الراوندية وصولا للانتقام من المنصور اضفاء صفة الالوهية عليه،فزعموا في الظاهر ان الخليفة المنصور هوربهم الذي يطعمهم ويسقيهم وان جماعة منهم أخذوا يطوفون حول قصره ويقولون: هذا قصر ربنا (٤) . وانهم بهذه الدعوة قد اتخذ واستار ليخفوا به غرضهم الأصلي هو القيام بأغتياله للاخذ بثأر ابي مسلم (٥) .

---

(١) الصابئي : رسوم دار الخلافة ص١٠٤ .
(٢) ابن خلدون : تاريخ العبر ج٣ ص٤٨٨ .
(٣) الطبري : تاريخ ج٩ ص٤٨٩-٤٩٣ .
(٤) مجهول العيون والحدائق ج٣ ص٢٢٧ .
(٥) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية للدولة العربية ص١٨٥ .

وبعد فشل الحركة الراوندية ظهرت حركات فارسية اخرى مكملة لها تحمل في طياتها نفس الأهداف والغايات في عودة مجد الفرس السياسي والديني منها: حركة سنباذ.

كان سنباذ(١) من اتباع ابي مسلم الخراساني ومن خاصته ولذلك كان خروجه غضباً لمقتله وطلباً بثأره. ودعى الى القضاء على السلطان العربي والدين الأسلامي فكثر اتباعه وكان عامتهم من اهل الجبال، وقد اشار اليعقوبي الى ذلك بقوله وخرج قوم من اصحاب ابي مسلم الى خراسان فصاروا الى سنباذ وسنباذ بنيسابور، فلما بلغه قتل ابي مسلم اظهر المعصية وخرج يطلب بدمه حتى اضطربت خراسان والجبال (٢).

ويوضح المسعودي العلاقة بين مقتل ابي مسلم وحركة سنباذ فيقول: لما نمي قتل ابي مسلم الى خراسان وغيرها من الجبال اضطربت الخرمية (٣) والتي تدعى المسلمية الذين يقولون: بأمامة ابي مسلم فأجتمعت في معسكر عظيم من بلاد خراسان الى الري وقبض على ماكان بالري من خزائن ابي مسلم فكبر جمعه بمن حوله (٤)

دعا سنباذ الى تعاليم مزدك في الحلول والرجعة، وزعم ان ابا مسلم لم يمت وان جبريل نزل عليه، ولما هدده المنصور دعا اسم الله الا عظم وتحول الى حمامة بيضاء وطار (٥) وتزعم سنباذ الخرمية والغلاة واتباع مزدك. وكان يبشر اصحابه بنهاية السلطان العربي واعلن انه سيذهب لهدم الكعبة، وطلب أتباعه التوجه الى الشمس بالصلاة بدل الكعبة فأرسل اليه المنصور جيشاً بقيادة جهور بن مرار العجلي فقتله وفرق جمعه. (٦)

وظهرت حركة اسحق الترك في بلاد ماوراء النهر والتف حوله عدد كبير من الأتراك مما لقب بـ(اسحق الترك) وذلك بعد مقتل ابي مسلم سنة ١٣٧هـ واستمرت حتى سنة ١٤٠هـ

---

(١) سنباذ: كان سنباذ مجوسياً من قرى نيسابور يقال لها (اهن) الطبري جـ٦ ص١٤٠

(٢) اليعقوبي تاريخ جـ ٣ ص ١٠٤ ، الطبري جـ ٦ ص ١٦٩ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ٢ ص٢٢٠ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص٣٢٤ البيروني : الآثار الباقية ص٢١٠ .

(٥) الليثي : الزندقة والشعوبية ص١١٣ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص١٠٦ .

وقد دعى الى تطبيق عقائد المجوسية القديمة فنادى بمبادىء زاردشت وزعم انه نبي انفذه زرداشت وان زرادشت حي لم يمت، وانه يخرج حتى يقيم لهم هذا الدين (١) ويبدو من تعاليمه انها استمرار لمبادىء سنباذ فقد زعم أن ابا مسلم لم يمت وانه لايزال حياً في جبال الري وانه سوف يخرج في وقت يعرفونه (٢) ليقود اتباعه ويحقق امالهم في القضاء على الأسلام والعروبة .

وقد انتهت حركة اسحق الترك بمقتله على يد والي خراسان خالد الذهلي فأنتشر اتباعه في مناطق مختلفة في ضواحي بلخ وغيرها واستمرت اراءه حتى خلافه المهدي .

وقامت حركة استاذ سيز في خراسان عام ١٥٠هـ واستطاع ان يكتل كل الفئات والنزعات الفارسية الحاقدة على الدولة العباسية كرد فعل للفشل الذي اصاب الحركات الفارسية، وللتعبير عن نزعتهم الشعوبية الحاقدة على العرب

أدعى استاذ سيز النبوة ، وقد تبنت حركته المبادىء المجوسية التي تدعو الى الأباحية والفوضى الأخلاقية .

وقد اختار المنصور لمقاومته ابنه المهدي الذي عسكر في الري واتبعه بأحسن قواده : خازم بن خزيمة التميمي، واستطاع تحقيق النصر وقبض عليه واوثقه بالحديد وكان ذلك سنة ١٥١هـ (٣) وارسله الى المهدي الذي ارسله بدوره الى المنصور حيث قتل ببغداد سنة ١٥١هـ .

وظهرت حركة المقنع في خلافة المهدي واستمرت بين عامي (١٥٩–١٦٣هـ) وهي حلقة أخرى من سلسلة الحلقات المجوسية والشعوبية وكان خروجه طالباً أيضاً الثأر لمقتل ابي مسلم، وانه كان يعتنق في بداية الأمر مذهب (الرزامية) وهؤلاء ظهروا بخراسان في ايام ابي مسلم حتى قيل: ان ابا مسلم كان على هذا المذهب لأنهم ساقوا الأمامة اليه

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص٣٤٥

(٢) المصدر السابق : ص٣٤٤ .

(٣) الطبري : جـ٩ ص٢٨٧ ، ابن الاثير جـ٥ ص٢١٩ ، اليعقوبي جـ٣ ص١١٥ .

فقالوا: له حظ في الأمامة، وادعوا حلول روح الاله فيه، وبعد مقتل ابي مسلم زعم المقنع انه حي وان المجوس تنتظر عودته لأنه احد خلفاء زرادشت (١) .

كما واعلن المقنع نفسه الهاً وكان يكتب لاتباعه (اعلموا ان الملك لي ولي النبوة والربوبية ولا اله غيري) (٢) .

وادعى بأحياء الموتى ،وعلم الغيب (٣) وانه تجسد وليس لأحد ان ينظر اليه قبل التجسيد (٤). ومن تعاليمه الدينية : انه استقط عن اتباعه الصلاة والصيام والزكاة وطالبهم بالسجود له ، واباح لهم النساء كيفما شأوا (٥) فأنتشرت الأباحية والفوضى الأخلاقية فتصدى له الخليفة المهدي واستقر في خراسان لمراقبة الموقف وتوجيه الجيوش واسند قيادتها الى سعيد الحرشي الذي فرض الحصار على المقنع مما اضطر قائد المقنع الى فتح باب القلعة وتسليم نفسه، وايقن المقنع بالهلاك فجمع نساءه واهله وسقاهم السم فأتى عليهم جميعاً واحرقهم بالنار وكل مافي القلعة ثم قال : من احب ان يرتفع معي الى السماء فيلقي نفسه معي في هذا النار(٦) وذلك في سنة ١٧٦هـ .

وكان من اخطر الحركات الفارسية المسلحة التي ظهرت في العصر العباسي حركة (بابك الخرمي) وحركتي (الأفشين والمازيار) والواقع انهما كانتا حركتين مسلحتين متممتين ومكملتين كل للاخرى لأنهما متشابهتان في الهدف والغاية والعقيدة فكانتا ترميان الى بعث العقائد المجوسية واقامة دولة فارسية جديدة .

(١) وسمي بالمقنع لا نه كان اعور اصلع فأراد اخفاء قبح وجهه وضع له قناعاً من ذهب وزعم انه لا يستطيع الكشف عن وجهه لان الناس لايستطيعون تحمل نوره الذي يعمي الابصار . (البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٧) .

(٢) البيروني : الآثار الباقية ص٢١١ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص١٢٦ .

(٤) البيروني : الآثار الباقية ص٢١١ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص٤٥٣ .

(٦) ابن الاثير : الكامل ج٩ ص٧٢ .

تعود جذور مباديء الحركة البابكية الى المزدكية التي تقول: بالنور والظلمة وتدعوا الى شيوعية فوضوية اباحية، وذلك باباحة النساء والأموال، وبعد مقتل بابك تولت زوجته (خرما) نشر تعاليمه الاباحية واصبح اتباعها يسمون بأسمها وظلت هذه الجماعة تمارس. عقائدها وشعائرها بحرية تامة في جبل البدين بناحية اذربيجان لبعدهاعن مركز الخلافة العباسية .

فظهر بابك واعاد تنظيم الخرمية بشكل يتفق وتعاليم مزدك .وقد اختلف فيه وفي اهداف حركته وقيل: ان حركته هي استمرار لحركتي الراوندية والمقنعة (١) ويرى نظام الملك في (سياسة نامة) ان اهداف ومباديء الحركة البابكية كانت ترمي الى رفض جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة واباحوا لانفسهم شرب الخمر والمحرمات ومشاعية النساء، وهي كلها تعاليم مزدك، وقد بذل هؤلاء كل مايستطيعون من جهد للقضاء على الأسلام .

وللبابكية في جبلهم (البدين بناحية اذربيجان) ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمور والزمر وتختلط فيها رجالهم ونساءهم فاذا اطفئت سرجهم ونيرانهم احتمى بها الرجال والنساء . (٢)

وقد تعاظمت الحركة البابكية واصبحت تشكل خطر على الأسلام والدولة العباسية وحالف بابك العدو اللدود للدولة العباسية، وهم البيزنطيون فيعهد ملكهم نيوفينوس ميخائيل فتعاهد الأثنان على مهاجمة الحدود الأسلامية وفساد قراها وتخريبها . (٣)

وقد انضوى ايضاً تحت لواء حركته من بقي من الفرس على دينه، ومن الشعوبيين الحاقدين على العرب والأسلام، وكذلك قطاع الطرق واللصوص والدعار وارباب النحل الاباحية فتكون من هؤلاء جميعاً قوة كبيرة، واستخدم اساليب الأرهاب والتمثيل الوحشي بالرجال والنساء والصبيان ودمر المدن والقرى التي استولى عليها . (٤)

(١) الليثي : الزندقة والشعوبية ص١٣٥ .
(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٦١ .
(٣) امير علي : مختصر تاريخ العرب ص٢٣٤ .
(٤) المقدسي : البدء والتاريخ ج٦ ص١١٥-١١٦ .

ولم تكن حركة المازيار والأفشين اقل خطورة على الدولة العباسية والدين الأسلامي من حركة بابك الخرمي والحركات التي سبقته ، فقد شغلت هذه الحركات الخلفاء مايزيد على عشرين عاماً تكبدت الدولة الخسائر الجسيمة في الأرواح والأموال فضلا عن التدمير الذي اصاب البلاد من جراء الحروب الطويلة .

لقد قامت هذه الحركة على المبادىء نفسها والأهداف التي قامت عليها حركة بابك الخرمي فهي تستند الى تعاليم مزدك الأباحية .

ويروى البغدادي عن اصول عقائد المازيار قوله (ينسبون أصل دينهم الى امير كان لهم اسمه شروين وكان اباه من الزنج وامه من بنات ملوك الفرس ويزعمون ان شروين كان افضل من محمد (ص) ومن سائر الأنبياء....فهم لايصلون في السر ،ولايصومون في رمضان ،ولايرون جهاد الكفرة (١) ولما قامت الحرب مع بابك الخرمي وانشغل الخليفة المعتصم بقتاله ، استغل المازيار هذه الفرصة واتفق مع الأفشين ليعمل الثلاثة (بابك والمازيار والأفشين) للقضاء والتخلص من الأسلام، ولم تتح الظروف للمازيار بالتحالف العسكري مع بابك رغم اتصاله به لعدم أكتمال استعداداته واستطاعت عيون المعتصم ان تكشف التعاون السري بين المازيار وبابك ، كما علم المعتصم بتعاون قائده الأفشين سراً مع المازيار وانه يرسل سراً الاموال والأسلحة والمتاع الى مدينة اشروستة لتكون له عدة في تمرده ،فعلم المعتصم بنوايا الأفشين وأثر كتمان الأمر حتى ينتهي من القضاء على حركة بابك الخرمي .

ولما فرغ المعتصم من حركة بابك الخرمي بدأ بالمازيار بأن طلب منه تسليم اموال الخراج الى عبد الله بن طاهر امير خراسان. فعزم المازيار على الخروج على الدولة والعصيان ، فدعا الناس الى بيعته فبايعوه كرهاً، واخذ منهم الرهائن وحبسهم في برج الأصبهبذ وأمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب اموالهم (٢) فكثرت امواله وعساكره ،ورأى المعتصم ان يستأصل هذا الشر الذي استفحل ، فوضع المعتصم وقواده خطة القضاء فكسبوا قارن بن شهريار ابن أخ المازيار الى صفوفهم ،وتعاون خوهيار

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٦٩ .
(٢) الطبري : ج٩ ص٣٩٢ .

بن عم المازيار مع العباسيين واطلعهم على خطة التعاون بين المازيار والأفشين وكشف الكتب التي بعث بها الأفشين الى المازيار على امل احياء الدين المجوسي القديم (١). فقبض أخيراً على المازيار وجيء به الى العاصمة سامراء، وقبل وصوله امر المعتصم بالقبض على الأفشين وافتضحت الخطط التي وضعها الأفشين ورجاله للهروب من سامراء، او بالتخلص من الخليفة وقواده بالسم ، افتضحها احد قواد الأفشين (واجن الأشروسني) وسجـن الأفشين واتباعه. (٢) واجريت محاكمته بحضور الخليفة والوزير ابن الزيات والقاضي أحمد بن ابي دواد فأقر الأفشين انه بعثه (المازيار) على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس (٣).

ان هذه الأحداث الخطيرة التي ظهرت في العصر العباسي الأول كادت تعصف بالدولة لولا ان نعم هذا العصر بمجيء خلفاء كانوا على جانب كبير من المقدرة السياسية والعسكرية بحيث لم يستطع الفرس تحقيق مطامعهم العنصرية والمجوسية من خلال حركاتهم المتعددة اذ استطاع هؤلاء الخلفاء من ضرب حركاتهم بعنف وبهذه السياسة حافظ الخلفاء العباسيون الأوائل على عظمة الأسلام وديمومة الدولة العربية الأسلامية.

٤. « حركات الزندقة والشعوبية ودورها التخريبي للفكر الأسلامي»

لقد وجدت العناصر الفارسية ان حركاتهم السياسية والعسكرية المسلحة لم تجد نفعاً، فألتجأت الى هدم المجتمع الأسلامي . وقد رأى دعاة هذه الحركات ان يتجنبوا الأخطاء التي واجهت زعماء الحركات السياسية والعسكرية التي أشرنا اليها ، وذلك باحياء الديانات المجوسية ، وتحطيم السياج الديني الذي فرضه الأسلام بنشر تعاليم فاسدة ، ونشر الشكوك حول الأسلام بين من اسلم حديثاً وبين الجهلاء والبسطاء من المسلمين (٤). وقد اطلق في التاريخ الأسلامي على هذه الحركة بـ (الزندقة) وعلى دعاتها اسم (الزنادقة)

---

(١) المصدر السابق والصفحة .
(٢) مسكويه : تجارب الامم ج٩ ص٥١٨ .
(٣) اليعقوبي : تاريخ الأمم ج٣ ص٢٠٣ .
(٤) عبدالله سلوم : الفرق الغالية في الدولة العباسية ص٧٠ .

والزندقة : حركة تبشير بالمبادىء المجوسية (الزرادشتية والمانوية والمزدوكية) ويتجلى خطرها بتظاهرها بالاسلام ، وهي في الواقع تعمل على نسف الأسلام من الداخل بالتشكيك في عقائده ومثله العليا وبالعمل على افساد المجتمع الأسلامي عن طريق تفسخ الأخلاق ، والتحلل الأجتماعي والأنحراف بالسلوك الأنساني فقد اعلنت الزندقة عن معارضتهـا للاسلام وهدفت الى هدمه واعتمدت اسسا فكرية مناقضة له . (١) .

ويرجع تاريخ ظهور الزندقة في العصور الأسلامية الى اواخر العصر الأموي وقد كان عبدالصمد بن عبدالأعلى والجعد بن درهم من طلائع دعاة المانوية بأسم الزندقة . (٢) كما ان ابرز دعاة الزندقة الذين ظهروا في الدولة العباسية وعاشوا في عصر الدولة الأموية منهم حماد الراوية، حماد عجرد وحماد الزبرقان وتجمع المصادر القديمة على اتهامهم بالزندقة والمجون والخلاعة (٣) وقد كان لابن المقفع دور خطير في تنشيط حركة الزندقة فقال الخليفة المهدي العباسي عنه : ماوجدت كتاب زندقة قط الا واصله ابن المقفع (٤) فقد ترجم كتب ماني ، وابن ديصان ، ومرقيون من الفارسية الى العربية (٥) . ولجأ الزنادقة الى النواحي الفكرية وعملوا على التبشير بالديانة المانوية بصورة سرية واتبعوا من اجل تحقيق ذلك سبيلين : اولهما التأويل في تفسير النصوص الدينية الأسلامية بحيث تخرجها الى مدلولات ومفاهيم مانوية وثانيهما : المزج والصهر بين المذاهب والديانات في بودقـة مانوية لكسب الأخرين من اصحاب الديانات اليها (٦) .

وقد اتخذ الزنادقة شعار لهم : الميل الى المجون والخلاعة والتهتك باسم الظرف وكـان لشعرائهم دور كبير في ذلك ، فقد دعوا الناس ولاسيما الشباب الى التمتع بلذائذ الحياة والى الفجور ، واخذوا يسخرون من المحرمات ومن اشهر هؤلاء ابي نؤاس وبشار بـن برد وظهر في شعرهم الغزل الخليع بالنساء واوصافهن ، و التغزل بالمذكر مما كان اثره

---

(١) الا صفهاني : الاغاني ج٦ ص١٣٢ .

(٢) الا صفهاني : الا غاني ج٤ ص٥٦ ، الجاحظ كتاب الحيوان ج٤ ص٢٠٣ .

(٣) ابي علي القالي : الامالي ج١ ص١٣٤ .

(٤) الا صفهاني : الا غاني ج١٢ ص٨٧ .

(٥) الليثي : الزندقة والشعوبية ص٩٤ .

خطير على الشباب حيث ساقوهم الى حياة التهتك والفجور (١) وتسللوا بين الأتقياء والزهاد لافساد العقيدة الأسلامية ولكي يكسبوا عطفهم وقد جاهر الزنادقة بدعواتهم وكان ابرزهم عبدالكريم بن ابي العوجاء الذي وضع اربعة الاف حديث نسبه للنبي (ص) واعترف بجريمته فقتله المنصور ، ومنهم ايضاً حماد الراوية وبشار بن برد ومسلم الخاسر وصالح بن عبدالقدوس الذين دسوا معاني الزندقة في الأشعار ويونس بن ابي فروة الذي الف كتابا في (مثالب العرب) وقد اتخذ هؤلاء العلم وسيلة لنشر مبادىء الزندقة ؛ وقد دانوا بالاسلام تقية وتوسلا الى اضلال الناس (٢) .

واسهمت بعض العناصر الفارسية التي تبوأت بعض المراكز المهمة في الدولة العباسية؛ كالوزارة في تشجيع حركة الزندقة وغض النظر عن اساليبهم في هدم المجتمع الأسلامي فقيل : ان البرامكة بأسرها الا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة (٣) . وقد وصفهم الجاحظ (٤) وصفاً دقيقاً بقوله(والناشيء منهم اذا حفظ من الكلام فتيقه ومن العلم ملحه ، روى لبزر جمهر امثاله ولاردشير عهده ولعبدالحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه وصير كتاب مزدك معدن علمه ،ودفتر كليلة ودمنه كنز حكمته..فيكون اول بدئه الطعن على القرآن في تأليفه والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الأثار ، فان استرجع احد اصحاب الرسول فتل عند ذكرهم شدقة ولوى عن محاسنهم كشحة .... ثم يقطع ذلك مجلسه بسياسة وتدبير انوشروان واستقامة البلاد لال ساسان : فأن حذر العيون وتفقده المسلمون رجع بذكر السنن الى المعقول . ومحكم القرآن الى المنسوخ ونفي مالايدرك بالعيان لايرتضي من الكتب الا المنطق ، هذا هو المشهور من افعالهم والموصوف من اخلاقهم) وقد حاول الخلفاء العباسيون الحد من نشاط انتشار الزندقـــة بطريقتين :

الأولى: استخدام اسلوب القوة والعنف والسجن ولكنهم وجدوا ان ذلك غير مجد . فسلكوا الطريقة .

(١) عبد الغني : صراع العرب خلال العصور ص٢٩
(٢) ابن النديم : الفهرست ص٤٧٣ .
(٣) المصدر السابق والصفحة .
(٤) الجاحظ : ثلاث رسائل ص١٤ .

الثانية : فقد استعانوا بالفقهاء والمتكلمين والعلماء والكتاب للتصدي لهم وللرد عليهم ودحض آرائهم وافتراءاتهم .

لم تكن حركة الزندقة قوية في صدر الدولة العباسية، ولكن هذه الحركة سرعان ما بدأت تنشط منذ عصر المنصور لاسيما بعد مقتل ابي مسلم الخراساني واخذت تقوى وتشتد حتى عصر الخليفة المهدي فقد جاهروا بالحادهم فشعر المهدي بخطرهم مما اضطر الى استخدام العنف للتنكيل بهم والبحث عنهم واوكل امرهم الى رجل سماه (صاحب الزنادقة) فيذكر الطبري: لقد جد المهدي في طلب (الزنادقة) والبحث عنهم في الأفاق وقتلهم وولي، امرهم عمر الكلواذي (١) وقال المسعودي فيه : انه (المهدي) امعن النظر في قتل الملحدين والمداهنين في الدين لظهورهم في ايامه واعلانهم باعتقاداتهم في خلافته (٢)

وقد ترك المهدي لابنه الهادي لكي يتعقبهم فيذكر الطبري (ان المهدي قال لموسى الهادي : (ان صار لك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة — يعني اصحاب ماني — فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن كأجتناب الفواحش ، والزهد في الدنيا ، والعمل للاخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهـــور، وترك قتل الهوام ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين احدهما النور والأخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح ، الأخوات والبنات والأغتسال بالبول . وسرقة الأطفال من الطريق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور ، فارفع فيهم الخشب وجرد فيهم السيف ، وتقرب بأمرها الى الله لاشريك له فأني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وامرني بقتل اصحاب الإثنين(٣)

ولم تكن سياسة الرشيد اقل عنفاً ازاء الزنادقة من سياسة اخيه وابيه فقد اراد البرامكة اظهار الزندقة وفساد الملك فاوقع بهم الرشيد فقتلهم ويؤكد المستشرق براون هذه الحقيقة بقوله : ان حادثة ايوان كسرى ومحاولة يحيى البرمكي تأجيل النوروز ليدلان على ان البرامكة كانوا لايزالون يضمرون المجوسية . (٤) .

(١) الطبري : تاريخ جـ١٠ ص٩ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ٢ ص٤٠١ .
(٣) الطبري : تاريخ جـ١٠ ص١٤
(٤) Brown: History of Persia; 259

ولم يكن المأمون اقل حزماً من ابيه تجاه الزنادقة ، واستعان المأمون بالمعتزلة في مجابهة حركة الزندقة واستخدموا اسلوب المناظرة والأرشاد والرد عليهم بتأليف الكتب والرسائل لدحض حججهم واكاذيبهم بالمنطق والبرهان . (١) .

كما انبرى لهم الفقهاء والعلماء والادباء والكتاب للرد عليهم وتفنيد آرائهم الضالة وكون المأمون هيئة علمية تضم الفقهاء والعلماء واهل الكلام لمناظرة من يقع في يدهم من الزنادقة وفي تفنيد كتبهم وجعل رئاستها إلى القاضي يحيى بن اكثم ، ونبغ في البصرة ابو الهذيل العلاف الذي كان موضع تقدير المأمون وكان مطلعاً على اساليب الزنادقة وخدعهم الملتوية(٢).

وفي عهد المعتصم اتخذ الزنادقة من الاطراف الشرقية للدولة العباسية مقراً لتجمعهم واتخذوا اسلوب العصيان المسلح والحرب وسيلة للعودة بالمجوسية إلى سابق عهدها وسلطانها تمثلت في حركة بابك الخرمي وحركتي المازيار والافشين ، وقبض المعتصم بعد حرب طويلة على هؤلاء الثلاثة وحكم عليهم بالموت جزاء كفرهم وخيانتهم .

وقد تابع الخليفة المتوكل ومن جاء بعده من الخلفاء العباسيين مقاومة الزنادقة بطريقة العنف والاقناع والرد على آرائهم واباطيلهم .

لقد ظهر إلى جانب حركة الزندقة حركة اخرى متممة لها في الاهداف والغايات وهي : (الحركة الشعوبية) وهي حركة سياسية عنصرية ثقافية ظاهرها المطالبة بنزعة المساواة معتمدة في الظاهر على آيات من القرآن الكريم (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وعلى احاديث نبوية (ليس لعربي على اعجمي فضل الا بالتقوى) وكان باطن هذه الحركة ازالة السلطان العربي والدين الاسلامي الذي هو عامل وحدة العرب وسلطانهم معتقدين انهم بهذه الوسائل يمكنهم الوصول إلى مآربهم العنصرية دون ان يثيروا حولهم الريبة والشكوك ، بدأت الحركة الشعوبية كحركة الزندقة في اواخر العصر الاموي ، واندفعت بقوة في العصر العباسي الاول بدافع عنصري.

ولم تكن الشعوبية حركة واحدة منظمة لانها لم تكن تمثل عقيدة محدودة الاراء والمبادىء وانما هي نزعة عدائية لا يمكن حصر معتنقيها فهم من اقوام عدة وديانات مختلفة

(١) أحمد امين : فجر الاسلام ص١٣٦ .

(٢) العدوى : المجتمع العربي ص٢١٧ .

ومستويات اجتماعية متباينة(١) الا ان اكثرهم من الفرس ومن ابرز شروطها الكراهية للعرب والطعن على حضارتهم والعمل على هدم سلطانهم والاشادة بشعب اخر على حساب العرب (٢) .

وقد اتخذت الشعوبية اتجاهات متعددة منها سياسية ، بالدعوة إلى ازالة السلطان العربي واحياء مجد الدولة الساسانية عن طريق اضعاف الدولة بتشجيع الحركات الثورية .

لقد احتضنت البرامكة مشاهير الشعوبيين امثال علان الوراق الذي الف اكثر من كتاب في ذم العرب وكان منقطعاً إلى البرامكة ، وكذلك سهل بن هارون الذي الف في ذم العرب اكثر من رسالة كما كان حميد بن مهران وسعيد بن وهب يلقون رعايتهم واهتمامهم (٣). وإلى جانب هذه المواقف فان البرامكة كانوا يعدون العدة اضرب السلطان العربي بالاستيلاء على الحكم فقد اعد الفضل بن يحيى البرمكي ابان ولايته على خراسان (جيش العباسية) الكبير العدد من الفرس وليس فيهم عربي واحد (٤) .

وقد اقتفى اثار سياسة البرامكة الفضل بن سهل وزير المأمون في تكتيل العناصر الفارسية وابعاد العرب عن المناصب الخطيرة في الدولة تمهيداً لتحويلها فارسية مجوسية ، وقد وضح نعيم بن خازم سياسة الفضل بن سهل الشعوبية حينما استشاره المأمون في أمر البيعة لعلي الرضا قائلا : انك انما تريد ان تزيل الملك عن بني العباس إلى آل علي ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسروياً (٥)،واتجهت الشعوبية إلى الهجوم على الاسلام ، والحط من القرآن الكريم فالاعاجم الذي يصعب على اكثرهم ان يتفهموا القرآن ويتدبروه قالوا فيه : انه غير منظم ولا مبوب ، وانه محتذى ومنقول ، وانه زيف مدخول ، وانه غير بليغ ولا فصيح وبلغت الوقاحة ببعضهم ان قالوا : ان فيه اغلاطاً نحوية وركاكات بيانية (٦) .

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ج١ ص٥٩ .
(٢) عبدالله سلوم : الشعوبية ص١٢١ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ص١٦٠ .
(٤) الطبري : تاريخ ج١٠ ص٦٣ .
(٥) الجهشياري : ص٢١٣ .
(٦) الجاحظ : ثلاث رسائل ص٤٢ .

كما حاولت الشعوبية الكذب على رسول الله بوضع الاحاديث الملفقة والمزيفة وعبر ابن الاثير على عملهم هذا بقوله (فلما يئس اعداء الاسلام من استئصاله بالقوة اخذوا في وضع الاحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول في دينهم وافسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه فكان اول من فعل ذلك ابو الخطاب محمد بن ابي زينب مولى بني اسد وابو شاكر ميمون بن ديصان صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة . (١) ومن الذين وضعوا المكذوبة عبد الكريم بن ابي العوجاء الذي اعلن قبل قتله (لئن قتلتموني لقد وضعت في احاديثكم اربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة) (٢) .

واسفرت الشعوبية عن وجهها القبيح بالدعوة الى تمجيد الفرس وتحقير العرب والطعن على الحضارة العربية التي ازدهرت بالاسلام .

وبذل الكتاب والادباء الفرس كل سبيل لنشر الثقافة الفارسية وتقليل شأن الثقافة العربية واتخذوا في ذلك سبلاً عدة منها، ترجمة الكتب الفارسية في موضوعات الادب والتاريخ والدين والعادات والتقاليد والنظم فترجموا (خدابنامة) او سير ملوك الفرس وكتاب (آيين نامه) أو المراسيم والتقاليد الساسانية وترجموا كتاب (مزدك) ويتضمن عقائد المجوسية ترجمة ابن المقفع كما ترجم كتاب (التاج) في سيرة انو شروان وكتاب (كليلة ودمنة) واضاف اليه باب للتزويج للمانوية (٣) وترجم كتاب (اختيار نامة) او سير الفرس نقله اسحق بن يزيد (٤) كما ترجمت كثير من الكتب المجوسية : الى العربية والتي اشار اليها ابن النديم والمسعودي (٥) والفوا الكتب الكثيرة في مناقب العجم ، وابرزوا فيها مثالب العرب ومن هذه الكتب انتصاف العجم من العرب) وكتاب (فضل العجم على العرب وافتخارها) (٦) ومن الكتب التي وضعوها لاظهار مثالب العرب كتاب (المثالب الكبير)

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ٨ ص٢١ .

(٢) المرتضى : امالي المرتضى جـ١ ص١٢٨ .

(٣) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ص٦٦ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص١٧٢ ، ص٢٣٢ ، ص٣٤٢ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ص١٧٤ ، ٢٣٢ ، المسعودي : مروج الذهب : جـ٣ ص٣٩٢ طبع باريس .

(٦) ابن النديم : الفهرست ص١٢٣ .

وكتاب (مثالب ربيعة) وألف سهل بن هارون رسالة في البخل اعتبر فيها الكرم مذمـــة والبخل فضيلة (١) .

وهاجمت الشعوبية اللغة العربية والتاريخ العربي لانهم يدركون انهما اساس الثقافة العربية وان اللغة العربية ليست فقط لغة العلم و الادب والثقافة وانما هي لغة الدين والسياسة وقد اتهموها بالعجز في المفردات والالفاظ والتعابير والمعاني وكذلك عابوا على العرب حتى آلآتهم الحربية فسخروا من سيوفهم ورماحهم ومن عدى خيولهم وأبلهم ومن قتالهم ومن قلة الخبرة في تنظيم جيوشهم وقارنوا حالة الجيش العربي والجيش الفارسي في تنظيمه وآلاته . وفات على الشعوبية ان هذه المقارنة احقر لشأنهم واوضع لمكانتهم فهؤلاء العرب بآلاتهم البسيطة سحقوا الفرس بآلاتهم الضخمة وجيوشهم المنظمة الكبيرة (٢) ، وقد استمر الموقف الشعوبي العنصري المعادي للعرب على طول فترات التاريخ العربي الطويل ، فقد ساهموا في حركات الانفصال عن الدولة العربية الاسلامية وادى بنتيجتها تجزئة الدولة العربية الى دويلات في وقت كبت فيه الامة العربية لشراسة اعداءها وتعددهم.

٥ ــ البويهيون ودورهم في اضعاف الدولة وتمزيق وحدة المجتمع الأسلامي

ينتسب البويهيون الى الديلم وهي تسمية جغرافية في بلاد جيلان جنوب بحر قزوين وهي تسمية جنسية لمن سكن هذه الأصقاع ، وبنوا بويه هم فرس نسبوا الى لديلم حيث طال مقامهم ببلاد الديلم (٣) وابن الجوزي يرجع نسبهم الى سلالة سابور ذي الأكتاف (٤) وينسبهم ابن خلدون الى بهرام جور (٥) ويقول صاحب الفخري ان بويه كان صياد السمك واولاده يحتطبون الحطب (٦)

---

(١) المصدر السابق : ص١٩٤ ؛ ياقوت معجم الا دباء جـ١٢ ص٢٢٦ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٣ ص١٤ .
(٣) ابن طباطبا : الفخري ص٢٢٤ ، ابن الاثير جـ٨ ص٩٧ ، دائرة المعارف الاسلامية (مادة ديلم) .
(٤) ابن الجوزي : المنتظم جـ٦ ص٢٧٠ .
(٥) ابن خلدون : العبر جـ٣ ص٨٢٦ .
(٦) ابن طباطبا : الفخري ص٢٢٤ .

ولما توسعت حركة التحرير العربي الأسلامي في خلافة عمر بن الخطاب كانت بلاد الديلم جزءاً من الدولة الأسلامية وترك لهم التمتع بحريتهم الدينية فأسلم بعضهم واحتفظ قسم منهم بوثنيتهم وبالديانة الزرادشتية واسلم بويه واولاده وارتفع امرهم حتى دخلوا بغداد سنة ٣٣٤هـ. وقد صحب مجيء البويهيين تدهور سياسي في الدولة العباسية ، وذلك بسبب سيادة الأتجاه العسكري في مؤسسات الدولة، وظهور بعض الأوضاع الجديدة التي جعلت الخلافة العباسية في وضع اسوأ مما كانت عليه سابقاً، فقد أثار البويهيون الصراع الطائفي بين المسلمين ،وقد واجهت البلاد من جراء سياستهم الويلات والحروب الأهلية نتيجة انتشار الفوضى السياسية والدينية والأجتماعية وصحب ذلك من انتعاش النزعة العنصرية واتبع البويهيون اساليب فرض الضرائب الباهضة واساليب مصادرة اموال الرعية حتى شملت الطبقات الفقيرة بقصد استغلال الأموال فأشتدت وطأة هذه السياسة على الشعب مما أدى الى اضطراب الأحوال الأقتصادية والأمن الداخلي وقد وصف التوحيدي: حالة العراق في عهدهم بقوله: انه بيت الفتن والغلاء وهو في كل يوم الى الوراء ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء (١).

وقد وصف البيروني حالة الخلافة العباسية بهذه العبارة (ان الدولة والملك قد انتقل في أخر ايام المتقي واول المستكفي من آل العباس الى آل بويه والذي بقي في ايدي العباسيين انما هو أمر ديني اعتقادي لاملك دنيوي. (٢)

واستأثر آل بويه بأموال بيت المال وسيطروا على المكوس واقطعوا قوادهم واصحابهم القطائع فبطلت الدواوين، واختلف حال القرى في العمارة فعظم الخراب وما تبعه من الغلاء والنهب وازدياد الظلم ومصادرة الرعية والحيف في الجباية ، واهمال النظر في وسائل الري كالترع والقنوات والقناطر...... .

وكان من أثار سياسة معز الدولة البويهي الطائفية ان وقعت الفتن والحروب الأهلية ففي سنة ٣٣٨هـ وقعت فتنة ببغداد ونهبت الكرخ، واستمرت الفتن المذهبية بعدها في السنوات

---

(١) ابو حيان التوحيدي : مثالب الوزيرين ص٣-٥

(٢) البيروني : الآثار الباقية ص١٣١ .

٣٣٩هـ، ٣٤٠هـ، ٣٤٦هـ، ٣٤٨هـ ذاق اهل العراق الويلات وفي سنة ٣٥٢هـ امر معز الدولة في المحرم ان تغلق الأسواق وان يلبس النساء المسموح من الشعر، وان يخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوههن ناشرات شعورهن يلطمن وجوههن. (١)

وفي الوقت نفسه كان (الدمستق) ملك الروم يعوث فساد في دار الأسلام، ففي سنة ٣٥٣هـ تقدم الدمستق يهاجم البلاد الأسلامية بلدة بعد بلدة فهاجم المصيصة واذنه وطرسوس في حين كان معز الدولة متجهاً لغزو الموصل وجزيرة ابن عمر ويقاتل آل حمدان للكسب وللحصول على الأموال من بلاد المسلين (٢).

خلف معز الدولة ابنة بختيار في السلطة سنة ٣٥٦هـ ولقبه الخليفة المطيع (عز الدولة) وقد سار على سياسة ابيه في اثاره النزعة المذهبية وكان ضعيفاً سيء السيرة أنصرف الى اللهو ومعاشرة النساء وشرب الخمور وجمع الأموال والأقطاعيات في وقت كانت البلاد تكابد الفقر والجوع والأوبئة والحرب وتهدد بلاد المسلمين من الروم ففي سنة ٣٥٨هـ أحرق الروم مدينة حمص وسبوا من المسلمين مائة الف وفي سنة ٣٦٠هـ هاجموا دمشق وفي سنة ٣٦١هـ اغاروا على الجزيرة وديار بكر وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً وساروا يحتلون المدن الأسلامية حتى وصلوا نصيبين (٣).

ومما زاد اضطراب الأمن وانتشار السلب والنهب اشتداد المنافسة بين امراء البيت البويهي وماصحب ذلك من حروب طاحنة بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧هـ وانتهت بمقتل عز الدولة وتملك عضد الدولة العراق (٤) .

ولم يكن عضد الدولة اقل استبداد بالدولة ممن سبقه من امراء بني بويه، واستمرت البلاد تعاني الأضطرابات والفقر بسبب تدهور الدولة ومؤسساتها وانصراف عضد الدولة بالحصول على الأموال والألقاب (٥)

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٢١٣ ، ص٢٢١ ، ص٢٤٣

(٢) نفس المصدر السابق ج١١ ص٢٤٤

(٣) ابن كثير : ج١١ ص٢٦٦-٢٦٧ .

(٤) المصدر السابق : ج٤ ص١٣٩ .

(٥) الذهبي : دول الاسلام ج١ ص١٦٧ .

وكان صمصام الدولة الذي خلف عضد الدولة سيء السيرة فزاد الضرائب على الشعب واستمر في اثارة النزعات الطائفية مما ادى الى اضطراب الأحوال في بغداد، ووقعت فتنة بين الجند الديلم والأتراك مما أدى الى انتصار الأتراك (١).

وفي الفترة الواقعة بين ٤١٣هـ - ٤٤٠هـ توالى آل بويه على كرسي الأمارة وهم سلطان الدولة ومشرف الدولة وعانت البلاد خلال هذه الفترة الأضطرابات وثورات الجند والنهب والسلب وانعدام الأمن وانتشار الفقر والصراعات المذهبية.

وفي امارة الملك الرحيم كاتب الخليفة محمد بن ميكائيل بن سلجوق الملقب(طغرلبك) يستنهضه على السير الى العراق. ووصل طغرلبك بغداد في رمضان سنة ٤٤٧هـ ؛ وقبض طغرلبك على الملك الرحيم آخر أمراء بني بويه وحبسه في قلعة السيروان (٢) وقيل طرحه في بئر فمات (٣).

وفي الختام فقد كان من اثار سياسة الفرس العنصرية ان اضعفت الدولة العباسية وخربت أجهزتها الأدارية والعسكرية والمالية. وشجعت حركات الزندقة والشعوبية والحركات المعارضة للدولة على اقلاق الأمن وانتشار الفوضى والأضطراب؛ وفسحت المجال للروم بالأستيلاد على الثغور والعواصم والمدن العربية؛ كما أعطت الفرصة لبعض الولاة الطامعين بالأنفصال في ولاياتهم عن جسم الدولة العباسية، وادت سياستهم المذهبية هذه الى خلق المنازعات والصراعات بهدف تمزيق وحدة الأمة .

ومن هنا كان حقد الفرس على العرب والأسلام وتولد عنه ظهور تيار شعوبي بكل ماحمله من أبعاد دينية وعنصرية وثقافية ارادوا من خلالها النيل من العرب والأسلام بأسم الأسلام وقد افرز هذا التيار الحاقد موقفاً معادياً للعرب على طول فترات التاريخ العربي الطويل وحتى اليوم .

---

(١) ابو شجاع : ذيل تجارب الامم جـ٣ ص١٣٢ .
(٢) الخطيب : البغدادي : تاريخ بغداد جـ٩ ص٣٩٩ .
(٣) ابن الجوزي : جـ٨ ص١٦٦ .

المصادر والمراجع

١. المصادر :

ابن الاثير : علي بن الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الاثير الجوزي (ت : ٦٣٠هـ).

١ – (الكامل في التاريخ) المطبعة المنيرية – مصر – ١٣٤٩هـ طبع بيروت (دار صادر – بيروت) ١٩٦٥م .

ابن الجوزي : ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت : ٥٩٧هـ)

٢ – (المنتظم في تاريخ الملوك والامم) مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن .

ابن حزم : ابي محمد علي بن حزم الاندلسي (ت : ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)

٣ – (الفصل في الملل والاهواء والنحل) طبع مكتبة المثنى ببغداد والخانكي بمصر .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

٤ – (تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر) المطبعة الباسيلية ، نشر دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٦ .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس احمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

٥ – (وفيات الاعيان) المطبعة الميمنية – القاهرة – ١٣١٠هـ .

ابن كثير : (ابو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

٦ – (البداية والنهاية) طبع مكتبة المعارف ببيروت ومكتبة النصر الرياض . ١٩٦٦م .

ابن النديم : ابن النديم (٣٨٣هـ أو ٣٨٥هـ)

٧ – (الفهرست) سلسلة روائع التراث العربي . نشر مكتبة خياط ، بيروت.

ابو شجاع : الوزير ابن شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين الروذ راوي .

٨ – (ذيل تجارب الامم) بأعتناء امر روز ، مطبعة شركة المدن بمصر ١٩١٩م .

الاصفهاني : الامام ابي الفرج (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦)

٩ — (الاغاني) تصحيح احمد الشنقيطي ، مطبعة التقدم بمصر .

البغدادي : ابن بكر احمد بن علي الخطيب (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)

١٠ — (تاريخ بغداد) دار الكتاب العربي ، بيروت .

البغدادي : ابو المنصور عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)

١١ — (الفرق بين الفرق) طبع مؤسسة نشر الثقافة الاسلامية ، مصر ١٩٤٨م.

البيروني : ابو الريحان محمد بن احمد الخوارزمي (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)

١٢ — (الآثار الباقية) لايبزك ١٩٢٣م .

التوحيدي : ابو حيان

١٣ — (مثالب الوزيرين) مطبعة دار الفكر بدمشق .

الجاحظ : ابو عثمان عمر بن بحر الجاحظ البصري (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)

١٤ — (الحيوان) مطبعة المعارف : مصر .

١٥ — (ثلاث مسائل) بأعتناء فنكل ، القاهرة ١٣٤٤هـ .

١٦ — (البيان والتبيين) . مكتبة المثنى — بغداد ١٩٦٠م .

الجهشياري : محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) .

١٧ — (الوزراء والكتاب) البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٨م .

الدينوري : ابو حنيفة احمد بن داؤد (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) .

١٨ — (الاخبار الطوال) طبع ليدن ١٨٨٨ .

الذهبي : الحافظ شمس الدين (ت ٨٤٨هـ/١٣٤٧م) .

١٩ — (دول الاسلام) مطبعة دائرة المعارف ، حيدر آباد الدكن ١٣٦٤هـ .

الرازي : الامام فخر الدين (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) .

٢٠ — (كتاب الزينة في الكلمات الأسلامية العربية) .

الصابئي : ابو الحسين هلال بن المحسن الصابئي (٤٤٨هـ/١٠٥٦م) .
٢١ – (رسوم دار الخلافة) تحقيق ميخائيل عواد،مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٤م
الطبري : ابي جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)
٢٢ – (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . طبع دار المعارف بمصر ٦٠/١٩٦٣م ومطبعة الحسينية . القاهرة ١٣٢٦هـ .
القالي : ابو علي اسماعيل القاسم البغدادي .
٢٣ – (الامالي) طبع دار الفقه – بيروت .
القزويني : زكريا محمد بن محمود و ت ٦٨٣هـ/١٢٨٣م) .
٢٤ – (آثار البلاد واخبار العباد) طبع دار صادر بيروت للطباعة والنشر . بيروت ١٩٦٠م
مجهول :
٢٥ – (العيون والحدائق) طبع مكتبة المتنبي ببغداد .
المسعودي : ابو الحسن علي بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) .
٢٦ – (التنبيه والاشراف) ليدن – مطبعة بريل – ١٩٦٧ .
٢٧ – (مروج الذهب) . مطبعة دار الرجاء – القاهرة .
مسكويه : ابو علي احمد بن يعقوب (ت ٤٣١هـ/١٠٣٠م) .
٢٨ – (تجارب الامم) طبع مكتبة المتنبي ، بغداد .
المقدسي : المظهر بن طاهر (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) .
٢٩ – (البدء والتاريخ) عني بنشره كلمان هوار . طبع باريس ١٩٠٣ . مطبعة المتنبي – بغداد .
النوبختي :
٣٠ – (فرق الشيعة) طبع النجف ١٩٣٦ .
اليعقوبي : احمد بن يعقوب المعروف بابن واضح الاخباري (٣٨٤)
٣١ – (تاريخ اليعقوبي) مطبعة الغري النجف – العراق

٢ – المراجع

امين : احمد

٣٢ – (فجر الاسلام) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٣ القاهرة ١٩٣٥م.

برانق : محمد احمد

٣٣ – (الوزراء العباسيون) منشورات مطبعة لجنة البيان العربية – مطبعة النموذجية القاهرة ١٩٤٨م .

الجومرد : عبد الجبار .

٣٤ – (داهية العرب المنصور) دار الطليعة – بيروت ١٩٦٣م .

جوهري : طنطاوي

٣٥ – (براءة العباسية) مطبعة البابي الحلبي مصر ١٩٣٦م .

الدوري : عبد العزيز

٣٦ – (العصر العباسي الاول) مطبعة التفيض الاهلية . بغداد ١٩٤٢م .

٣٧ – (الجذور التاريخية الشعوبية) دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٢م .

سرور : محمد جمال الدين

٣٨ – (الحياة السياسية للدولة العربية) نشر دار الفكر العربي ط٣ ، ١٩٦٦م .

سلوم : عبدالله

٣٩ – (الشعوبية حركة مضادة للاسلام والامة العربية) بغداد ، وزارة الاعلام. ١٩٨٠ . (الفرق الغالية في الدولة العباسية) .

عبد الغني : محمد

٤٠ – (صراع العرب خلال العصور) . طبع مؤسسة المطبوعات الحديثة .مصر .

العدوي : ابراهيم

٤١ – (المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية) طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١م .

فلوتن : فان

٤٢ — (السيادة العربية) .

فوزي : فاروق عمر

٤٣ — (العباسيون الاوائل) ج١ طبع دار الارشاد،بيروت ج٢ طبع دار الفكر بيروت .

الليثي : سميرة مختار

٤٤ — (الزندقة والشعوبية وانتصار الاسلام والعروبة عليهما) طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ .

كوك : ريجارد

٤٥ — (بغداد مدينة السلام) مطبعة شفيق — بغداد ١٩٦٢ .

32- Brown: History of persia Literature; London 1909

33- Sourdel: Le, Vizirat Abbasid; Kemas 1960

دراسة لنمط العلاقات الأجتماعية في مجتمع السجن * (١)
بحث ميداني في سجن نينوى

عبدالله مرقس رابي
كلية الآداب / جامعة الموصل

المقدمة :

يرمي البحث الى التعرف على نمط الحياة الأجتماعية في السجن من خلال تسليط الضوء على العلاقات الأجتماعية الموجودة بين السجناء، فأخترنا عدة متغيرات اعتقدنا انها تؤثر ايجاباً اوسلباً في تحديد نمط العلاقات الأجتماعية بين السجناء .

معتمدين على ملاحظتنا الميدانية التي استمرت سنة كاملة كممارسة ميدانية للباحث عايش السجناء طيلة الفترة المذكورة ، فضلا عن مقابلتهم وجمع المعلومات عنهم.

يتكون البحث من فصلين تناولنا في الفصل الأول مدخل نظري عام ، واجراءات البحث وفي الفصل الثاني حاولنا تحليل ومناقشة نتائج البحث مع وضع التوصيات .

الفصل الاول
الاطار المرجعي للبحث
المبحث الاول
مدخل نظري

ظهرت العديد من الدراسات والبحوث والمؤلفات التي تناولت الدوافع المؤدية الى الجريمة. ودراسة الخصائص الشخصية للمجرمين، وبحثت في عملية الأصلاح الأجتماعي والطرق العلمية والعملية في اصلاح المجرمين ونوعية البرامج المحددة للأصلاح في السجون. في حين قلما نرى دراسات تخص البحث في مجتمع السجن ، وما يدور بين افراد هذا المجتمع من تفاعلات وعلاقات، وقلما نرى انها تركز على رؤية السجن كنسق أجتماعي يفرز نظماً وقواعد ومعايير تلعب دوراً خطيراً في اداء السجون لدورها الأصلاحي .

السجن ليس مجتمعاً صغيراً مغلقاً ومؤلفاً من جماعة من السجناء وليس مجرد مكان او مؤسسة للعقاب والتقويم والأصلاح، بل انه مكان وجدت به جماعة من الناس لأفرادها مصالح متضاربة ومتطلبات يجب اشباعها، ويعيشون مدداً مختلفة تمتد الى أكثر من (٢٠سنة) احياناً فيتكون نمط خاص من العلاقات الأجتماعية بهذا المجتمع .

ان كل مؤسسة اجتماعية تتكون من احكام وقوانين تهدف الى تحديد سياستها وتتولى القيام بتحديد سلوك وعلاقات افرادها، فعليه ان دراسة العلاقات الأجتماعية والسلوك هي دراسة نافعة لفهم طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه الشخص (١) كمجتمع السجن الذي يتكون من شبكة العلاقات الأجتماعية التي تربط افراده، والذي يقر القوانين والأنظمة والعادات والتقاليد التي تحدد طبيعة السلوك الأجتماعي ،فالشخص الذي يدخله لأول مرة يتحتم عليه ان يتعرف على ثقافة السجن وطرق السلوك فيه بالحالة نفسها التي يتعرف بها الطفل طرق السلوك مع من يكبرونه سناً، وذلك عن طريق التنشئة الأجتماعية التي تسمى في السجن (التنشئة في السجن) (٢) .

فالتنشئة الأجتماعية هي العملية التي يكتسب الشخص عن طريقها ويستبطن طوال حياته العناصر الأجتماعية الثقافية السائدة في محيطه ويدخلها في بناء شخصيته ذلك بتأثير من التجارب والعوامل الأجتماعية ذات الدلالة والمعنى .ومن هنا يستطيع ان يتكيف مع البيئة الأجتماعية حيث ينبغي عليه ان يعيش (٣) . كذلك الحال عند السجين حيث تلقي العقوبة به في مجتمع خاص هو مجتمع المذنبين حيث يختلف تماماً عن المجتمع الذي كان يعيش فيه سابقاً، ولهذا المجتمع وبحكم طبيعة الأمور مبادؤه وآراؤه وتقاليده (٤) فأنه يكتسب هذه العادات والتقاليد السائده وتصبح جزءاً من حياته داخل السجن لكي يستطيع ان يتكيف مع البيئة الأجتماعية الجديدة وبهذا التفاعل الأجتماعي بين السجناء تظهر العلاقات الأجتماعية الحتمية بينهم تبعاً لظروفهم وبأشكال مختلفة وقد تكون دائمة او مؤقتة ايجابية او سلبية، ولم تكن هذه العلاقات مجرد وسيلة لقضاء وقت الفراغ ، وليست مجرد تسلية بل انها علاقات لها جوانبها الأقتصادية ولها دورها في أكتساب القوة والحماية واشباع الحاجة الأجتماعية للسجناء .

اهمية البحث :

تبرز اهمية البحث بتشخيصه لأبرز معوقات عملية الأصلاح الأجتماعي المتمثلة بالعلاقات الأجتماعية السلبية بين السجناء. ووضع صيغ ملائمة للحد منها لكي تستمر برامج الأصلاح الأجتماعي التي تؤكدها قيادتنا الحكيمة دوما في التعامل مع المذنبين في المجتمع تعاملا انسانياً بأعتبار المجرم انساناً قبل كل شيء ومن الممكن اصلاحه والرجوع به الى المجتمع سليماً وصحيحاً .

الهدف من البحث :

يهدف البحث مايلي :-

١ - تشخيص المتغيرات التي تؤثر ايجاباً في العلاقات الاجتماعية بين السجناء .

٢ - تشخيص المتغيرات التي تؤثر سلباً في طبيعة العلاقات الاجتماعية بين السجناء.

٣ - وضع صيغ ومقترحات تخص عملية تجاوز المتغيرات السلبية في مجتمع السجن

المبحث الثاني
اجراءآت البحث ومنهجيته

١ - تحديد المفاهيم: فيما يلي اهم المفاهيم التي ترد في البحث وتستخدم لاغراض ومتطلبات البحث فقط .

(أ) الجريمة Crime: تعني الجريمة اجتماعياً بانها سلوك لا اجتماعي يكون موجهاً ضد مصالح المجتمع ككل . او هي انتهاك وخرق للقواعد والمعايير الاخلاقية للجماعة(٥) اما سايكولوجيا فتعني الجريمة اشباعاً لغريزة انسانية بطريق شاذ لا ينتهجه الرجل العادي في ارضاء الغريزة نفسها وذلك لخلل كمي او شذوذ كيفي في هذه الغريزة مصحوباً بعلة او اكثر في الصحة النفسية وصادفه وقت ارتكاب الجريمة انهيار في الغرائز السامية والخشية من العقاب (٦) .

(ب) المجرم Crimnal : هو الشخص الذي يقوم بارتكاب الجريمة بخرقـه للقواعد والمعايير الاخلاقية للمجتمع (٧) . ويعاقب عليها وفق مواد قانون العقوبات في ذلك المجتمع وحسب طبيعة ونوع الجريمة التي يرتكبها ، وتنحصر العقوبات بين الاعدام حتى الموت والى السجن او الحبس (٭)(٢) او الغرامة المالية فقط . وتختلف العقوبة عـن من أتم السابعة من عمره ولم يتم الثامنة عشر حيث يعتبر حدثاً ، ويودع في المدارس الاصلاحية ، والذي اتم الثامنة عشر يعتبر بالغاً ويودع في اقسام اصلاح الكبار .

جـ - العلاقات الاجتماعية : Social Relationship

هي اي اتصال او تفاعل او تجاوب يقوم بين شخصين او اكثر لغرض اشباع الحاجات الاساسية والثانوية للاشخاص الذين يكونون العلاقة ويدخلون ضمن حدودها .

يقسم الباحثون العلاقات الاجتماعية إلى انواع متعددة اعتماداً على اسس معينة كأن تقسم إلى :

١ - طويلة الامد وقصيرة الامد

٢ - علاقات رسمية وغير رسمية

٣ - علاقات اولية وثانوية

٤ - وتقسم العلاقات الاجتماعية إلى :

(أ) علاقات اجتماعية ايجابية وهي التي تؤدي إلى حفظ بناء الجماعة والعمل على بقائها ودوام استقرارها والتي يجب ان تكون قائمة في كل مؤسسة اجتماعية .

(ب) علاقات اجتماعية سلبية وهي على عكس الاولى تؤدي إلى العداء بين افراد المؤسسة وكثرة الحقد والضغائن والكراهية وتقوي عوامل الصراع وترجع اليها انواع الانحرافات والتيارات الهدامة في المؤسسة (٨).

(د) قسم الاصلاح الاجتماعي للكبار : هو دائرة عقابية ذات برامج اصلاحيـة يوضع فيها الشخص المحكوم لاكمال مدة محكوميته ويخضع لجميع البرامج الاصلاحية التي تقرها اللجنة الفنية في دائرة الاصلاح الاجتماعي وكانت تسمى في العراق سابقـاً (السجن) .

٢ ـ فرضيات البحث :

تم وضع فرضيتين لغرض اختبارهما وهي : ـ

(أ) هناك متغيرات تؤثر ايجابياً في طبيعة العلاقات الاجتماعية بين السجناء واهمها:

السكن والنوم ـ المشاركة بالطعام ـ المنطقة السكنية والقرابة ـ الزمالة القديمة ـ نوعية الجريمة ـ تماثل المستوى المادي ـ مدرسة السجن ـ المشاركة بالاعمال اليدوية قضاء وقت الفراغ .

(ب) هناك متغيرات تؤثر سلباً في العلاقات الاجتماعية بين السجناء واهمها :

الشعور بالشك ـ ممارسة الجنسية المثلية (اللواطة) ـ القمار ـ استخدام مخدر ـ السرقة ـ التنافس على المكان ـ الوشاية للادارة ـ فرض السيطرة ـ احقاد قديمة .

والجدير بالذكر ان نعرف منهوم المتغير Variable وهو اي كمية قابلة للتغير او اي صفة يمكن قياسها وقابلة على اتخاذ حالات مختلفة لدى حدوثها بصورة متتابعة والاستعمال الواسع لمصطلح المتغير يشمل على جميع الظواهر غير الخاضعة للقياسات الرياضية (٩) . وقد جرت العادة عند المقارنة او معرفة علاقة متغيرين ببعضهما ان يسمى احدهما متغيراً معتمداً والاخر متغيراً مستقلا حيث يتغير المتغير المعتمد نتيجة لتغير المستقبل (١٠) . ففي بحثنا اعتبرنا العلاقات الاجتماعية في مجتمع السجن متغيراً معتمداً على مجموعة من المتغيرات المستقلة المذكورة اعلاه .

٣ ـ مجالات البحث :

تعتبر الفترة من ١٩٨٦/١١/١٠ ولغاية ١٩٨٧/١١/١٠ مجالا زمنياً تم خلاله جمع البيانات . والسجناء في قسم الاصلاح الاجتماعي للكبار في نينوى يعتبرون مجالا بشرياً للبحث ، كما كان قسم الاصلاح الاجتماعي للكبار في نينوى المجال المكاني . ولابد من اعطاء فكرة عامة عن قسم نينوى للاصلاح :

مضى على بنائه اقل من سنتين مقسم إلى (٧) ردهات وكل ردهة فيها (١٠) غرف تضم (٦ – ٧) سجيناً اضافة إلى ردهة الاستقبال التي يوضع فيها السجين عند دخوله للسجن لاول مرة .

٤ – عينة البحث :

شملت عينة البحث (٢٠٠) سجيناً من قسم الاصلاح الاجتماعي للكبار في نينوى ، تم اختيارهم بالطريقة العشوائية البسيطة بعد الحصول على قوائم باسمائهم من شعبة البحث الاجتماعي .

٥ – ادوات البحث :

استخدم الباحث للحصول على البيانات والمعلومات الادوات التالية :

(أ) استمارة الاستبيان : لغرض جمع البيانات صمم الباحث استبيان اولي يحتوي على سؤالين يتعلقان باهم العوامل المؤثرة في طبيعة العلاقات الاجتماعية ايجاباً أم سلباً بين السجناء ووزع لعينة من السجناء وعددهم (٥٠) فرداً ، وعلى ضوء نتائج الاستبيان الاولي صمم الاستبيان الثاني وتكون من (١٤) سؤالا تتعلق بالعوامل التي تحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية للسجناء (٥) (٣) وبعد ان عرض إلى الخبراء طبق لاختباره على عينة من السجناء وعددهم (٢٥) فرداً ومن ثم انتهى بصيغته الاخيرة واصبح كاملا لجمع المعلومات .

(ب) المقابلة : لغرض دعم بيانات الاستبيان اجرى الباحث مقابلات عديدة مع السجناء بمشاركتهم بالحديث ساعات طويلة تخص علاقاتهم بالاخرين ونمط معيشتهم في السجن وتجاوز الباحث الطريقة الرسمية في المقابلة فاتسمت بالصراحة والثقة المتبادلة اضافة لمشاركة الباحث السجناء في تناول وجبات غداء لدعم الثقة للحصول على المعلومات التي تخص البحث . ومن جهة اخرى شملت المقابلة لقاءات مع الباحثين الاجتماعيين والمسؤولين الاداريين والقوة الاجرائية التي تتواجد في السجن ليلا ونهاراً .

(جـ) الملاحظة المنظمة Systemtic Observation وهي نوع من الملاحظة التي تعتبر من الوسائل المهمة للباحث في جمع المعلومات والحقائق من الحقل الاجتماعي او الطبيعي ولا تقل اهميتها عن المقابلة او دراسة الحالة . ولها فوائد كثيرة فهي تعطي المجال للباحث ان يلاحظ مجمل الظروف والعلاقات الاجتماعية والتفاعلات والمشكلات والسلوكيات بصورة عامة للمجتمع المبحوث (١١) .

٦ – منهجية البحث :

يعتبر هذا البحث من البحوث الوصفية التحليلية لاستخدامه منهج المسح الاجتماعي عن طريق العينة واستخدامه الوسائل الاحصائية في تحليل البيانات والتي تمثلت بالنسبة المئوية .



الفصل الثاني
عرض النتائج ومناقشتها

المبحث الاول / العوامل المساعدة في تكوين العلاقات الاجتماعية

كشف البحث الميداني ثمة شبكة من العلاقات الاجتماعية تربط بين السجناء . لا تحدها غرفة او ردهة واحدة ، وانما على مستوى السجن عموماً حيث اوضح السجناء ان ما يعمل على التقارب بينهم وايجاد صداقات حقيقية هو المصلحة وتبادل الخدمات حيث اجاب بذلك ٧١٪ منهم . اضافة إلى عوامل اخرى كوجود الاقرباء والزمالة القديمة (كما سنوضحها فيما بعد) (جدول ١) وذلك لان السجن كمجتمع مغلق لا يجد فيه الفقير مجالا للعيش الا بالاعتماد على زميل غني . ولا يجد فيه الضعيف امكانية للحياة الا بالاستناد إلى زميل قوي **فإن ذلك هو الذي جعل تبادل المنفعة يطغى على كل ما عداه كمصدر لقيام علاقات الصداقة** والرفقة بين السجناء .

جدول (١) يبين اسس الصداقة والمشاركة بالمعيشة الواحدة (*) (٤)

الاجوبة	العدد	٪
المصلحة المتبادلة والمنفعة	١٤٢	٧١
لانه من الاقرباء	٦٢	٣١
زمالة قديمة	٥٦	٢٨
مشارك معه بالاعمال اليدوية	٣٨	١٩
نفس المنطقة السكنية	٣٠	١٥
ليس لديه صديق	٢٢	١١
نفس المستوى المادي	٢٠	١٠

ويبين البحث ان هناك عوامل بارزة تدعم العلاقات الاجتماعية الايجابية بين السجناء، والتي تحتم عليهم تكوينها . وفيما يلي استعراض ومناقشة هذه العوامل :

١ ـ السكن والنوم :

يعيش السجناء في السجن بغرفة تتسع ل(٦ ـ ٧) اشخاص ، وكل (١٠) من هذه الغرف تكون ما تسمى بالردهة ، او القاطع ، اي ان الردهة الواحدة تتسع (٦٠ ـ ٧٠) سجيناً ، ويقضي السجين معظم ساعات اليوم فيها حيث تفتح ابواب الردهات الساعة السابعة صباحاً إلى الساعة الثانية بعد الظهر وهذا يعني ان السجناء من جميع الردهات يستطيعون الالتقاء والتزاور لمدة (٧) ساعات فتكون العلاقات على مستوى سجناء السجن بالمدة المذكورة فقط. و(١٧) ساعة تنحصر العلاقات الاجتماعية بين سجناء الردهة الواحدة . فإذن السجناء في الغرفة الواحدة تربط بينهم علاقات توافق وتكيف اقتضته الضرورة . ضرورة السكن والتعايش والرفقة التي تستمر (١٧) ساعة يومياً . حيث اجاب ٧٨٪ من افراد العينة بأنهم لم ينتقلوا من غرفة إلى غرفة مقابل ٢٢٪ منهم اجابوا بانهم تنقلوا إلى عدة غرف بسبب عدم التكيف مع مجموعة الغرفة التي يوضع فيها السجناء لاسباب تعوق تكوين العلاقات الاجتماعية مع من يعيشون معه (جدول ٢) . وهناك ثمة قواعد تحكم النوم وتحدد مكان كل

سجين في الغرفة ، حيث الاقدم يستقر في احسن مكان من الغرفة وهو المعروف عند السجناء (بالزاوية) اي ابعد نقطة عن باب الغرفة . اما المستجد فتكون دائماً مكانه عند باب الغرفة إلى ان يطلق سراح احدهم فينتقل إلى مكانه . وهكذا وقد تحدث مشاجرات احياناً تصل اخبارها إلى الدائرة للحصول على مكان افضل في الغرفة الواحدة ، وقد اوضح ذلك ٨٢٪ من السجناء كما يظهر من جدول (٣) .

فإذن السكن والنوم الجماعي يؤدي إلى توطيد العلاقات الاجتماعية بين السجناء لأنهم غالباً ما يشكلون جماعة متعاونة وعادة ما يؤثر افرادها كجماعة في البعض اذ من المعروف ان الجماعة تؤثر دائماً في الفرد (١٢) .

جدول (٢) يبين تنقل السجناء بين الغرف والردهات

الاجوبة	العدد	٪
سجناء تنقلوا	٤٤	٢٢
سجناء لم يتنقلوا	١٥٦	٧٨
المجموع	٢٠٠	١٠٠

جدول (٣) يبين حدوث المشاجرات بين السجناء حول المكان

الاجوبة	العدد	٪
تحدث مشاجرات	١٦٤	٨٢
لم تحدث مشاجرات	٣٦	١٨
المجموع	٢٠٠	١٠٠

٢ — الطعام : —

اتضح من نتائج البحث ان الغالبية العظمى من السجناء يتناولون الطعام بنظام المشاركة ، سواء يطبخون على حسابهم ، او طعام السجن الذي يعرف بينهم بطعام (كان) اي طعام

الدولة الذي يوزع عليهم بثلاث وجبات ، فأجاب ٩٢٪ من السجناء انهم يعيشون بالمشاركة في الطعام مع غيرهم مقابل ٨٪ فقط يعيشون مستقلين لوحدهم . (جدول ٤) .

وقد اظهر البحث ايضاً ان المعيشة المشتركة هي نوع من التبادل التعاوني ويتمثل هذا التبادل في ان سجناء الغرفة الواحدة اما يأكلون جميعهم او يشترك اثنان او ثلاث وهكذا... وقد يكون المشاركون ضمن غرف وبالردهة نفسها ويسمى (المشترك بالمعيشة) في لغة مجتمع السجن (بالسفرداش) (ο) (٥) . وتقتصر المشاركة على الاكل ، والمشروبات ، والصابون ومسحوق الغسيل ، وتكون هذه المواد مشاعة بينهم ، والاكل قد يكون من حانوت السجن ،او الذي يحصلون عليه من اقربائهم ومعارفهم اثناء الزيارات او بالشراء من حانوت السجن ،والواقع ان المعيشة المشتركة بين السجناء ليس امراً اقتصادياً فحسب بل ان لهذه المعيشة المشتركة دوراً اجتماعياً من نوع اخر يضاف لدورها الاقتصادي بل ان هذا الدور الاجتماعي اكثر اهمية من الدور الاقتصادي ذلك ان السجناء يعمدون إلى اتباع هذا النظام ليس لمجرد تحقيق اهداف اقتصادية بل انهم يعملون على حماية انفسهم من بعضهم البعض من السرقات والاعتداءات ، حيث لوحظ ان احدهم تشاجر مع غيره من مجموعة اخرى نرى تدخل ومساعدة جماعته له . اضافة إلى تقوية العلاقات الاجتماعية بينهم ، حيث ينجم اصلا هذا النظام عن محبة وعلاقات طيبة التي يحتاجها السجين في السجن اذ اتضح من (جدول ٥) ان ٧٩٪ منهم لم تحدث مشاجرات بينهم مقابل ٢١٪ تحدث لهم مشاجرات وخلافات وابرز اسباب ذلك هي : عدم مساهمة البعض منهم بالشكل الملائم وبالقدر المناسب في توفير مستلزمات المعيشة والسبب الاخر هو طغيان الشعور بالشكوك عند كثير من السجناء كما سنوضح ذلك فيما بعد .

جدول (٤) يبين المشاركة بالمعيشة

الاجوبة	العدد	٪
يعيشون بنظام المشاركة	١٨٤	٩٢
يعيشون مستقلين لوحدهم	١٦	٨
المجموع	٢٠٠	١٠٠

جدول (٥) يبين حدوث مشاجرات بين سجناء المعيشة الواحدة

الاجوبة	العدد	٪
سبق وان حدثت لهم مشاجرات	٤٢	٢١
لم يسبق لهم	١٥٨	٧٩
المجموع	٢٠٠	١٠٠

٣ ــ المنطقة السكنية والقرابة :

تساهم عملية انتماء السجناء إلى منطقة سكنية واحدة في تكوين ودعم العلاقات الاجتماعية فيما بينهم ، حيث لوحظ ان السجين يفضل الدخول في المعيشة المشتركة عندما يكون بها على الاقل واحداً من الاقرباء او من نفس المنطقة السكنية ، او يصبحون مستقلين عن غيرهم بمعيشة واحدة .هذا على مستوى الردهة او الغرفة الواحدة اما اذا صادف للسجين احد الاقرباء ، او من المنتمين إلى منطقة سكناه في ردهة اخرى فيتم التزاور بينهم اثناء فترة الاتصال بين الردهات ، وغالباً ما يتقدم احدهم طلباً للباحث الاجتماعي لجمعهم في ردهة واحدة ، اتضح من (جدول ١) ان ١٥٪ من المبحوثين معيشتهم مشتركة لانهم من نفس المنطقة السكنية و٣١٪ من الاقرباء ويظهر من (جدول ٦) ان اسباب مشاركة السجناء وتكوين العلاقات مع سجناء منطقتهم واقربائهم ركزت في :

٩٢٪ لمعرفتهم السابقة لهم ، وهذا يشمل المعرفة السلوكية والاخلاقية ، و٨٩٪ منهم لثقتهم بهم اكثر من غيرهم . وهذه نقطة مهمة لان الشكوك من الحالات التي يتميز بها مجتمع السجن كما يتضح ذلك فيما بعد . و٧٧٪ ذكروا انهم يرتاحون نفسياً لهؤلاء وذلك لتعويض ما فقدوه من العواطف في السجن . مع ان ٧٦٪ اجابوا لانه يكون اكثر تعاوناً معنا . اذن نستنتج ان لهذا المتغير دور كبير في دعم العلاقات الاجتماعية بين السجناء ومن الاسس الرئيسية في تكوينها .

جدول (٦) يبين اسباب اختيار الاصدقاء من نفس المنطقة

الاجوبة	العدد	٪
لمعرفته السابقة له	١٨٤	٩٢
ثقته به اكثر من غيره	١٧٨	٨٩
شعوره بالراحة النفسية معه	١٥٤	٧٧
القبول والارتياح له		
لانه يتعاون معه اكثر	١٥٢	٧٦

٤ ـ الزمالة القديمة :

من المؤشرات المهمة التي تشير إلى تكوين العلاقات الاجتماعية بين السجناء هو اختيار سجين سبق وان تعرف عليه قبل دخوله إلى السجن . ويرغب بمثل هذه الزمالة لمعرفته بكافة ميوله واتجاهاته وحياته الاجتماعية . فلم يلق صعوبة في التعرف عليه . وقد لوحظ انه اذا كانت الزمالة السابقة متسمة بالاجرام والانحرافات في المجتمع تنعكس تلك الحالة في حياتهم السجنية مما يثيرون المشاكل والشغب في السجن . اما اذا كانت الزمالة السابقة متسمة بالحياة الاجتماعية السليمة والالتزام تكون عكس الحالة الاولى تماماً . حيث اتضح ان ٢٨٪ من المبحوثين اجابوا بأن اساس صداقتهم هو الزمالة القديمة جدول (١) .

٥ ـ نوعية الجريمة :ـ

يساهم هذا المتغير في تحديد علاقات السجناء فيما بينهم حيث لوحظ انهم ينقسمون اصلا إلى جماعات تربط بينهم روابط محددة جاذبة واخرى طاردة ، فسجناء قضايا السرقة واللواطة والاغتصاب لا يستطيعون الا في مجالات نادرة ان يجدوا من يصادقهم من سجناء قضايا القتل والتزوير . ونرى اصحاب قضايا القتل للثأر وغسل العار يبتعدون عن تكوين العلاقات مع غيرهم من سجناء القضايا الاخرى . لانهم لا يعتبرون انفسهم مجرمين . لكن بالعكس وهم ملتزمون بقواعد المجتمع بما فيه الحفاظ على الاخلاق والقيم الاجتماعية لاعتبار ان قتل الثأر وغسل العار ما هو الا محاربة الانحراف . لاحظنا كذلك ان اصحاب

جرائم الاموال والتزوير والاختلاس والرشاوة يكونون علاقات خاصة بينهم لا يختلطون مع غيرهم . ولوحظ عموماً ان غالبية السجناء يبتعدون عن مصاحبة السجناء ذوي الجرائم الاخلاقية ، لكي لا تصدر تهم ضدهم على انه هناك علاقة جنسية بينهم .

نستنتج ان لنوعية الجريمة دوراً اساسياً في تحديد العلاقات الاجتماعية بين السجناء . وتدعيماً لما قلنا تبين من نتائج البحث ان ١٧٪ فقط من السجناء المبحوثين يفضلون تكوين العلاقة مع اصحاب الجرائم الاخرى مقابل ٨٣٪ لا يفضلون ذلك (جدول ٧) .

جدول (٧) يبين تفضيل السجناء العلاقة مع غيرهم من اصحاب الجرائم الاخرى

الاجوبة	العدد	٪
نعم يفضل	٣٤	١٧
لا يفضل	١٦٦	٨٣
المجموع	٢٠٠	١٠٠

٦ ــ المستوى الاقتصادي المماثل :

من ملاحظتنا الميدانية تبين ان السجناء يعمدون إلى السكن مع من يماثلوهم اقتصادياً وخاصة ان المعيشة المشتركة هي السائدة بين سجناء الغرفة الواحدة او الردهة الواحدة ، حيث لاحظنا ان اكثر من (خمس غرف) يعيش فيها سجناء ذو مستويات اقتصادية عالية خارج السجن ، وبعد مقابلتهم تبين انهم لا يرغبون الاختلاط مع غيرهم لعدم التكافؤ اقتصادياً معهم . ولم يتم التزاور بينهم ويشعرون بانهم سوف يشكلون عبئاً مالياً عليهم في حالة مزاملتهم لهم الا ان مثل هؤلاء يستخدمون عند الاثرياء من السجناء مقابل اجور معينة لغسل الملابس والاواني والتنظيف وتأكيداً على ما سبق لاحظنا ان السجناء الذين لا يتلقون الزيارات الا لفترات متباعدة او معدومة لا يشتركون مع احد في المعيشة . وتبين من (جدول ١) ان من اسباب الصداقة والمشاركة المعيشية هو تماثل المستوى الاقتصادي وبنسبة ١٠٪ . وفي (جدول ٨) تبين ان ٨٩٪ من المبحوثين اجابوا ان من يشاركهم في المعيشة تماثل معهم على وجه التقريب مقابل ١١٪ فقط غير ذلك .

فإذن هذه المشاركة المتميزة بالمستوى الاقتصادي تساهم في عملية تحديد العلاقات الاجتماعية بين السجناء في مجتمع السجن .

جدول (٨) يبين مدى تماثل المشاركين في المعيشة اقتصادياً على وجه التقريب

الاجوبة	العدد	٪
نعم	١٧٨	٨٩
لا	٢٢	١١
المجموع	٢٠٠	١٠٠

٧ ــ الزمالة في المدرسة :

توجد في سجن نينوى مدرسة ابتدائية يدرس فيها لحد اجراء البحث (٤٠) طالباً . وهذا العدد في تصاعد وانخفاض اعتماداً على اطلاق سراح السجناء ، لذا من الطبيعي تحدث العلاقات بين الدارسين ، غالباً ما تؤدي إلى التزاور والعيش المشترك بينهم وذلك لانهم يقدمون إلى الدراسة من مختلف الردهات والجرائم . وبهذا تشكل شبكة من العلاقات بين السجناء على مستوى السجن ككل . واتضح من بيانات البحث ان ١٢٪ من المبحوثين تعرفوا إلى اصدقائهم في المدرسة مقابل ٨٨٪ منهم تعرفوا في أماكن اخرى . جدول (٩).

جدول (٩) يبين فيما اذا تعرف المبحوثون على بعضهم في المدرسة

الاجوبة	العدد	٪
نعم	٢٤	١٢
لا	١٧٦	٨٨
المجموع	٢٠٠	١٠٠

٨ – المشاركة بالأعمال اليدوية: –

يقوم عدد من السجناء باعمال يدوية فنية (كصناعة الاحذية واغراض الزينة والليف والمحفظات واطارات الصور) فقد اجاب ٢٢٪ من السجناء المبحوثين بأنهم يقومون باعمال يدوية وهي اجود وسائل قضاء وقت الفراغ الممل للسجين . ولاحظنا ان اغلب السجناء الذين يقومون بالاعمال يتعاونون مع بعضهم في انتاج المصنوعات اليدوية ، حيث اجاب ٨٦٪ منهم (من مجموع ٤٤ سجيناً) يتعاونون فيما بينهم وتكون ارباحهم مشتركة مقابل ١٤٪ يقومون بالاعمال لوحدهم (ينظر جدولي ١٠و١١) . فإذن عن طريق المشاركة بالاعمال اليدوية تتكون علاقات اجتماعية بين السجناء وخصوصاً على مستوى الردهة لان التعاون بهذه الاعمال يحتاج إلى قرب المشتركين عن بعضهم البعض .

جدول (١٠) يبين قيام السجناء بالأعمال اليدوية

الاجوبة	العدد	٪
نعم يقومون بالاعمال	٤٤	٢٢
لا يقوم بالاعمال	١٥٦	٧٨
المجموع	٢٠٠	١٠٠

جدول (١١) يبين تعاون السجناء بالأعمال اليدوية

الاجوبة	العدد	٪
يتعاون مع غيره	٣٨	٨٦
يقوم بالاعمال لوحده	٦	١٤
المجموع	٤٤	١٠٠

٩ – قضاء وقت الفراغ :

مما لاشك فيه ان المجتمع يفيد أكبر فائدة اذا اتاح لافراده ان يجنوا فوائد ايجابية من وقت فراغهم. اما اذا اقتصر على منحهم أكبر وقت للفراغ بدون ان يعد لهم الوسائل

لحسن استخدامه فأنه بذلك يكون قد مكن لعوامل الهدم ان تعمل على تقويضه وخلــق المشاكل .

ففـي السجـن يعاني السجنـاء مـن وقت الفراغ الممل وخصوصاً فـي سجـن نينوى الحديث ،(٧).فهذه المعاناة تلعب دوراً كبيراً في هذا المجتمع لتكوين العلاقات الأجتماعية من جهة ،وحدوث المشكلات من جهة اخرى كما سنذكر ذلك فيما بعد، حيث يقضي السجين معظم اوقاته في فراغ دائم ماعدا ساعات النوم فقط فيصل وقت الفراغ الى (١٦) ساعة يومياً فلا عمل ولاقراءة الا نادراً ولاوسائل للتسلية. بل مجرد فراغ مستمر مما يضفي ذلك بالطبع اهمية خاصة على الزيارات بين السجناء وتكوين العلاقات الأجتماعية فيما بينهم على مستوى السجن ككل وعلى مستوى الردهة. يخلق التزاور احياناً جواً من المرح وتبادل الحكايات ينسي هموم السجناء، ويقدم الشاي والمرطبات بالمناسبة، حيث تبين من نتائج البحث ان ٧٦٪ من السجناء عندهم اصدقاء خارج ردهاتهم يتم التزاور بينهم اثناء فترة السماح لهم بالتجوال في عموم السجن (ينظر جدول (١٢).

جدول (١٢) يبين فيما اذا للسجناء اصدقاء خارج ردهاتهم

الأجوبة	العدد	٪
له اصدقاء	١٥٢	٧٦
ليس له اصدقاء	٤٨	٢٤
المجموع	٢٠٠	١٠٠

المبحث الثاني

عوامل سوء العلاقات الأجتماعية بين السجناء

ذكرنا سابقاً بأن عقوبة السجن تضع المجرم في مجتمع جميع افراده من المذنبين له خصائصه ومزاياه، منها ان كل سجين ينظر الى الثاني بأنه مجرم ، وان العلاقة بينهم وقتية لا اساس لها وهي مصلحية. وتختلف الحياة فيه عن المجتمع الخارجي الذي جاء منه السجين .

لاحظنا ان السجناء يعانون مشكلة اساسية تعتبر من اخطر المشاكل التي يواجهونها وهي طريقة قضاء الوقت الطويل داخل السجن. ولايجد الكثير منهم وسيلة لقضاء هذا الوقت الا بالقيام ببعض السلوكيات غير الصحية والتي تؤدي الى اثارة المشاكل واعاقة تكوين العلاقات الأجتماعية السليمة، وفقدان الثقة بين السجناء انفسهم ، فقلما نرى سجيناً يثق بسجين أخر ، على الرغم من انهم يعيشون بصورة مشتركة .فلا يخلو نهار او ليل بدون مشاجرة بين سجينين او أكثر قد تصل احياناً الى سيل الدماء. وهذا يعيق مسيرة الدائرة الأصلاحية الأنسانية في أصلاح المذنبين والرجوع به الى المجتمع مواطناً صالحاً مندمجاً مع غيره بصورة طبيعية.

لما كان من الصعوبة جمع المعلومات من السجناء حول الأمور السلبية المنحرفة التي تحدث بينهم. ذلك خوفاً على أنفسهم من العقوبة اولا من قبل الأدارة ،ومن السجناء المقصودين من جهة ثانية. لذا اعتمدنا على توجيه سؤال ضمن استمارة البحث حول ابداء السجين رأيه عن المشاجرات التي تنشب في السجن واسبابها،اضافة الى ملاحظاتنا الميدانية اليومية والألتقاء بالمراقبين من السجناء على الردهات والأستماع بصورة مباشرة الى بعض السجناء حول هذه المواضيع مع متابعة الأمور مع باحثي الأقسام والمأمورين وضباط الخفر لتكوين صورة واضحة عن المشاكل والمعوقات بين السجناء وفيما يلي نستعرض اهم تلك المعوقات والمشاكل التي تكون سبباً في اعاقة العلاقات الأجتماعية السليمة التي تنشدها الدائرة للسجناء .

جدول (١٣) يبين اسباب العلاقات السيئة بين السجناء

الأسباب	العدد	٪
الشك بالأخرين	١٥٦	٧٨
الممارسة الجنسية(اللواطة)	٩٤	٤٧
لعب القمار	٨٨	٤٤
استخدام حبوب مخدرة	٦٤	٣٢
السرقة	٥٠	٢٥
فرض السيطرة على الأخرين	٣٨	١٩
التنافس على المكان	٣٦	١٨
احقاد قديمة	٢٨	١٤
الوشاية للادارة	٢٠	١٠

١ — سيطرة مشاعر الشك بالأخرين لدى السجين:

على الرغم من ان السجناء يأكلون ويشربون مع بعضهم ويقضون كل وقتهم سوية الا انه لاحظنا غالبيتهم لايثقون بغيرهم، فالذي يثق بالأخرين عنده الثقة بالنفس فعندما يثق السجين بنفسه يعتبر الأخرين يثقون به، حيث ان الثقة بالنفس تعتبر مظهراً للشخصية السوية وعنصراً هاماً في التكيف الفعال، في حين ترتبط مشاعر عدم الكفاية والنقص بسوء التكيف(١٣).حيث ذكر ٧٨٪ من السجناء المبحوثين أن من اسباب سوء العلاقة هو الشك، اي انعدام الثقة بينهم حيث يعيشون في ريبة وشك. ويزداد الشك بينهم على مستوى السجن ويقل على مستوى الردهة الواحدة ومن ثم على مستوى الغرفة الواحدة وقد لاحظنا اثناء الدراسة الميدانية بأكملها بأن الشك يمكن ان نعتبره من السمات الأساسية التي تحدد علاقات السجناء ببعضهم البعض. نلاحظ بأستمرار ان السجين يتردد في تكوين العلاقة مع غيره وبالأخص على مستوى الكل.فعلى سبيل المثال لا الحصر ان السجناء الكبار السن يبتعدون عن صغار السن وبالأخص اصحاب الجرائم الأخلاقية والسرقة لتجنب

الأتهامات في الممارسة الجنسية فيما بينهم. ولاحظنا كثيراً مايتردد السجناء الى البحث الأجتماعي طالبين تغيير مكانهم في الغرفة، وعند السؤال عن السبب يكون الجواب دوماً عدم الراحة للسجين الفلاني وهذا ان كان ناتج عن شيء فهو تعبير عن الشعور بالشك. بينهم .(جدول ١٣).

٢ – الممارسة الجنسية المثلية :–

تتمثل العلاقات الجنسية داخل السجن بالجنسية المثلية . وقد حظي هذا الموضوع بالأهتمام في الدراسات الأجتماعية والأنثروبولوجية والنفسية. وتعتبر دراسته أكثر الموضوعات صعوبة وذلك لصعوبة الحصول على بيانات دقيقة . وان المعنيين يحجمون عن الأعتراف (١٤). وتعرف الجنسية المثلية: بأنه مصطلح يعبر عن العلاقة الجنسية بين فردين من جنس مماثل (الذكر مع الذكر، والأنثى مع الأنثى) والأستعمال الشائع لهذا المصطلح في العربية هو (اللواط) (١٥).

وقد لاحظنا ظهور حالات الممارسة الجنسية في سجن نينوى على نمطين اولا : ممارسة جنسية بالأكراه وبالأخص من قبل سجين قوي البنية وذو نفوذ تسلطي تجاه ضعاف البنية وصغار السن، وثانياً ممارسة جنسية برضا الطرفين.

وتبين ان السجين الجديد أكثر السجناء تعرضاً لهذه الحالة، فأنه عادة ما يكون شخصاً بلا خبرة غير متشكك او مرتاب يعطي الثقة لمن يستقبله ببعض الود وبلا تأويل للسلوك، ويستغرق فترة طويلة حتى يصبح قادراً على فهم من معه، فقد يخضع السجين الجديد لخوف يضطر معه الى ممارسة الجنس، ومع ان ضعف البنية هنا غالباً مايكون احد اسباب هذه الممارسة، وهذا الأعتداء يواجه من جانب المعتدي عليه بأحد الأسلوبين فقد ينجح في المقاومة او يستسلم. وغالباً مايستسلم امام ميل المغتصبين للعنف الشديد واندفاعهم وعدم ترددهم في الحاق اذى بليغ بالسجين الجديد، وسواء نجح السجين الجديد في مقاومته او فشله واستسلم فأن امامه عندما تفتح الردهات صباحاً احد طريقين اما الابلاغ عما حدث او السكوت ، والأبلاغ معناه الفضيحة فالمعتدي عليه يفضح نفسه اذا ابلغ عن الحادث

فيفضل الكثيرون السكوت لأن الفضيحة لاتسيء بطريقة قاسية الى وضع السجين من وجهة نظر الآخرين ، اما ان هذا الفعل يشكل بالنسبة للمعتدى عليه وصمة تنقص من رجولته ويذكره بها السجناء عندما يصطدم بأي منهم اويختلف معه.

الطريقة الثانية للممارسة الجنسية في مجتمع السجن هي رضا الطرفين واغلب هؤلاء يكونون من اصحاب الجرائم الأخلاقية والسرقات. هذا وقد أجاب ٤٧٪ من السجناء المبحوثين ان الممارسة الجنسية لها دوراً كبيراً في تكوين العلاقات السيئة التي تؤدي الى نشوب المشاجرات في محاولة استحواذ احد الأطراف على الطرف الأخر ومنعه من الممارسة مع غيره وتصل احياناً هذه المشاجرات الى سيل الدماء. وتتسم هذه العلاقات بالأرتباط اللصيق القوي بين طرفي العلاقة في معظم الحالات بحيث ان احد الأطراف خاصة الطرف الذي يتسم بالضعف ليس له ان ينشيء علاقة مع غير الطرف الأخر واحياناً اذا ابتعد احد الطرفين عن الأخر بسبب نقله الى مكان اخر ، تصل الحالة بأن يضرب نفسه تظاهراً لهذا الأبتعاد عن طرفه الثاني وهذا مالاحظنا فترة اقامتنا في السجن، حيث ان كثيراً من هذه الحالات احيلت الى البحث الأجتماعي (ينظر جدول ١٣) .

٣ ـ لعب القمار :ـ

لعب القمار من الممارسات غير المرغوبة اجتماعياً،وهي عادة يتقضي الفرد بممارستها اوقاتاً تؤثر عليه سلبياً وعلى غيره من اقرانه. ويعاقب الممارس لها قانوناً (١٦)؛ وهي تنتشر بين السجناء كما هو عليه في المجتمع الخارجي، يقضي بعض السجناء اوقات فراغهم بهذه الممارسة غير الصحية.لكن بصورة سرية تامة لكي لايفضح امرهم وينساقون الى الحبس الأنفرادي .

لعب القمار من الأسباب الرئيسة التي تؤدي الى نشوب المشاجرات بين السجناء .حيث يتضح من جدول (١٣) ان ٤٤٪ من المبحوثين ارجعوا سوء العلاقات الأجتماعية بين السجناء الى القمار ، حيث ينتهي القمارعادة الى شجار المقامرين ،نتيجة لتشكك في طريقة اللعب او نتيجة عدم الأستمرار في اللعب اورفض الوفاء بالخسارة التي ترتبت على المقامرة وكثيراً ماتنتهي هذه المشاجرات بدون علم الدائرة خوفاً من ان تصل المعلومات .

ويشخص المقامرين ليتخلصوا من العقوبة.وان وصلت الى الأدارة فيذكر السجناء دائماً بأن مشاجراتهم هي بسبب القمار الا القليل منهم ،حيث يفضحوا زملائهم،ويكون اللعب بصورة دائمة بين سجناء الردهة الواحدة في ساعات الليل لقلة المراقبة. والجدير بالأشارة هنا ان السجناء الباقين والذين لايتقبلون لعب القمار يتحاشون ابلاغ الأدارة وذلك لخوفهم من المقامرين لأن بعضهم من الشرسين ولايهابون الضرب المبرح وايذاء المشتكي. فكثيراً مالاحظنا بأن السجين يراجع البحث الأجتماعي ويطلب نقله الى غرفة او ردهة أخرى مدعياً أنه غير مرتاح لكن في الحقيقة السبب الرئيسي هو التحاشي من سلوك المقامرين .

٤ — استخدام الحبوب المخدرة :—

لقد اتضح من جدول (١٣) ان ٣٢٪ من السجناء المبحوثين أجابوا بأن اسباب المشاجرات وسوء العلاقات بينهم هو تعاطي بعضهم حبوباً مخدرة . ويسمى السجين المتعاطي (بالمكبسل) حيث بعد تناول السجين الأقراص المخدرة يصبح عدوانياً في حالات كثيرة ويصبح غير مسيطر ومتحكم في تصرفاته وتنتابه حالات هياج فيعتدي على كل من يقابله. وتبين من بيانات الأستبيان ايضاً ان اهم الأسباب الرئيسة لتناول الحبوب المخدرة هي :

أ — اجاب ٨٤٪ من السجناء للهروب من الواقع الذي يعيشونه حيث الفراغ والملل .

ب — اجاب ٨١٪ منهم لغرض نسيان المشاكل والهموم حيث القلق على عوائلهم ومستقبلهم .

ج — واخيراً اجاب ٦٢٪ منهم يتعاطون الحبوب المخدرة لاستجلاب النوم حيث انهم يعانون من ارق مستحكم — (ينظر جدول ١٤).

جدول ١٤ يبين تعاطي السجناء الحبوب المخدرة ° (٨)
من وجهة نظر افراد العينة

الأسباب	العدد	٪
للهروب من الواقع الذي يعيشونه	١٦٨	٨٤
لنسيان المشاكل والهموم	١٦٢	٨١
لاستجلاب النوم	١٢٤	٦٢

٥ – السرقة : –

السرقة من السلوكيات المنحرفة التي ينال الفرد من جرائها العقوبة. نرى ظهور هذا السلوك بين الافراد في مجتمع السجن ، فكثيراً مايحتاج بعض السجناء الى النقود وبالاخص اولئك الذين لايتلقون الزيارات من الاقرباء ، او هم فقراء الحال اصلاً قبل دخولهم للسجن . فيحاول عن طريق السرقة الحصول على النقود من سجناء غرفته ؛ او قد يكون ضيفاً عنـد السجناء من ردهات اخرى فاذا اتيحت الفرصة له يقوم بالسرقة سواء النقود او اية حاجـة صغيرة وثمينة بحيث يمكن اختفاءها عن الانظار .

اذن السرقة احد اسباب سريان روح التشكك وعدم الثقة بين السجناء . وقد ارجع ٢٥٪ من السجناء المبحوثين المشاجرات واساءة العلاقات الاجتماعية بينهم الى ارتكاب بعضهم فعل السرقة (جدول ١٣) .

٦ – فرض السيطرة على الأخرين:

تبين من ملاحظاتنا الميدانية ، وكما اكدته بيانات جدول (١٣) وجود بعض السجناء الذين يحاولون فرض سيطرتهم وممارسة القهر بالقوة على غيرهم ؛ وبالاخص الجدد والضعفاء منهم بدنياً ، مهدداً اياهم بالضرب احياناً تصل الحالة الى تشويه الوجه ، وغالباً مايكون هؤلاء من معتادي الاجرام .

فالضعفاء وحديثو العهد بالسجن يخضعون لهذا التهديد حتى لايضاروا ولا يعتدى عليهم لذلك تنشب احياناً مشاجرات بين السجناء قد تصل الحالة الى اسالة الدماء وبالتالي تضطرب العلاقات بينهم . وقد لاحظنا من هذا القبيل وعلى سبيل المثال . سجيناً معروفاً بين السجناء ب (محمد شقاوة) يهدد السجناء لينتقلوا من اماكنهم الى اخرى، فيطالب البحث الاجتماعي لنقله دون ان يذكر السبب لخوفه ، وحالة اخرى اراد احد السجناء في ردهة من ردهات السجن ان يغير مراقب الردهة فحاول بطرق معينة فرض سيطرته على مجموعة كبيرة من سجناء الردهة لكي يصوتوا على تغيير المراقب . وقد اشار ١٩٪ من السجناء المبحوثين الى ان من اسباب سوء العلاقات الاجتماعية بينهم هو فرض بعض السجناء سيطرتهم علـــى غيرهم (جدول ١٣) .

٧ـ التنافس على المكان : ـ

تأخذ اللجنة الفنية للبحث الاجتماعي في اسكان السجناء بنظام التصنيف Classfication حسب الجريمة . يسكن في الغرفة الواحدة (٦ ـ ٧) من السجناء ، احياناً يختلفون فيما بينهم حول السكن في اجزاء الغرفة ، فالمكان المرغوب فيه هو الذي يكون بعيد عـن الباب عادة اي بعيد عن طريق المارة ويسمى في مجتمع السجن (بالزاوية) فكثيراً ما تحدث المشاجرات بين السجناء وقد تصل احياناً الى تدخل الباحثين الاجتماعيين .

لقد قام الباحث في احيان كثيرة بترضية السجناء الذين يتنافسون على اماكن معينة فـي الغرفة او على مستوى الردهة فأحياناً يطلب السجين نقله الى ردهة اخرى لعدم ارتياحه في المكان حيث اجاب ١٨٪ منهم ان التنافس على المكان من الامور التي تسبب اساءة العلاقات فيما بينهم (جدول ١٣) .

٨ـ احقاد قديمة : ـ

تنشب المشاجرات وتعيق العلاقات الاجتماعية بين السجناء بسبب وجود احقاد وخصومات قديمة بينهم يرجع اساسها الى فترة ماقبل وضعه في السجن ، فينتهزون فرصة وجودهم معاً في السجن للنيل من الخصوم . وخصوصاً عندما يعلمون ان الاحكام التي تترتب على مثل

هذا الاعتداء اقل بكثير منها في حالة التعدي عليه خارج السجن ، حيث ينظر اليها دائماً انها مشاجرة بين المجرمين .

ولهذا عندما يدخل السجين الى السجن يسأل عما اذا عنده خصوم داخل السجن لكي تتخذ الاجراءآت اللازمة واغلبها تكون نقله الى قسم آخر . هذا وقد اشار ١٤٪ من السجناء المبحوثين الى ان من اسباب اساءة العلاقات الاجتماعية بينهم هو وجود خصومات سابقة عند البعض منهم . (جدول ١٣) .

٩ ــ الوشاية للادارة : ــ

اشار ١٠٪ من السجناء المبحوثين الى ان ايصال المعلومات من قبل السجناء للادارة احد اسباب نشوب المشاجرات وسوء العلاقات بينهم . حيث توجه الانظار الى الذين يعملون كمراقبين للردهات والذين يعملون في الادارة كعمال خدميين ، وقد يبتعدون عنهم الآخرين ليتجنبوا التورط معهم في التحدث عن الادارة (جدول ١٣) .

خلاصة البحث :

فيما يلي تلخيص لاهم النتائج التي توصل اليها البحث : ــ

١ ــ اظهر البحث بأن هناك علاقات اجتماعية بين السجناء تكون بشكليها الايجابي والسلبي فالاولى تعتبر مؤشرات لخلق التماسك الاجتماعي والضبط الاجتماعي في مجتمع السجن بحيث تساعد الادارة في اداء عملها .

٢ ــ اظهر البحث ان العلاقات الايجابية ناتجة عن عوامل تفرضها الحياة في السجن ، الا انه لم تكن مستقرة لكي تخلق حالة من الانسجام والتوافق المستمر بين السجناء حيث ان اية ظاهرة سلبية قد تعيق هذه العلاقة فتسيء الى السجناء وتعوق التكيف الاجتماعي مع بعضهم .

٣ ــ من العوامل التي اثبتها البحث في دعم العلاقات الاجتماعية بين السجناء هي السكن والنوم المشترك ، المشاركة بالطعام ، الانتماء الى منطقة سكنية واحدة ، القرابة ، الزمالة

القديمة ، نوعية الجريمة ، التماثل في المستوى الاقتصادي بين السجناء ، مدرسة السجن ، المشاركة بالاعمال اليدوية واخيراً قضاء وقت الفراغ .

٤ — اظهر البحث ان ثمة عوامل وظواهر سلبية توجد في مجتمع السجن تعوق مسيرة المؤسسات الاصلاحية في مواصلة رسالتها الانسانية لاصلاح المذنبين واهم هذه الظواهر هي :—

(أ) عدم الثقة والشكوك بالآخرين حيث لانجد سجيناً يثق بالآخر الا نادراً ، فمهما تكون هناك من عوامل داعمة ومثبطة للعلاقات الاجتماعية الايجابية فلا بد انه يوماً ماتنهار اغلبها . وخصوصاً لو برزت ظاهرة سلبية عند احد سجناء المجموعة . وبهذا لاتوجد صداقة بمعناها الحقيقي كما في المجتمع الخارجي وان وجدت فأنها مبنية على اسس تبادل المنفعة . وعند زوال هذه المنفعة تنهدم معها الصداقة ، فقد يكون السجين صديقاً لغيره في يوم ما ويصبح عدواً له خلال لحظات .

(ب) الجنسية المثلية : تثير هذه الظاهرة المشاجرات بين السجناء تصل احياناً الى اسالة الدماء فتسيء العلاقات الاجتماعية بينهم .

ج — لعب القمار وبصورة سرية تامة خشية من العقاب .

د — تعاطي الحبوب المخدرة .

هـ — ظاهرة السرقة.

و — التنافس على المكان .

ح — الوشاية للادارة .

ط — فرص السيطرة على الأخرين .

اذن تبين ان جميع المتغيرات التي فرضناها في بداية بحثنا سواء التي تؤثر ايجاباً اوسلباً في العلاقات الأجتماعية داخل السجون متطابقة تماماً عما توصلنا اليه من نتائج وبهذا نستنتج بأن نمط العلاقات الأجتماعية في السجن تتمثل بنوعين :—

١ — الأيجابية التي تدعم الروح المعنوية بين السجناء وتقلل من مشاكلهم وتساعد على استقرار الحياة الأجتماعية في السجن لمواصلة البحث الأجتماعي والدائرة لتطبيق البرامج الأصلاحية الانسانية للمذنبين لكي يصبحوا مواطنين صالحين اسوة بالأخرين .

٢ — السلبية والتي تزعزع الروح المعنوية بين السجناء وتثير المشاكل والمشاجرات والقلق بين السجناء، تصل هذه المشاجرات احياناً الى سيل الدماء لأيذاء بعضهم البعض وهذه العلاقات تعرقل مسيرة الدائرة في تطبيق البرامج الأصلاحية بصورتها الصحيحة والدقيقة مما ينبغي الأنتباه والسيطرة عليها عن طريق تشخيصها المبكر والقضاء عليها على النور .

التوصيات : —

في ضوء ماتوصلنا اليه من النتائج نوصي مايلي :—

١ — زيادة عدد الباحثين الأجتماعيين ليغطوا اعداد السجناء وليتسنى لهم معالجة مشاكلهم بصورة ادق ونقترح ان يكون لكل ردهة باحث ومساعد له.

٢ — عدم تكليف الباحثين في اعمال ليست من صلب اختصاصهم ليأخذوا دورهم الأساسي في تطبيق برامج الأصلاح الأجتماعي وكالاتي :—

أ — عدم المشاركة في اجراء التحقيق بمشاكل السجناء، وذلك لأنه يفقد السجين الثقة بالباحث عندما يأخذ الأخير دور المحقق في المشكلة حيث لايدلي السجين بما عنده وهذا يتعارض مع مبادىء الخدمة الأجتماعية. فيمكن بهذه الحالة ان يحقق بها غير الباحثين ويطلع عليها الباحث الأجتماعي ليتعرف على المشكلة ويشخصها ويضع لها الحلول اللازمة.

ب — عدم مشاركة الباحثين الأجتماعيين في اللجان المشكلة في القسم كلجنة الأرزاق ولجنة المشتريات حيث تشغلهم عن ممارسة دورهم الأساسي في البحث الأجتماعي، ويمكن في هذه الحالة ان يكون دوره كمشرف على اللجان فقط دون المشاركة.

جـ — يجب ان يقتصر دور الباحثين في عملية التشغيل الخارجي والتأهيل المهني بترشيح السجناء وزيارتهم وان لاتأخذ المخاطبات الرسمية والأمور الأدارية الأخرى من وقتهم وفي هذه الحالة يمكن تنسيب موظف كاتب الى شعبة البحث الأجتماعي لمساعدة الباحثين في الأمور الادارية.

٣ — استقلالية البحث الأجتماعي وربطه ادارياً بمديرية عامة للبحث الأجتماعي يكون ارتباطها بديوان وزارة العمل والشؤون الأجتماعية مباشرة لكي يستطيع الباحث من تأدية

دوره ومهنته بصورة مستقلة بعيدة عن التأثيرات الأدارية لادارة السجن ويستطيع من خلال ذلك بأبداء رأيه واحترامه وتنفيذه .

٤ — التكثيف من المحاضرات الأرشادية من قبل الباحثين لرفع الروح المعنوية بين السجناء لكي يكون السجن مؤسسة فعالة كفيلة بأصلاح المجرمين .

٥ — ضرورة مشاركة وعقد جلسات غير رسمية من قبل الباحثين مع السجناء في غرفهم لدعم الثقة بينهم لغرض مساعدتهم في تجاوز مشاكلهم .

٦ — تكثيف التعاون بين الطبيب المنسب الى المركز الصحي في السجن والباحثين الأجتماعيين لمعالجة الحالات المصابة بالأمراض النفسية .

٧ — نقترح ان يكون افراد القوة الأجرائية من العناصر الجيدة والسمعة الحسنة والمستوى الثقافي الذي لايقل عن الأعدادية ليكون عنصراً مهماً في المشاركة بأصلاح المجرمين .

٨ — ضرورة متابعة تصنيف السجناء حسب نوع الجريمة وعدم اللجوء الى وضع مجرمين ارتكبوا جريمة اللواط والسرقات مع مجرمين تمثلت جرائمهم بالقتل للثأر وغسل العار او قضايا المرور .

٩ — من الضروري جداً المباشرة بفتح دورات التأهيل المهني مادام هناك معامل نموذجية في النجارة والحدادة والخياطة.وتهيئة كافة المستلزمات من الكادر الوظيفي الفني والمواد الأولية .

١٠ — العمل على تشكيل فرق فنية ورياضية من قبل السجناء لممارسة هواياتهم كالغناء والموسيقى والمسرح والألعاب الرياضية المختلفة وتهيئة كافة المستلزمات لهم.

١١ — مكافأة ذوي السيرة الحسنة من السجناء والذين لم يحدثوا أية مشكلة في السجن لفترات طويلة بهدايا رمزية او نقدية للمحتاج ليكونوا قدوة لغيرهم من المنحرفين في مجتمع السجن .

١٢ — من جهة أخرى يجب حرمان السجناء الذين يرتكبون افعالا مخالفة للتعليمات والأنظمة من زيارة الأهل والعمل لفترة تكون مدتها حسب طبيعة الفعل المرتكب ووضعهم في الحبس الأنفرادي ايضاً .

المصادر والهوامش :

(ه ١) استعمل العالم الامريكي المعروف ادوين .ه.سذرلاند مصطلح(مجتمع السجن) في كتابه المشهور مبادىء علم الاجرام . ترجمة الدكتور محمود السباعي والدكتور حسن الرصفاوي مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص٦٤٥ ، ولهذا استعمل الباحث المصطلح المذكور في الدراسة .

(١) دكتورة علياء شكري وآخرون ، قراءآت معاصرة في علم الاجتماع ، ط٢ ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص١٤٧ .

(٢) سذرلاند - ه ادوين ، مبادىء علم الاجرام ترجمة اللواء محمد السباعي والدكتور حسن صادق الرصفاوي ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص٦٥٦ .

(٣) غي روشيه ، تعريب د. مصطفى دنلشلي ، الفعل الاجتماعي المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٣ ، ص١٦٤ .
وكذلك ، د. معن خليل عمر ، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر ، دراسة تحليلية ،ونقدية دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص٩٠١ .

(٤) احمد محمد خليفة ، مقدمة في دراسة السلوك الاجرامي ، ج١ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ، ص١٩٦ .

(٥) محمد سيد فهمي ، السيد رمضان ، الفئات الخاصة ، المكتب الجامعي الحديث ،الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص١٥ .

(٦) الدكتور رمسيس بهنام ، الاجرام والعقاب ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٨ ص٣١-٣٢ .

(٧) الدكتور عوض محمد ، مبادىء علم الاجرام،مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية ١٩٨٠ ، ص٤٩ .

(ه ٢) هناك الفرق بين السجن والحبس فالسجن يكون الحكم على المجرم اكثر من خمسة سنوات اما الحبس فيكون الحكم من ٢٤ ساعة والى خمس سنوات فقط .
المصدر : قانون العقوبات العراقي ، وزارة العدل ،الاعلام القانوني ، ط٣ مطبعة وزارة العدل ، ١٩٨٥ ، ص١٤ .

(٨) الدكتور محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ ص٤٣٧ وكذلك الدكتور مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثاني الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ، ١٩٦٥ ،ص٢٠٦ .

(٩) دنكن ميشيل ، معجم علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور احسان محمد الحسن ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص٢٦٦ .

(١٠) الدكتور محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، مصدر سابق ، ص٥٠٦ .

(* ٣) عرض الاستبيان على السيد معاون مدير عام دائرة اصلاح الكبار والدكتور سطام حمد خلف الجبوري .

(١١) الدكتور احسان محمد الحسن ، الدكتور عبد المنعم الحسني ، طرق البحث الاجتماعي مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨١ ، ص٢٣٤-٢٤٥ .

(* ٤) بعض المبحوثين اجابوا على اسس متعددة .

(١٢) شارل بلوند ، ترجمة محمد قاسم وابراهيم سلام ، مقدمة في علم النفس الاجتماعي مكتبة الانجلو مصرية ١٩٥١ ، ص١٢٣ .

(* ٥) (السفرداش) كلمة تركية الاصل ، ومعناها رفيق الصفرة .

(* ٦) بعض المبحوثين اجابوا على اختيارات متعددة .

(* ٧) لم تشغل ورش التأهيل المهني في السجن لحين اجراء هذا البحث وذلك لاسباب موضوعية لعدم نصب المكائن وعدم توفر الكادر الفني للتدريب .

(١٣) الدكتورة انتصار يونس ، السلوك الانساني ، دار المعارف بمصر ، مكتبة علم النفس ١٩٧٢ ، ص٣٣٥ .

(١٤) الدكتور عبدالله عبد الغني غانم ، مجتمع السجن ، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ١٩٨٥ ، ص٢٢٤ .

(١٥) الدكتور علي كمال ، الجنس والنفس في الحياة الانسانية ، دار واسط للنشر والتوزيع ، لندن ، ١٩٨٥ ، ص٢٣٨ .

(١٦) قانون العقوبات العراقي ، المادة ٣٨٩ ، مصدر سابق ، ص١٦٢ .

(* ٨) بعض المبحوثين اجاب بأكثر من سبب .

دور الوحدة في التحرير في عهد صلاح الدين الايوبي

د. صلاح ياسين داؤد الحديثي
كلية القانون / جامعة الموصل

«المقدمة»

ان مانشاهده في الاوضاع العربية من تمزق وتناحر وانهزامية وتردد مما يؤلم فهو اذا نظرنا اليه من الخارج وجدناه ناتجاً عن تركيز وتكثيف المخططات الاستعمارية الصهيونية– «وان معركة الوحدة هي اصعب معاركنا لانها هي الثورة الخالصة التي يضع فيها العرب جميع امكانياتهم . الثورة العربية التي لايعتمد فيها العرب الا على انفسهم هي معركة الوحدة في حين ان ثورة التحرر والثورة الاجتماعية تساندهم فيها قوى اخرى» (١) .

ولقد كان الظرف الذي مر به صلاح الدين الايوبي هو نفس مانشاهده الآن من تمزق وتناحر فكانت المرحلة تتطلب قائداً حريصاً على تصفية الحساب مع الامراء العرب والمسلمين من ذوي النزعات الاقليمية الضيقة .

ولم يقدم لنا التاريخ دراسة مجردة عنه بل انه ربط نشأته وفتوحاته ونظرياته بالوقائع والاحداث التي كانت قائمة في عصره ومجتمعه ومن ثم كان من الضروري هذا الترابط التاريخي وتقديم آراء صلاح الدين في الوحدة والتحرير وعلى ذلك فان الحكم على سيرة صلاح الدين بمعزل عن الواقع والاوضاع السياسية والاجتماعية التي نشأ فيها قد يقود الى الخطأ في الاستنتاج والتعسف في الحكم على مجريات الاحداث .

فالتاريخ قد صاحب مسيرة البشر منذ البداية وتعاقبت على اخباره حالات لاتخص من الوضوح والغموض والموضوعية في البحث في تقرير الوقائع فاختلطت فيها الاسطورة بالحقيقة وامتزجت فيها الرغبة الخفية أو الظاهرة في تمجيد الاحداث والرجال الذين

(١) المنهاج الثقافي المركزي –الجزء الأول– ص١٣١ .

صنعوها . والسبب في ذلك ان احياء الماضي الذي هو شأن المعرفة التاريخية جزء من تلك الرغبة الملحة والعميقة في مد طرفي الوجود عند كل جيل فهو من ناحية يجعل الجيـــل الحاضر يشعر بامتداده في الماضي ويستمتع به مفاخراً بما تحقق فيه من المنجزات وهو من ناحية اخرى يشعر هذا الجيل بان خروجه من الدنيا لن يخرجه من ذاكرة الاجيال القادمة.

ولكي تدرك المتاعب التي واجهها صلاح الدين الايوبي في ترسيخ النظام وتحمل مسؤولية الوحدة نذكر ان العديد من الامراء قد عارضوه في مسعاه في تحرير القدس ووصل الامر الى التحالف مع اعدائه والدخول معهم في حروب كما حصل مع امير الموصل وسنجار ولكن الشيء الثابت ان اعظم ماتميز به صلاح الدين هو قدرته الكبيرة على كسب القلوب وتعبئة الرجال . ليحقق الوحدة والتحرر .

وسأتناول في البحث : ـ

١ ـ اصول التكوين والصيرورة .

٢ ـ ملامح الفكر التعبوي والسوقي .

٣ ـ الوحدة طريق التحرير .

٤ ـ خطوات التحرير .

٥ ـ الخاتمة .

١ – اصول التكوين والصيرورة: –

مما هو واضح ان صلاح الدين الايوبي (٥) عاش ايام شبابه الاولى في كنف الدولة النورية التي عاصر قيامها الغزوة الصليبية الثانية على بلاد الشام (١) وقد كان والده آنئذ متولياً لحاكمية دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ثم بعدها تولى امر ولاية بعلبك وهناك كان صلاح الدين يتلقى المزيد من الرعاية والاهتمام والتدريب على فنون القتال والفروسية باعتباره ابن والي المدينة (٢) فضلاً عن مرافقته للقائد نور الدين محمود زنكي (٣) وملازمته لعمه (اسد الدين شيركوه) وهو من احد قادة الجيش النوري . كما ان نور الدين زنكي كان يرسله في العديد من المهمات الخاصة بمسيرة الدولة (٤) كذلك فقد رافق نور الدين في تلقي الدروس من العديد من الشيوخ والعلماء خاصة قطب الدين النيسابوري (٥) .

(١) انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق (القاهرة ١٩٠٨م) ص٢٨٨ دريد عبد القادر وآخرون الوطن العربي والغزو الصليبي (الموصل ١٩٨١) ص١١٦–١١٧ .

(٢) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي (بيروت ١٩٧٣) ص ١١٨ السيد الباز العريني، مصر في عصر الايوبيين (القاهرة د/ت) ص٢٤ .

(٣) نور الدين محمود زنكي : هو ابن الامير عماد الدين امير مدينة الموصل وقد خلف والده في حكم الموصل والعديد من مناطق الجزيرة والشام وقد افتتح مدينة دمشق سنة ٥٤٩هـ وضمها لحكمه وحاول تشكيل اول وحدة قوية لمقاومة الخطر الصليبي إلا انه توفي سنة ٥٦٩هـ صلاح الدين الذي اكمل مهامه وحقق طموحاته . انظر البنداري سنا البرق الشامي (بيروت ١٩٧١) ١/١٥٠–١٥٤ ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨م) : ٢٤٨/١ دريد الوطن العربي والغزو الصليبي ص١١٢–١١٦

(٤) ابن قاضي الكواكب الدرية في السيرة المنورية (بيروت : ١٩١٨) ص٤٢–٤٣ .

(٥) ابو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين الدورية والصلاحية (القاهرة : ١٢٨٨هـ) ١/ وللمزيد عن الشيخ قطب الدين النيسابوري انظر : ابن خلكان وفيات الاعيان (القاهرة ٤٩ د/١٩٦–١٩٧ .

(٥) هو صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شاوي بن مروان ولد في مدينة تكريت وفي نفس اليوم حمله معه والده الى مدينة الموصل سنة ٥٣٢هـ /١١٣٨م وقد عاش سبع وخمسون عاماً قضى معظمها في قتال الصليبيين وتوفي سنة ٥٨٩هـ في مدينة دمشق . للمزيد راجع ابن شداد سيرة صلاح الدين ص٦ أبن الاثير الكامل : ٩٥/١٢ أبن خلكان وفيات الاعيان : ٦/ ٢٠٠–٢٠٢ .

وهكذا يمكن القول بان صلاح الدين تربى على ايدي كبار اساتذة عصره فهو اضافة الى تردده على دور العلم . فقد تدرب عمليا على ايدي والده نجم الدين وعمه اسد الدين شيركوه والسلطان نورالدين محمود زنكي الذين كانوا ممن تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز على المستوى العسكري وفي مقاومة الغزو الصليبي لبلاد الشام . (١) ولذلك فلا عجب ان تولى صلاح الدين وفي وقت مبكر العديد من المهام القيادية منها رئاسة شرطة مدينة دمشق سنة ٥٦٠هـ – ١١٦٥م ، ونائبا لواليها تبعا لذلك وكانت مهمة النائب قيادة العسكر والمحافظة على النظام ، وقد نجح صلاح الدين في كل ذلك فاظهر السياسة واحكم الأمور (٢) وفي سنة ٥٦٤هـ – ١١٦٦م تولي صلاح الدين منصب رئاسة الوزارة الفاطمية في مصر (٣) فاظهر كفاءة ومقدرة تفوق الوصيف تمكن بهما من السيطرة على مقاليد الأمور بالديار المصرية وكان من نتائجها اسقاط الخلافة الفاطمية واعلان الأنضمام للخلافة العباسية (٤) وقد اصدر صلاح الدين بيانا قرىء على الشعب المصري من على المنابر في ٣ صفر سنة ٥٦٧هـ واوضح فيه سياسته العامة والتي تدل على عزمه وشدته في تنفيذ القوانين ومما جاء فيه : –

اولا: رفع المكوس الديوانية بمصر والقاهرة .

ثانيا: حرية التجارة براً وبحراً .

ثالثاً: على كافة القواد العسكريين والمسؤولين تنفيذ ذلك .

رابعاً: جعل صلاح الدين عقوبة المخالفين للاحكام الصادرة اعلاه الأعدام (٥) وبعد ان اصبح صلاح الدين اميراً لمصر ونائبا لنورالدين في حكم البلاد جائته العديد من الظروف

---

(١) ابو بكر جلال طه: صلاح الدين أسد القارتين (بغداد : ١٩٦٧ ص ٢١–٢٢.

(٢) انظر : دريد عبد القادر نوري: سياسة صلاح الدين الأيوبي بغداد ١٩٧٦ص ٧–٧٢.

(٣) المصدر السابق ص ٨٩– ٩٢ .

(٤) ابن شداد النوادر السلطانية (القاهرة ١٩٦٤ ص٥؛ البغدادي سنا البرق الشامي ١/١١١–١١٣.

(٥)انظر المنشور الذي اصدره صلاح الدين للشعب المصري بعد توليه امر مصر سنة ٥٦٧ هـ ابو شامة، الروضتين : ٢٠٥/١ ، ابن كثير البداية والنهاية– القاهرة ١٩٣٢: ٢٦٨/١٢

المواتية التي اهلته للقيادة كان من اهمها وفاة نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩هـ – ١١٧٤م وماالعقبها من تمزق في الجبهة الداخلية ، ذلك التمزق الذي تصدى له صلاح الدين بحزم والذي كسب بفضله محبة الشعب والخلافة العباسية لينتقل بعدها من قيادة مصر الى قيادة جبهة مصر والشام وبلاد الجزيرة بعد ان خاض حروبا داخلية ضد الأمراء الأقليميين مدة عشر سنوات (١) تمكن بعدها من تحقيق وحدة قوته وباسلوب قد تلائم وعصره واهدافه .

٢ – ملامح الفكر التعبوي والسوقي : –

يبدو واضحاً من سياسة صلاح الدين الأيوبي تجاه امراء الشام والجزيرة ان لصلاح الدين فكراً عسكرياً واضحاً كان يخطط لاتمامه بشكل دقيق وحازم وانه كان يسعى لتحقيق اهداف رسمها لنفسه متمشيا مع طموح ابناء شعبه كانت تنحصر بشكل خاص بموضوع الوحدة والتحرير ، وقد تجلى الفكر العسكري لصلاح الدين في الفترة الأولى (فترة الأعداد لبناء الوحدة) بالتأكيد على الجوانب التالية : –

اولا – التأكيد على وحدة الجيوش المقاتلة .

ثانيا : – التأكيد على عقائدية الجيش المقاتل (العقيدة العسكرية) .

ثالثاً : – رفض الأفكار والأعمال الأقليمية الضيقة والمصالح الشخصية للامراء .

رابعاً : – رفض فكرة التعاون مع الغزاة الصليبيين .

خامساً : – تعبئة الجبهة الداخلية (حشد القوى) .

ويظهر هذا الفكر العسكري واضحاً لصلاح الدين من الكتاب الذي ارسله للخليفة العباسي المستضيء بامرالله سنة ٥٧١هـ – ١١٧٥م وقد جاء في نصه « الخادم ينهي (اي صلاح الدين) ان الذي يفتتحه من البلاد ويتسلمه .. انما يعده طريقاً الى الأستنفار الى بلاد الكفار ...ولانختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لامتحاسدة بعتوها... وانما امور الحرب لاتحتمل في التدبير الا الوحدة : فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العدة » (٢) .

---

(١) انظر دريد، سياسة صلاح الدين ص١١٦–

(٢) ابو شامة، الروضتين: ٤٨/٢.

ويمكن ان نتتبع ذلك الفكر الوحدوي والعقيدة العسكرية ، والتصميم الأكيد لصلاح الدين الخاص ببناء وحدة متينة وجيش عقائدي قوي من اعداده لكل الشعب والمقاتلين نفسيا وماديا لخوض المعركة الحاسمة ضد الغزاة .

فبعد وفاة نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩هـ ــ ١١٧٤م لم يكن بين رجال البيت الزنكي من يشار اليه بانه يصلح ان يكون خلفاً لنور الدين الذي لم يترك سوى طفلا في الحادية عشر من عمره اسمه اسماعيل (١) كذلك لم يكن بين الأخوين الزنكيين سيف الدين غازي (امير الموصل) وعمادالدين (امير سنجار) (٢) وفاق وكان كل واحد منهما لايرى في طاعة الثاني مصلحة له (٣) وقد وصف العماد الأصفهاني كاتب نورالدين ومرافقه ذلك التناحر بين الأمراء الزنكيين واضطراب الأحوال السياسية بين الأمراء بقوله (كانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يتبعون ماابرموه امس في يومهم بنقض .. وكم عقدوا ما حلوه وحلوا ماعقدوه) (٤) .

ولذلك لم يكن من المتوقع ان يحتل احد هذين الأخوين مكانة عمه نورالدين كما لم يكن من المنتظر ان تبقى منطقة الجزيرة والشام محافظة على وحدتها وقوتها خاصة وان الأمراء والضباط الكبار في جيش نورالدين دخلوا فور وفاة سيدهم في تنافس على وصاية ابنه الصغير الملك الصالح (٥) .

وفي هذه الفترة بالذات توسع الخطر الصليبي في بلاد الشام واصبح ذا تأثير كبير في سير الأحداث في السياسية المنطقة ، فقد هاجموا بانياس في اخر شوال سنة ٥٦٩هـ مايو ١١٧٤م

---

(١) ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨هـ : ١٠/ ٢٤٨ ٢٤٩ المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة : ١٩٣٩) : ١/٥٥-٥٦ .

(٢) سيف الدين غازي وعماد الدين : هما ابناء قطب الدين مودود بن زنكي امير الموصل وهما ابني اخي نور الدين محمود . توفي الاول سنة ٥٧٦هـ وتوفي الثاني سنة ٥٩٤هـ ولمعرفة المزيد عنهم انظر : ابن الاثير الكامل ٣٥٥/١١ ، ٣٦٢-٤٠٦ وجـ١٣٢/١٢ .

(٣) ابن الاثير الكامل في التاريخ : ١٦٧/١١ .

(٤) البنداوي ، سنا البرق الشامي ١٥٩/١-١٦٠ .

(٥) جب ، صلاح الدين ، ص١٢٢ .

وهادنهم اميرها ابن المقدم على ان يؤدي اليهم مبلغاً من الأموال وان يطلق سراح اسراهم(١) ومن الواضح فانه لم يكن بمقدور الملك الصالح ولاسيف الدين غازي ولا الأمراء المحليون ان يجابهوا الخطر الصليبي على انفراد (٢) خاصة وان الأمدادات الأوربية لم تنقطع عن الغزاة في بلاد الشام لذلك اصبح واضحاً ان يتقدم احد امراء نور الدين الأقوياء ليملاء الفراغ ويوحد الكلمة ويجمع الصف .

وقد كان صلاح الدين في هذه الفترة يملك قوة كبيرة من العدد والعدة فهو امير لمصر الغنية والقوية الواسعة وقائد لعدة فرق عسكرية (٣) ولذلك احس صلاح الدين بانه الوارث الحقيقي لنورالدين وان من واجبه اعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة ومواصلة السياسة التي بدأها نورالدين والهادفة الى توحيد البلاد وتحريرها من الغزاة خاصة وان بلاد الشام والجزيرة واقعة تحت عدة زعامات وهي بأمس الحاجة الى الوحدة فمدينة دمشق اجمع امراؤها على اعطاء القيادة فيها لولد نورالدين الطفل (الملك الصالح (اسماعيل) تحت وصاية الأمير شمس الدين بن المقدم (٤) اما مدينة الموصل فقد استقل بها الأمير سيف الدين غازي ثم تقدم للسيطرة على منطقة الجزيرة ، فقد احتل نصيبين والخابور ثم حاصر منطقة الحران والرها عدة ايام وملكهما . ثم اخيراً تسلم منطقة سروج والرقة من اميرهما مدعيا احقيته بالحكم (٥) .

وفي حلب تمكن حاكم قلعتها شاد بخت التعاون مع ابن المقدم المار ذكره بتدبير مؤامرة نقلوا فيها الملك الصالح من دمشق الى حلب (٦) ثم سيطروا بعدها على وصايته والقوا ، القبض على كل اصدقاء صلاح الدين والمخالفين لسياستهم واودعوهم السجن (٧) .

---

(١) انظر : ابن النديم ، وبدة الحلب في تاريخ الحلب (بيروت : ١٩٦٨) : ١٢/٣ وانظر Stevenson: The Crusaders in the East. Cambridge, 1907. 213.. Kame prod. Ahestory of EgyPtin the Middl ages London 1968 P. q199

(٣) انظر : دريد . سياسة ص ١٢٠-١٢١ .

(٤) انظر : ابن الاثير الكامل ١١ / ٤٠٥ ابن واصل مفرج الكروب ٢٩٢ البنداري سنا البرق ١/١٥٤

(٥) ابن الأثير، الكامل ٤٠٧/١١ ابن العديم زبدة الحلب ١١/٣-١٢.

(٦) للاطلاع على تفاصيل هذه المؤامرة انظر دريد سياسة ص١٢٩ - ١٣٢.

(٧) انظر بن العديم زبدة الحلب ١/٣ .

خاصة اخوة مجدالدين (٤) الذين كانوا من اعيان الدولة . ويبدوا انهم اهينوا من قبل قبل المتآمرين وانهم ضربوا بالايدي والأرجل (٥) وقد وصف المؤرخ الأصفهاني تلك الأعمال العدوانية بقوله (لقد شعثوا القلوب بما جنوه .. وتطاير من حلب الى مصر من نارهم الشرر ((٦) .

ان هذا الأضطراب السياسي في حلب ودمشق وبلادالشام عموماً جاء سببا ثانيا اضافة الى وفاة نور الدين – دفع بصلاح‌الدين الى التدخل في الأمور من‌اجل حسم الموقف ، لصالح طموحات الشعب العربي في الوحدة والتحرير . وقد جاء السبب الثالث ملحاً للتدخل عندما وصلت الأخبار الى صلاح الدين بان حاكم دمشق ابن المقدم عقد مع الغزاة الصليبيين وانه اطلق سراح اسراهم خوفاً منهم وحفاظا على مصالحه الأقليمية الضيقة (٧)

لقد استنكر صلاح‌الدين معاهدة الصلح مع الغزاة وكتب في الحال الى قاضي مدينة دمشق (شرف الدين بن ابي عصرون يحرضه فيها على الأستنكار ويقول له : لقد بلغني حديث الهدنة المؤذن بذل الأسلام وشين شريعة المصطفى (ص) وسيدنا الشيخ اولى من جرد لسانه في انكار هذا الأمر فان بلسانه تغمد السيوف وتتجرد الحقوق . (٨)

وهكذا كان لابد لصلاح الدين من حسم الموقف عمليا ويبدو فكره العسكري وبعد نظره المستقبلي عندما صرح لقادة جيشه بقوله(انا احق برعي العهود والسعي المحمود فاذا، استمرت‌ولاية هؤلاء تفرقت‌الكلمة المجتمعة...وانفردت مصر عن الشام وطمع اهل

(١) اخوة مجد الدين هم: علي ابن الداية وسابق الدين عثمان وبدر الدين الحسين الذين كانوا من اقرب اصدقاء نوار الدين وكان الجميع يظن انهم سيكلفون ولده الملك الصالح وكان على مقدرة كبيرة من الصدق والنزاهة اضافة الى انهم من اصدقاء صلاح الدين. انظر سنا البرق الشامي ١٦٣/١– ١٦٨. مفرج الكروب ٦/٢.

(٢) البنداري سنا البرق ١٦٥/١– ١٦٦ ابن العديم زبدة تأريخ حلب ١٤/٣– ١٥.

(٣) البنداري السابق ١٦٦/١.

(٤) انظر دريد سياسة ص١١٨ .

(٥) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان في تأريخ الأعيان (حيدر اباد الدكن) ١٩٥١: ٣٢٩/٨، شامة الروضتين: ٢٣٣/١.

الكفر في بلاد الشام (١) وقد اوضح المؤرخ ابو شامة نصاً لطيفاً حدد فيه هدف صلاح‌الدين في ارض الأسلام وذكر بانه عازم على تحرير القدس واعادة الوحدة التي كانت ايام نورالدين وان الأمراء الأقليميين وإنْ لم يساندوه في حربه ضد الغزاة فانهم من غير شك سيكونون مستعدين للتواطىء مع عدوه هذه فقال (ان يكونوا بنيانا فيعضدوه اذا سعى ويلبوه اذا دعا ولايقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس فان قعدت بهم العزائم واخذتهم في الله اومة لائم فلااقل من ان يكونوا اعوانا عليه يلقونه عن قصده حريصين على اتصال المكروه اليه (٢) .

ولما وجد ان الأمراء الأخرين مشغولين عنه كان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة ولذلك اعتبر تقدمه نحوالشام واجباره للحكام الأخرين بالانضمام تحت لوائه انما هو لخدمة الجها د في سبيل الله (٣) ولذلك ابتدأ بتحريك الرأي العام ضد اولئك الأمراء الرافضين لسياسته واستخدم علماء الدين لذلك الغرض فارسل كما مراول كاتبه الى الشيخ ابن ابي عصرون يطالبه منه تنبيه المسلمين ولاستنكار اعمال الخيانة الأعمال الأنفصالية . وقد كان آنئذ لعلماء الدين اثر كبير في اثارة عامة المسلمين . وقد جاء المحفز الأخير لصلاح‌الدين في التحرك من مصر الى بلاد الشام عندما كاتبه اهالي دمشق في نهاية عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م وطلبوا منه بالحاح التوجه اليهم من تحركات الصليبيين المشبوهة في المنطقة ودفعاً لتشتت المدينة ووقوعها بيد امراء حلب (٤) مما يدل على ان صلاح الدين اصبح في تلك الفترة معقداً لطموحات الشعب ومحط انظارهم والمنقذ لهم من الأخطار المهددة لهم في الداخل والخارج . وفي اوائل سنة ٥٧٠هـ – النصف الثاني من سنة ١١٧٤م تجهز صلاح‌الدين للسفر الى بلاد الشام ليقود من هناك عملياته الوحدوية التحررية. وقد كان من الطبيعي ان يقع الصدام بين صلاح الدين والأمراء الزنكيون ، لانه ليس من المعقول ان ينضم كل الأمراء الى صلاح الدين بالطريقة التي كان يراها صلاح‌الدين نفسه . وهكذا وقع على

---

(١) ابو شامة ، الروضتين: ١/٢٣٤.
(٢) السابق ١/٢٥٤
(3) Sivan, L'Islam et al Croisade. Paris, 1968, P-96
(٤) انظر : ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة ٦/٢٤– ٢٥.

عاهل صلاح الدين القيام بحملة اعلامية موسعة لافهام كل الأطراف المعنية باهدافه النبيلة وانه عازم على فتح بيت المقدس وان من لم ينضم اليه فانه من غير شك سيكون مستعداً للتواطىء مع عدوه ضده (١) .

اذن كان على صلاح الدين اعادة التسلح الخلقي بين ابناء جيله من خلال اعلانه للجهاد في سبيل الله . اي انه اخذ يعد الدولة الحرب بقيادتها وشعبها عن طريق توضيح الأهداف المستقبلية للامة والتي حددها صلاح الدين بالكتاب الذي ارسله للخلافة العباسية عام ٥٧١هـ اعلمها فيه اسباب تقدمه في مصر الى الشام ومن جملة ماجاء في ذلك الكتاب بقوله (وعرفنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الأسباب لفتحه واصر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعة والأثبتت عروقه وكانت همم القادرين بالقعود أثمه . وانا لا نتمكن بمصر منه لبعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب . واذا جاوزناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة واليد قادرة والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة) (٢) .

٣ ـ الوحدة طريق التحرير : ـ

بين صلاح الدين لمن يهمهم الأمر في عصره شعباً ومقاتلين وامراء ان الوحدة لازمة وان من لاينخرط فيها فان قتاله واجب جهادي كواجب مجاهدة الغزاة وقد ذكر صلاح الدين قوله (وماكنا بشهادة الله في قتال (الزنكيين) الا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حد السنان مضطراً في حكمه ((٣) .

كما بين صلاح الدين ان هدفه وقبل كل شيء هو وحدة الجيوش المقاتلة وانتمائها لقيادة عسكرية واحدة لخدمة هدف تحرير القدس . وقد جاء على لسان كاتب صلاح الدين القاضي الفاضل اشارة الى ذلك الهدف قوله (ولانختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لامتحاسدة بعتوها ولولا ان امور الحرب تصلحها الشركة لما عز عنه

---

(١) البنداري، سنا البرق ٦٩/١ .

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الأنشا (القاهرة ١٩٦٣) ٨٥/١٣.

(٣) ابو شامة الروضتين ٦٢/٢.

ان يكون كثير المشاركين ولااساءة ان تكون الدنيا كثيرة المالكين وانما امور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الاالعدة) (١).

وفي بداية صفر من سنة ٥٧٠هـ /٣ايلول سنة ١١٧٤م خرج صلاح‌الدين من مصر بحوالي سبعمائة فارس من معسكره متجها نحو مدينة دمشق وقد دخلها يوم الثلاثاء نهاية شهر ربيع الأخر من سنة ٥٧٠هـ الموافق ٢٨ تشرين الأول سنة ١١٧٤م بعد ان مر بالعديد من الحصون والقلاع التي انضمت اليه واعلنت استعدادها للتعاون معه (٢) علما بانالدمشقيين رحبوا به غاية الترحيب كذلك فان صلاح الدين عبر لهم عن حسن نيته وسلامة اهدافه واتبع سياسة حكيمة في مدينة دمشق كسب بها محبة الجميع واعطى من خلالها درسا عمليا للمدن العربية التي تنضم اليه من غير قتال فقد أصدر على الفور اوامره بانفاق الأموال وتوزيعها على الناس والمناداة بازالة المكوس وابطال المنكرات والضرائب التي احدثت بعد وفاة نورالدين محمود (٣) كذلك عمد صلاح‌الدين الى ارضاء علماء الدين وفقهاء المدينة لما لهم من اثر كبير في نفوس الناس فقد كان بيدهم بشكل اوبأخر الأعلام في المدينة. وقد مشى صلاح‌الدين الى دار قاضي القضاة (كمال الدين بن مشهرزوري) الذي كان بيده الأشراف على مدارس مدينة دمشق تعبيراً منه على احترامه للقاضي حيث اظهر له خاصة وللدمشقيين عامة صفاء نيته وحسن خلقه. (٤)

وقد كانت نتيجة اعماله تلك الترحاب الحار من قبل القاضي وعامة سكان المدينة. فالقاضي قال لصلاح الدين وسط تجمعات الحاضرين (طب نفسا فالامر امرك، والبلد بلادك) (٥)

---

(١) السابق ٤٨/٢

(٢) انظر ابن الأثير الكامل: ١١٧/١١ ابن العديم الزبدة ١٩/٣ البنداري سنا البرق الشامي ١٧٧/١-١٧٨.

(٣) ابو شامة، الروضتين ٢٣٦/١ ابن شداد النوادر السلطانية (القاهرة ١٩٦٤) ص٥٠ المقريزي السلوك ٥٨/١ عاشور الحركة الصليبية (القاهرة ١٩٦٣ ٧٤٣/٢.

(٤) انظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت د/ت: ٤٣/٤.

(٥) المصدر نفسه.

اي ان القاضي اعلن للدمشقيين عامة التسليم المطلق لصلاح الدين الذين اظهروا بدورهم السرور والمحبة له حيث توافدوا عليه بالمدح والثناء وقيلت في حقه القصائد الطويلة . (١)

اما المدن العربية الأخرى في بلاد الشام والجزيرة فلم تقف من صلاح الدين موقف دمشق الأيجابي وانما تصدت له بشتى الوسائل وخاصة مدينة حلب والموصل غير ان صلاح الدين تمكن في النهاية من أجبارها على الدخول في الوحدة سواء كان ذلك بالاسلوب العسكري اوالسياسي عن طريق الترغيب والترهيب . ففي سنة ٥٧٠هـ / ٥٧١هـ ١١٧٤م / ١١٧٥م دخل صلاح الدين حمص وحماه منتصراً ولم يلق مقاومة تذكر (٢) اما حلب والموصل فقد اتفق امراؤها على مقاومة صلاح الدين عسكرياً وتقدما لحربه .

وقد حدثت معركة بين الطرفين في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ / ١٣ نيسان سنة ١١٧٥م انتصر فيها صلاح الدين على خصمه بعد ان حاول لمرات عديدة مصالحتهم . واجتهد في ذلك .

كما ذكر المؤرخ ابن شداد (فما صالحوه ورووا ان الحرب معه خير وسيلة لنيل مقصودهم) (٣) غير ان امالهم خابت اذ ولوا مدبرين امام جند صلاح الدين(٤) ومما تجدر الأشارة اليه ان صلاح الدين كان يعامل خصومه من العرب معاملة اخوية وانسانية ويستخدم معهم كل الأساليب السلمية من اجل عدم اراقة دمائهم للاحتفاظ به ليوم الفصل مع الغزاة الصليبيين . فقد كان يراسل امراء حلب والموصل كل على انفراد من اجل فك ارتباطهم اوكان يطمع احدهم بالاخر ولما اغلقت ابواب السلام امامه قاتلهم من غير قسوة ثم كان يامر جنده بعد هزيمة اعدائه (ان لايتبع مدبر ولايقذف على جريح ثم انه كان يطلق من يقع في اسره منهم (٥) وقد عبر عن هذه السياسة الحكيمة المؤرخ الفرنسي شيفان بقوله (كان صلاح الدين يخاف ضرب الموصليين بقسوة لان دمهم واحد

---

(١) انظر نص العديد من القصائد التي قيلت في مدح صلاح الدين الأصفهاني خريدة القصر (دمشق ١٩٥٥. ق١/٣٢٩-٣٣٠ ابن اهنشاه مضمار الحقائق (القاهرة) ١٩٦٨ ص٢١ ١٣-٥. راجع بخصوص دخول حمص وحماة في وحدة صلاح الدين : دريد سياسة ص ١٥٠-١٥٤-٦. ابن شداد النوادر السلطانية ص٥١.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ١٢/٢٩٠

وقد استخدم الطرق النفسية حتى لايثير غضب المسلمين ضده وتراق الدماء بينهم) (١)

وبانتصار صلاح‌الدين على الموصليين والحلبيين توصل الطرفان الى صيغة اتفاق ايجابي كان الخطوة المهمة على طريق الوحدة والتحرير . ويمكن استخلاص شروط ذلك الأتفاق من نسخة اليمين التي ذكرها ابن الأثير والأصفهاني (٢) وابن واصل والتي يمكن صياغتها بما يلي : —

اولا: للجميع يدا واحدة ضد الغزاة الصليبيين .

ثانيا: لايجوز لاحد الأطراف نقض العهد .

ثالثاً: اذا نقض احد الأطراف العهد اوخالفه فالباقون يدا واحدة عليه حتى يرجع الى الوفاق الاان هذا الأتفاق لم يستمر طويلا لان امراء الموصل نقضوه بعد سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م مما دفع صلاح الدين الى محاربة الموصليين والتقدم بقواته نحو مدينة الموصل ومحاصرتها وقد تم له حصارها ثلاث مرات(٣)والتشديد على اهلها لاجبارهم على قبول الصلح والدخول في الوحدة وذلك لتتخذ من الموصل عوناً له بما تملك من قدرات طبيعية وبشرية لتحرير القدس وكذلك ليأمن صلاح الدين خطوطه الخلفية من اعدائه .

إذن فكر صلاح‌الدين باسلوب القائد الفذ ان امراء الموصل وحلب اذا لم يساندوه فربما يعاونوا اعدائه ضده. وعلى اقل احتمال فالاطمئنان لايكون عند قتال الأعداء في الشمال الابعد تامين الجبهة الجنوبية (الداخلية) وقد عبر صلاح الدين عن فكره العسكري هذا بكتابه الذي ارسله للخليفة العباسي والذي اوضح فيه ان حكام الموصل (لو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كنانة والكانت بلادهم له خزانة.. (وانه) يرجوا بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحله) (٤) .

---

(1) Sivan,I "(slma et la Croisade Ideologe et Propaganed dans les Reactions P. 98.

(٢)الكامل في التأريخ ٤٣١/١١ بأسنا البرق الشامي ٢١/٧/١-٢١٨ مفرج الكروب ٤٦/٢

(٣) للاطلاع على خطوات حصار صلاح الدين لمدينة الموصل والصلح عليها انظر: دريد نسب صلاح الدين ص٢٠٣-٢١٤-٢١٧؛ ٢٤١-٢٤٤

(٤) ابو شامة الروضتين ٤٩/٢.

هكذا أذن اعتبر صلاح الدين بان الموصل هي الطريق الموصل الى القدس واعتبر قتال حكامها من ذوي الاطماع الاقليمية الضيقة من مهام الجهاد في سبيل الله تعالى ولذلك الح في طلبها الى أن استسلمت لارادة الوحدة وانتهى الامر بالاتفاق التالي : الذي عبر بصدق عن عقيدة صلاح الدين العسكرية الهادفة الى استجماع العساكر لاغير من اجل التحرير وهو : —

اولا : يترك صلاح الدين لامير الموصل حكم البلاد والتصرف التام بالولاية .

ثانياً : ان تكون الخطبة باسم صلاح الدين في كل بلاد الموصل والجزيرة .

ثالثاً : على امير الموصل عز الدين مسعود أن يستعد بعساكره وان يكون بخدمة صلاح الدين متى استدعاه لمجاهدة الصليبيين وهذه هي أهم خطوة في الاتفاق جعلت القيادة العسكرية بيد صلاح الدين ودفعت بحاكم الموصل الى تعبئة قواه العسكرية لانتظار ساعة الصفر من صلاح الدين.

رابعاً : اتفق الطرفان على الحفاظ على المعاهدة ووقعت بنودها في ٩ ذي الحجة سنة ٥٨١هـ الموافق ١١٨٦/٣/٣ .

ومن الواضح فان صلاح الدين خلال الفترة السابقة تمكن من ضم كل مدن وقلاع الجزيرة وبلاد الشام لسلطانه — عدا تلك التي كانت محتلة من قبل الغزاة الصليبيين — واصبح بفضل تلك الوحدة قائداً توجهت اليه انظار ابناء جيله . رجو بفضل مقدرتـه وحسب سياسته أن يتحقق على يده الهدف الاكبر الا وهو طرد الغزاة الصليبيين من بلاد الشام وتحرير القدس. وفي هذا المجال لابد من الاستفسار عن ماهية الاسباب التي مكنت صلاح الدين من نجاح سياسته الوحدوية تلك الوحدة التي لولاها لما تحقق الهدف الثاني وهو (التحرير) وباختصار يمكن ان نتبين ذلك من خلال تفوق صلاح الدين على زملاؤه بحسن سياسته وفكره العسكري الثاقب. وتمكنه من استغلال ظرف عصره والمناداة بما كان يطمح به ابناء جيله ، يمكن ايضاً ان نتلمس بعض الجوانب الايجابية العمليه في سياسته تجاه العرب والمسلمين متمثلا بالملاحظات التالية : —

اولا: كان صلاح الدين يحدد اهدافه مسبقاً ويتخذ من الاسلوب العسكري التربوي طريقاً لتجميع الاعوان حوله فكان شعاره الذي يرفعه (الوحدة من اجل التحرير) و(الجهاد في سبيل الله(وكان يعبر عن كل ذلك في كل كتبه ومراسلاته لامراء المدن العربية والخليفة العباسي وعلماء الدين. ومن ذلك الكتاب الذي أرسله للخليفة العباسي سنة ٥٧١هـ والذي ذكر فيه بان (الذي يفتتحه من البلاد انما يعده طريقاً الى الاستنفار الى بلاد الكفار .. وانما امور الحرب لاتحتمل في التدبير الا الوحدة) (٢)

ثانياً: كان صلاح الدين يهدف بشكل عام الى كسب ارضاء جمهور الامة والاجناد ويسعى الى عدم التفريط بهم في كل الاحوال. عندما كان يصطدم عسكرياً ببعض القوات العربية المعادية او عندما كان يحاصر بعض المدن العربية التي لها مواقف انفصالية.

فكان في كل معاركه يأمر جنده بعدم استخدام العنف معهم او الهجوم بقوة على حصونهم كما كان يطلق سراح اسراهم كذلك اذا ماارادأن يفتح مدينة من المدن التي استعصت عليه فأنه كان يستخدم الطرق التالية لفتحها :—

(أ) كان يصدر قرارات الامان لكل من يستسلم بدون قتال على شرط ان تكون العسكر واحده عند المنصرة ضد العدو الخارجي كما حدث ذلك لاهالي حصن كيفا(٣)مثلا:

(ب) كان صلاح الدين يالقي بواسطة السهام رقاع يكتب عليها عبارات الترغيب والترهيب الى داخل الحصون الممتنعة لدفع اهلها الى طلب الاستسلام بعدها يحدث بين صفوفهم اضطراباً نفسياً كما حدث ذلك عندما فتح صلاح الدين حصن آمد (٤).

---

(١) انظر بخصوص معاهدة صلاح الدين وحكام الموصل ابن شداد النوادر ص٧٠ ابن الأثير الكامل ٥١٧/١١ ابو شامة الروضتين ٦٤/٢ المقريزي السلوك ٩٠/١ ابن واصل مفرج الكروب ١٧٢/٢ ابن خلدون التأريخ ٥٨٢/٥-٥٨٣.

(٢) ابو شامة ، الروضتين ٤٨/٢.

(٣) جاء في الكتاب الذي ارسله صلاح الدين لحاكم حصن كيفا (من جاء مستسلماً سلمت بلاده على ان يكون من اجناد السلطان واتباعه ومساعديه في جهاد الكفرة) ٣٢/٢الكامل ٤٨٣/١١

(٤) انظر الكامل: ٤٩٤/١١ مفرج الكروب ، البداية والنهاية ٣١٣/١٢.

(ج) كان صلاح الدين يظهر للمدينة القوية المحصنة بانه انما جاء يتدبر بقربها وانه عازم على الاستقرار الدائم بجوارها مما يدفع بمن داخل المدينة الى طلب الامان او السعي من اجل الوصول الى الصلح .لانهم لايستطيعون الاستمرار ابغلق ابواب مدنهم بوجه صلاح الدين المحاصر بقواته الضخمة لهم. حدث ذلك فعلا عندما حاصر صلاح الدين مدينة حلب سنة ٥٧٩هـ حيث لم يعمد الى مهاجمة المدينة او الاضرار باهلها وممتلكاتهم (لانهم اخوته واليد التي يقاتل بها اعدائه الغزاة مستقبلا) . (١)

(د) وفي بعض الاحيان كان صلاح الدين يقدم بعض التنازلات ويمنح الاموال الوفيرة لامراء بعض الحصون من اجل فتح حصونهم سلماً من دون قتال كما حدث ذلك عند محاصرته لحصن حارم وميا فارقين. (٢)

(هـ) واحياناً اخرى كان صلاح الدين يلجأ الى الاساليب السياسية فيعمد الى التحالف مع بعض الامراء ضد الامراء الاخرين ليضعف من قوى الخصم ويدفعه الى طلب الاستسلام وقد جرب صلاح الدين هذا الاسلوب عندما حالف عماد الدين امير سنجار ضد أخيه عز الدين حاكم الموصل . (٣)

ثالثاً: كان صلاح الدين اذا أفتتح حصناً أو مدينة عربية لايشترط أهلها في شيء سوى أن يكون العسكر تابعاً له في اوقات الازمات بينما يترك المدينة لاهلها مع كل اموالهـ ومتاعها وكان شعاره دائماً (نحن نريد من المدن شوكتها لازهرتها) ومن امثلة ذلك مدينة حلب التي أفتتحها سنة ٥٧٩هـ ولم يشترط على حاكمها عماد الدين سوى ارسال العساكر في الخدمة للغزاة .. والمظاهرة والحضور في مواقف الغزو) (٤)

رابعاً: كان صلاح الدين اذا دخل حصناً او مدينة عربية من مدن الشام والجزيرة يعلن العفو العام عن اهل ذلك المكان . وقد حدث ذلك لمدينة دمشق وهذه السياسة الحسنة دفعت بكثير من الحصون الى الاستسلام اليه لعلمها مسبقاً بان صلاح الدين سوف يكرمها ولا

(١) انظر الكامل: ٤٩٥/١١ الروضتين ٤٢/٢.

(٢) انظر ابن واصل مفرج الكروب ١٤٦/٢– ١٤٧ ابن العديم. زبدة الحلب ٧٠/٣..

(٣) انظر : دريد سياسة ص ٢٢٢– ٢٢٤.

(٤) ابو شامة الروضتين ٤٣/٢ ، ٤٨

يعتدي على احد فيها وقد اتخذ هذا الموقف حاكم حصن حيفا وحاكم عكا سنة ٥٧٨هـ(١)

٤ – خطوات التحرير : –

تبين من قبل ان صلاح الدين الايوبي بقي اكثر من عشر سنوات (٥٧٠ – ٥٨١هـ) (١١٧٤ –١١٨٥م) يعمل من اجل تحقيق الوحدة واعداد العدة قبل ان يبدأ بمرحلة التحرير وقد نجح في مسعاه وانتصر على كافة مناوئيه بفضل حسن تدبيره السياسي والعسكري وتمكنه من استغلال الظروف المواتية التي كان يعيشها المجتمع العربي انذاك والمناداة بما كان يطمح اليه جمهور الامة في الوحدة والتحرير . ومن الجدير بالذكر فان صلاح الدين لم يقف من الغزاة الصليبيين موقفاً حاسماً في فترة بناء الجبهة الداخلية المار ذكرها وقد تميز فكره العسكري تجاه الغزاة بطابع اللين والمهادنة . وذلك من اجل تجميع القوى والاعداد للمعارك الفاصلة في المستقبل القريب وقد حدثت له مع الغزاة عدة مواقف عسكرية وسياسية تمثلت بهجوم الصليبيين على مدينة الاسكندرية وفشلهم (٢) وانهزام صلاح الدين في معركة الرملة (٣) وانتصاره في من عيون وحصاره المتكرر لحصن الكرك ذي الموقع العسكري المهم (٤) وقد تخلل تلك الفترة عقد العديد من المهادنات الموقته استخدمت لمشاغلة العدو ولتجميع القوى وبعد ان تم لصلاح الدين ما اراد تقدم لتصفية حسابه مع الغزاة تصفية جادة . وقد كان كل شيء معداً له عند نهاية سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م غير انه كان ينتظر الفرصة الملائمة للهجوم على العدو وربما اراد صلاح الدين الا يدفع بقواته لقتال لايعلم نتائجه فقد تكون عاقبة الحرب وخيمة ولذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب دفعاً ولا يكون هو المسؤول وحده عن نتائجها . وقد جاءت الفرصة مواتية لصلاح الدين عندما نقض البرنس ارناط (حاكم حصن الكرك الصليبي) المعاهدة التي عقدها مع صلاح الدين والتي تعهد فيها بعدم الاعتداء على المسلمين . غير انه غدر بقافلة تجارية عربية وسيطر على حمولتها الكبيرة وهي في طريقها الى بلاد الشام من مصر . (٥)

(١) انظر : سنا البرق الشامي ١/١٦٦–١٦٧، مفرج الكروب ٢/٢٥–٢٨ السلوك ١/٥٨.

(٢) انظر دريد سياسة ص ٢٦١– ٢٦٤.

(٣) السابق ص ٢٦٩–٢٧٣.

(٤) انظر : ابن الأثير الكامل ١١/٤٥٦ ابو شامة الروضتين ٢/٩.

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية: ص٧٤–٧٥، الأصفهاني الفتح القسي ص ١٣

وقد كان صلاح الدين عند ذلك بمدينة دمشق فارسل على الفور باستدعاء العساكر فاتته من كل المدن والاطراف التي دخلت ضمن وحدته من بلاد الشام والجزيرة وتقدم بهم نحو الاردن يوم الجمعة ١٧ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ وكانوا زهاء اثني عشر الف مقاتل فاستعرضهم ورتبهم اطلابا (١) ثم اخذ يعين مواقع القتال ومواقف الامراء والقادة ثم نزل على بحيرة طبرية عند قرية الصبيرة التي وضع فيها خططه العسكرية مستعيناً بمواقع الارض والرجال (٢) .

وقبل التطرق إلى طبيعة الفكر العسكري لصلاح‌الدين والخطط التي اتبعها تجاه الغزاة لابد لي من الاشارة إلى مسألة هامة وهي ان صلاح‌الدين لم يتمكن من تحقيق انتصاره على العدو لولا نجاحه في اتمام الوحدة وتعبئة الجبهة الداخلية مادياً ومعنوياً ... الا انه يجب الا نبالغ كثيراً في تضخيم الموارد التي حصل عليها صلاح‌الدين من المدن العربية والمناطق التي انضمت لوحدته . لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ويخدم وجهة نظر الغزاة من ناحيتين : اولهما : انه يبرر خسارة الصليبيين امام صلاح الدين وثانيهما : انه يقلل من اهمية انتصارات صلاح الدين .

وكثيراً ما ذكرت بعض المراجع الغربية والعربية وصفاً لا يخلو من مبالغة كبيرة في تعداد الطاقات البشرية والاقتصادية التي اصبحت بحوزة صلاح‌الدين قبيل معركة حطين من دون ذكر للطاقات الكبيرة جداً التي كانت بيد الصليبيين . اضافة إلى مبالغتها بذكر الضعف الذي انتاب مملكة بيت‌المقدس الصليبية . مما يوحي بان انتصار صلاح‌الدين كان هيناً لتفوقه بالعدة والعدد وانه قاتل قوة صغيرة وضعيفة (٣) .

---

(١) الأطلاب : جمع طلب وهي كلمة كردية معناها الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال واحياناً كانت تطلق على قائد المائة. ثم اصبح مدلولها يطلق بعد ذلك على الكتيبة انظر المقريزي السلوك (تحقيق مصطفى زيادة) هامش رقم (٢) ٢٤٨/١ .

(٢) انظر : النوادر السلطانية ص ٧٥-٧٦ مفرج الكروب ١٨٧/٢

(٣) كمثال لمبالغة بقوة صلاح الدين وطاقاته في مقابل قوة الصليبيين راجع غرابية العرب والترك (دمشق ١٩٩١ ص ٢٤) وانظر ايضاً عاشور الحركة الصليبية ٧٦٥/٢ فيشر تأريخ

ولو تفحصنا المصادر العربية والغربية الخاصة بموضوع حروب صلاح‌الدين لتبين من غير مبالغة — بان الموارد والطاقات البشرية والمادية التي كانت بيد الصليبيين لهي اكبر بكثير مما كان بيد صلاح‌الدين . نظراً لان معظم دول اوربا كانت مشاركة في الحرب ضد صلاح‌الدين وانها كانت تمد الغزاة في بلاد الشام بخيرة ابطالها ورجالها ومعداتها . والتي كانت تضم ملك المانيا وفرنسا وبريطانيا وامراء ايطاليا والبندقية وكل طاقات الكنائس الاوربية رجالها حتى ان ريتشارد بحث عمن يشتري منه مدينة لندن لينفق اموالها في الحرب ضد صلاح الدين .

في الوقت الذي كان صلاح‌الدين يحارب بعساكر مصر والشام وبلاد الجزيرة فقط بمدنها الاساسية (دمشق وحلب والموصل واربيل وسنجار والقاهرة) علماً بان الخلافة العباسية كانت آنئذ ضعيفة ولم تقدم اية مساعدات لصلاح‌الدين سوى بعض الحمولة من النفط الخام (١) .

على اية حال فالموقف العسكري بين صلاح‌الدين والغزاة الصليبيين تأزم بشكل كبير واعلن كل طرف التعبئة العامة فصلاح‌الدين كما مر حشد ما يقرب اثني عشر الف مقاتل اما الصليبيون فقد اجتمعوا واصطلحوا واحتشدوا عند صفورية وكانوا في خمسين الفاً(٢) وقيل في اربعين الفاً(٣)وصفورية كما هو معروف غنية بمياهها ومواردها الغذائية ومراعيها(٤) اي ان الصليبيين عسكروا في منطقة جيدة صالحة لان تكون موضعاً عسكرياً فيه من الظروف التعبوية ما يساعد على استمرار قتال صلاح‌الدين الذي كان بدوره قد عسكر في منطقة الصنبرة قرابة بحيرة طبرية (٥) وفي هذا الموقع من الاهمية الكبيرة حيث السيطرة عليه تحول بين الصليبيين وبين الانتفاع من مياه نهر الاردن والابار القريبة الاخرى (٦) .

(١) انظر : سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ق ١ :/١/ ٤٠١ .

(٢) المقريزي : ١/٦٢، العليميه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجا: ٩٦٨) ١/ ٣٢٠

(٣) اليافعي : مراة الجنان وعبرة اليقظان (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات: ١٩٧٠) ٣/ ٤٢٤ .

(٣)

(٥) حدد موضع ياقوت الحموي بأنها تقل بالأردن وانه بينها وبين طبرية مسافة ثلاثة اميـال (معجم البلدان ٣/ ٤٢٥)

(٦) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة : ٦/ ٣٢ .

ويبدو ان صلاح الدين كان يعرف مسبقاً خططه ويعي اهدافه وانه كان يسعى لاجبار الصليبيين على الخروج اليه مجتمعين بعيداً عن منطقة صنورية لينزل بهم الضربة الكبيرة فقد ارسل من منطقة الصنبرة الكشافة والعيون لجمع المعلومات عن تحركات العدو واسلحته ثم هاجم ببعض قواته مدينة طبرية التي كانت محتلة من قبل الصليبيين لمشاغلة قواتهم واجبارهم على الخروج من صفورية إلى حطين (١) ذلك الموقع الذي هيأه صلاح الدين لصالح قواته. فقد ردم كل الابار والصهاريج الواقعة قبالة جيش العدو ولم يبق منها الا ما هو واقع في حضرة قواته (٢) وهناك كان صلاح الدين كما ذكر الاصفهاني كاتب صلاح الدين ومرافقه — يسهر الليل ويعين مواضع القتال لاجناده ويأمر بملأ الجعاب وكنائفها بالنبال حتى انه فرق من النشاب اربعمائة حمل كما عين سبعين موضعاً ملاها بالنشاب ليقصدها من عسكره من خنت جعابه منها (٣).

ان تحرك العدو لملاقاة صلاح الدين معناه محاصرتها بعيداً من الماء اضافة إلى مكابدتها عناء الطريق ويكون عندها صلاح الدين بقواته مستعداً للانقضاض على العدو وتدميره وهكذا سر صلاح الدين بنباء تقدم قوات العدو نحوه هتف قائلا — على حد قول المؤرخ الاصفهاني (قد حصل المطلوب وكمل المخطوب وجاءنا ما نريد) (٤) اذ صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع) (٥).

وفي صباح يوم الجمعة ٢٤ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ/ ٣ تموز ١١٨٧م وصل العسكر الصليبي جبل طبرية في منطقة تعرف باللوبيا فاسرع صلاح الدين إلى التقدم نحوهم والاصطدام بهم قبل ان ينتقلوا إلى موقع اخر يتحصنون فيه لان المنطقة التي وصل اليها الصليبيون كانت ارضاً مكشوفة خالية من كل شيء عدا حرارة الشمس المحرقة والحصى والرمال(٦).

---

(١) انظر الروضتين ٢/٧٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل ١١/٥٣٤.

(٣) ابو شامة، الروضتين ٢/٧٦.

(٤) الفتح القسي، ص٧٧.

(٥) ابو شامة الروضتين ٢/٧٦.

(٦) انظر ابن الأثير الكامل. ١١/٥٣٦.

وقد كان صلاح الدين قد ردم في هذه المنطقة صهاريج المياه وحال بين الصليبيين ومياه طبرية كما مر ولذلك وجد الصليبيون من العطش كثيراً مما اظهر حكمه صلاح الدين ونجاح خططه حيث بفضل مقدرته تلك من جلب اعدائه إلى حتفهم .

لقد كانت القوات الصليبية اذن محتشدة قرب قرية اللوبيا وكان لابد لها من اتخاذ موقف عسكري ملائم من اجل خلاصها وكانت قواتهم مقسمة إلى ثلاث فرق وضعت قيادته بيد الامير ريموند حاكم امارة طرابلس الصليبية بينما تولى الملك جي اوسينيان (٥) قيادة القلب اما الامير ارناط حاكم حصن الكرك والفرسان من الصليبيين الرهبان فقد تولوا مؤخرة الجيش وحمايته (١) .

وقد امطر الرماة الكمناء من قوات صلاح الدين مؤخرة الجيش الصليبي بالسهام وتمكنوا من قتل عدد كبير من خيولهم وفرسانهم (٢) مما دفع بالمؤخرة إلى التلاحم قليلا مع الفرق الاخرى ليزداد حصارها بشكل اكبر . ومن ناحية اخرى فقد كانت القوات العربية تشاغل الصليبيين طوال النهار بهجمات صغيرة من هنا ومن هناك حتى حل الليل فلم يجد الصليبيون انفسهم الا وهم على هضبة حطين بعيداً عن المياه وقوات صلاح الدين في سهل حطين تحاصرهم وهي واقفة لهم بالمرصاد تضرب وبقسوة من يحاول منهم التسلل عبر القوات العربية للحصول على الماء (٣) .

كذلك وقد قام بعض مقاتلي صلاح الدين باخراج النار في هشيم الحشائش المتبقية من حصاد الصيف فتأجج لهب النار والدخان على العدو مما اوقع اضطراباً اخر في قوات الصليبيين وخيولهم (٤) مما دفعهم وبارباك إلى تعجيل الاصطدام بقوات صلاح الدين لانقاذ انفسهم من هذا المأزق . وقد تعجل الامير (ريموند) ابتداء فاصطدم ببعض قوات صلاح الدين

---

(١) رنسيمان، تأريخ الحروب الصليبية (بيروت ١٩٦٨) ٢/٧٣٧.

(٢) ابن الأثير الكامل ١١/٥٣٥.

(٣) انظر : ابن واصل مفرج الكروب ٢/١٩٠.

(٥) الملك جي او جفري هو الملك جاي لوزجنتان ملك بيت المقدس الصليبي وقد اطلقت عليه المصادر العربية القديمة التسمية الثانية (الملك جفري) وقد تولى الملك بعد وفاة بلدوير الخامس ١١٨٦م انظر

(٤) ابن شداد النوادر ص ٧٧ سبط ابن الجوزي مراة الزمان ٨/٣٩٣ .

lane pool, Saladin PP. 197–198

فافسح له تقي الدين عمر مجالا ضيقاً فخرج منه من الحصار ببعض قواته ثم لم تلبث قوات صلاح الدين ان التحمت مع بعضها . وكان ريموند يظن ذلك نصراً وهو مكيدة له اذ حالت القوات العربية بينه وبين فصائل القوات الصليبية الاخرى المحاصرة مما اضطره إلى الهرب والعودة إلى امارة طرابلس (١) انه مات هناك كما ذكر . هما لان اصحابه اتهموه بالخيانة والهرب من ساحة المعركة .

لقد ثبط عمل ريموند هذا من عزائم الصليبيين اذ خسروا احد قادة فرقهم مع بعض فرسانه وكان صلاح الدين انئذ يحكم الحصار على اعدائه ويطبق عليهم من كل جانب فقد احاط بهم احاطة الدائرة بقطرها (٢) فاندفع الصليبيون إلى اعلى التل فربما تكون هناك نجاتهم وتمركزوا حول ملكهم جي وخيام قياداتهم المنصوبة هناك . ثم قرروا الاستبسال في القتال والخروج من طوقهم المحاصرين فيه (٣) .

وهكذا نزل الصليبيون مسرعين في نهار السبت ٢٥ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ/ ٤ تموز سنة ١١٨٧م يحدوهم الامل بالنصر إلى حصون حطين وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً عظيماً بعد ان كان قد احرق تحت اقدام عدوه الاعشاب . (فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال) (٤) وقد بقي جيش صلاح الدين وقائده في اقوى عزيمة ورباطة جأش من القتال رغم شارات النصر الواضحة وكان صلاح الدين يستشير اصحابه ويراقب الموقف بحزم ويتطلع إلى معنويات مقاتليه فيثير فيهم الهمم العالية ويدفعهم إلى استمرارية القتال حتى تصفية كل بقايا الصليبيين . فربما ينقلب النصر إلى هزيمة وربما يصاب المنتصرون بالغرور فينتكس انتصارهم . فالملك جي بقي لوحده مع مائة وخمسين فارساً من قواته قرب خيمته الوحيدة وصلاح الدين يأمر بالقتال الحاسم وينادي بـ (الله اكبر) بأعلى صوته وكانت المعركة على اشدها ولم يهدأ له بال حتى سقطت تلك الخيمة واسر الملك الصليبي .

---

(١) انظر ابو شامة الروضتين ٢/٧٧.
(٢) ابن الأثير الكامل ١١/٥٣٥.
(٣) الأصفهاني الفتح القسي ص ٧٦.
(٤) ابن الأثير الكامل ١١/٥٣٦.

وقد اشاد المؤرخ العربي ابن الاثير بحزم صلاح‌الدين وعزمه في هذه المعركة وسجل لنا ما شاهده من قصة صلاح الدين وولده البكر الملك الافضل نورالدين الذي كان مرافقاً لوالده صلاح‌الدين في المعركة فذكر ان الافضل كان بجانب والده وسط المعركة ولما شاهد صلاح‌الدين تقهقر بعض افراد قواته صاح باعلى صوته (كذب الشيطان .. كذب الشيطان) فعادت قواته بمعنوياتها العالية تهزم العدو ، ولما شاهد الافضل هذا الموقف صاح من فرحته (هزمناهم ... هزمناهم) فالتف اليه والده صلاح‌الدين وقال له (اسكت ماتهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة) (١) يعني خيمة الملك الصليبي جي . وفي اثناء ذلك سقطت الخيمة فترجل صلاح‌الدين وسجد على الارض شكراً لله تعالى وبكى من فرحه وثبت انتصاره .

وكان من نتائجه قتل عدد كبير من جيش عدوه واسر مقدميهم وكان منهم الملك جي (جفري) والذي فقد فرسانه كما اسر البرنس ارناط واخا الملك وابن الهنفري وابن حاكمة طبيبه ورؤساء الفرسان من الرهبان وحاكم جبيل ولم ينج الا القومص الذي هرب إلى طرابلس اول المعركة ، وقد نال المعتدين جزاءهم وعامل صلاح الدين جي بالاحسان اكراماً لمركزه (٢) وهكذا كان لوجود صلاح‌الدين وابنائه وسط ساحة المعركة والخطط العسكرية الجيدة والمعنويات العالية التي تحلى بها جند صلاح‌الدين اثره الواضح في هذا الانتصار . وعليه فلم تكن الهزيمة التي اصابت الصليبيين نتيجة ضعف او فساد كان فيهم وانما كانت قياداتهم ضعيفة وقابلهم جيش موحد له قائد محنك هو صلاح‌الدين (٣) انتقلت صفاته ومقدرته إلى السنة الاوربيين في العصور الوسطى وكانت حديث الساعة وقد اضفى عليها بعض اساليب الاسطورة الادبية (٤) .

ولذلك ايضاً فان انتصار صلاح‌الدين هذا لم يكن نتيجة لضعف القوات الصليبية او لقلة عددهم وانما للخطة العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التي اتبعها صلاح‌الدين في اعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها . فقد أحسن اختيار الارض وزمن وقوعها الذي

---

(١) الكامل في التأريخ ١١/٥٣٦

(٢) ابن شداد النوادر ص ٧٧–٧٨ المقريزي السلوك ١/٩٣ ابن النديم زيدة الحلب ٣/٩٣–٩٤

(٣) انظر ، شعلة الأسلام ص ١١١ هامش رقم ٣

(4) Daniel, Islam and the west (Edinburgh, 1966, P 240

كان شهر تموز اشد اشهر السنة حرارة واقله ماء في الصهاريج اضافة إلى انه خيم بعسكره على طبرية وبذلك اصبح بقواته حائلاً بين الصليبيين وبين الماء ولا يخفى كذلك فان وجود القائد في المعركة تدفع بالجند إلى الاستماته في القتال علماً بأن المقاتل العربي كان يقاتل بعقيدة وهدف (١) وكما هو واضح فالجندي الذي لا يعرف (لماذا يقاتل) لا يعتبر مقاتلا صالحاً ، وكان صلاح‌الدين وجنده – كما بدى – يقاتلون بعقيدة واضحة سلوك سليم . فالجميع يعرف أن الاعداء غزاة وانهم جاءوا من ارض اجنبية وسيطروا على بلادهم والجميع كانوا ايضاً يقاتلون بروح عالية مستمدة مفاهيمها من روح الجهاد الاسلامي فيندفعون إلى الموت من دون تردد ، فقد كانوا يستميتون في القتال من غير ان يدفعهم اليه احد بل كانوا احياناً يمنعون عن الهجوم المستمر خوفاً عليهم من الاستشهاد من غير مبرر ، بينما هم طواعيه يقاتلون وقد وصف المؤرخ ابن الاثير ذلك القتال وتلك الروح العالية بقوله (كانوا يرونه ديناً وحتماً واجباً ، فلا يحتاج إلى باعث سلطاني . بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون (٢) .

لقد دلت معركة حطين من دون شك ومبالغة ايضاً على مقدرة صلاح‌الدين العسكرية وحسن قيادته وتخطيطه المحكم والمسبق لها ، وقد اوضح المؤرخ الانكليزي (روزبلت) هذا الموقف بقوله (لم يكن ثمة نصر كامل او نتائج مثمرة كما حدث في حطين ولم يكن ذلك النصر الكامل الا نتيجة الخطة الجيدة والقيادة القوية((٣) فقد كان صلاح‌الدين طوال المعركة ونهارها وسط جنده يثير فيهم الحماس يعين لهم مواضع القتال ويقرر (لكل امير اميراً ولكل مقدام مقاماً ... ولكل كمين مكاناً ولكل رام مرتمي ولكل امير موقفاً في الميمنة والميسرة ولا ينتقل عنه) (٤) كما كان يحدد مواضع النبال ومواقع الرماة (٥) .

---

(١) العقيدة العسكرية : مايملأ قلب الجندي ويحدد سلوكه وهي التي تحدد الاجابه عن السؤال : لماذا اقاتل ؟ للمزيد عن العقيدة والهدف في المعركة راجع : محمد جمال الدين محفوظ مفاهيم عسكرية وقومية (الدار الوطنية للطباعة والنشر : ١٩٦٥ ص٨– ١٠.

(٢) الكامل في التأريخ ١١/٥٤٧

(3) Raseboult, Saladur Pruce of Chivalry lerudau 1930 p. 182

(٤) الأصفهاني : الفتح القسي ص ٦٩–٧٠

(٥) ابو شامة، الروضتين ٢/٧٦

لم يكن انتصار صلاح الدين في حطين انتصاراً معركة فحسب وانما كان انتصاراً موفقاً تمكن فيه صلاح الدين من استثمار مصالحه وبشكل محكم ، اذ كانت حطين بحق — كما ذكر — الاصفهاني — (مفتاح الفتوح الاسلامية) (١) حيث أكمل بعدها صلاح الدين من تتبع فلول الصليبيين المنهزمة وتعقبهم إلى كل تحصيناتهم البعيدة فاتجه إلى المدن والقلاع العربية المحتلة واخذ يحررها الواحدة تلو الاخرى ففي ٢٨ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ / تموز سنة ١١٨٧م (اي بعد اربعة ايام من معركة حطين) تقدم نحو مدينة عكا وتمكن من تحريرها(٢) ثم تقدم بعد ذلك إلى تحرير كل الحصون والقلاع المجاورة الاخرى .

وتتضح سياسة صلاح الدين الحكيمة وفكره العسكري الصائب من توجهه نحو الساحل الشامل بعد معركة حطين وعدم توجهه مباشرة نحو تحرير القدس ، فقد اختار (ان يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وبخاصة الغرب الاوربي فيمسو محصورين داخل بلاد الشام (٣) فصلاح الدين كان قد اطبق على عدوه في حطين من كل جانب وانتصر عليهم ، والأن عمد لتوسيع دائرة الحصار لتشمل كل بلاد الشام وعندها يكون الغزاة تحت المطرقة العربية ، تضربهم من جانب بعد ان يكون صلاح الدين قد سهل عليه مهمة الأتصال البحري السريع بين موانئه البحرية الموجودة في الساحل المصري وبين الموانيء الشامية (٤) وعندها يتفرغ وبهدوء المقاتل الحكيم لتحرير كـل الأرض المحتلة بما يتيسر له من ظروف .

ولذلك بعد ان حرر صلاح الدين مدينة عكا تقدم بقواته نحو تحرير الحصون المجاورة لها امثال الناصرة ،قيسارية حيفا، صفورية، الشقيق ،الفولة والطور وغيرها ثم ارسل ابن اخيه حسام الدين بن لاجين على رأس قوة عسكرية نحو مدينة نابلس وحاصرها،واستنزل من كان بها من الصليبيين بالأمان وتسلم قلعتها وردها الى اهلها من العرب والمسلمين(٥)ثم بعد ذلك

---

(١) انظر : السابق ٢/٨٢— ٨٣

(٢) ابن شداد : النوادر ص٧٩

(٣) عاشور .الحركة الصليبية ٢/٨١٣.

(4) Stevenson, thr Crusaders in the East, P. 249

(٥) انظر ابو شامة الروضتين ٢/٨٧— ٨٨، ابن واصل ،مفرج الكروب ٢/٢٠٢—٢٠٣

حرر جند صلاح الدين قلعتين ثم مدينة صيدا في ٢١ جمادي الأولى من سنة ٥٨٣هـ (١) ثم مدينة عسقلان (٥) وقد طلب الصليبيون في العديد من المدن والقلاع السابقة الامان من صلاح الدين فكان يأمنهم ثم يسربهم ونساؤهم الى صور اوبيت المقدس (٢).

وقد امتازت سياسة صلاح الدين العسكرية تجاه الغزاة في هذه المرحلة بعدم استخدام القسوة ومنح الأمان للبلد الراغب في السلام والأيفاء بالعهد عن طريق ايصال المغلوبين الى مأمنهم (صور او القدس) من دون الحاق اي ضرر بهم. وقد عاب بعض المؤرخين على صلاح الدين هذه السياسة العسكرية واتهمه ابن الأثير بتحمل مسؤولية عدم التمكن من فتح صور مستقبلا فقال: (ولم يكن لأحد ذنب في امرها غير صلاح الدين فأنه هو جهز اليها جنود الفرنج، وامدها بالرجال والأموال من اهل عكا وعسقلان وغير ذلك كأن يعطيهم الأمان ويرسلهم الى صور) (٣).

والواقع فأن صلاح الدين لم يكن مخطئاً في اتباعه لتلك السياسة لأن هدفه الأول كان تحرير القدس وكان عليه ان يتخذ احد السبيلين: اما ان يتجه مباشرة بعد معركة حطين نحو القدس ويحررها ومن ثم يفتح بقية الحصون والمدن المجاورة او ان يفتح المدن والحصون المجاورة ثم يتجه نحو القدس.

وقد فضل صلاح الدين الخطة الثانية لأنه في حالة تنفيذه الخطة الأولى تكون خطوط رجعته عندئذ مهددة وسيتطلب لتنفيذ هذه المهمة قوات عسكرية لمحاصرة المدن والحصون المجاورة اوقطع طرق مواصلاتها المؤدية للقدس كي يتمكن من التصدي لفتح القدس بسلام كما ان هجومه على القدس مباشرة يؤدي الى استنفار قوات الصليبيين كافة فتكون عندئذ قوى الصليبيين مع قوات القدس مجتمعة ضده، ولما عزم صلاح الدين على تنفيذه خطته الثانية ـ فتح الحصون اولا ثم القدس.

---

(١) ابن الأثير الكامل ١١/٥٤٢

(٥) من الجدير بالذكر ان صلاح الدين خرج من صيدا الى عسقلان لأن صور كانت في تلك الفترة مركزاً للتجمع الصلبي فرأى صلاح الدين قصد عسقلان لأن امرها ايسر وربما لأنتشار عسكره على الساحل وعدم اجتماع على صور خاصة وان عسقلان تقع في ملتقى الطرق بين سوريا ومصر انظر lanepool, Saladin. P. 223

(٢) انظر ابن شداد النوادر ص ٨٠ـجـ٨ ابن واصل مفرج الكروب ٢/٢٠٩

(٣) الكامل في التأريخ ١١

ثانياً: واجه امامه عده مدن وحصون كان عليه ان يفتحها مثل عكا وصور وعسقلان وبيروت وصيدا وغيرهم ولو لم يتبع صلاح الدين السياسة السليمة لكان عليه ان يضرب بقوة تلك المدن والحصون وفي هذا نتائج خطيرة على مستقبل فتوحاته وسمعته ثم لو اتبع صلاح الدين السياسة الحربية القاسية ضد الصليبيين ولا متنعت عليه كثير من تلك المدن والحصون ولاشغلته طويلا عن تحقيق مهمته الأولى فتح القدس.

ومن جهة ثانية فأن صلاح الدين لو لم يمنح الأمان للصليبيين ويرسلهم الى صور لاصبح الزخم في القدس شديداً ولاستعصى عليه فتحها ثم لو لم يعلم الصليبييون ان صلاح الدين يسمح لهم بمغادرة حصونهم بسلام مكرمين الى القدس اوصور لقاتلوا ضد صلاح الدين حتى الموت.

ولما كان صلاح الدين قد خطط لفتح القدس اولا ثم صور لذلك فأن ارسائه للصليبيين المغلوبين على امرهم الى هذين المدينتين كان تكتيكاً عسكرياً منه قصد به اشغال الصليبيين بمهمة الأنتقال واضعاف مقاومتهم لأن القدس وصور سوف تصبحان بيده اذا مانجحت سياسته.

اما ماقدر لصور من ان تبقى بعد فتح القدس عاصية وان تكون معقلا للصليبيين فأن صلاح الدين لم يكن يتوقع مجرى الأحداث في المستقبل ولم يكن له علم بأن حملة عسكرية ستكون قوية وستظم اعظم ملوك أروبا النصرانية، انئذ الى صور وتتحصن فيها قبل ان يتمكن صلاح الدين من فتحها ولذلك (فمن غير التاريخي ان نتصور صلاح الدين وكأنه يعد الخطط ويوزع قواته للتصدي وللهجوم الوشيك من الغرب (١).

على أية حال فأن صلاح الدين توج انتصاراته السابقة بتحريره مدينة القدس اولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين ومعراج الرسول (ص) مقر الأنبياء عليهم السلام ففي ١٥ رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢٢/ ٩/ ١١٨٧ م وصل صلاح الدين بقواته الى ظاهر المدينة وبقي خمسة ايام يطوف حول سورها لينظر من اين يهاجمه ثم وقع اختياره على جهة الشمال فأنتقل اليه وبقى طوال الليل يعبيء قواته وينصب المجانيق (٢) وقد حدثت حول المدينة عدة مناوشات تبين للصليبيين من خلالها قوة صلاح الدين وجنده ومقدرتهم على فتح

(١) رجب، صلاح الدين ص١٥٢.
(٢) انظر ابن الأثير الكامل ٥٤٧/١١

المدينة عنوة فقرروا الأستسلام بعد توقيعهم لمعاهدة مع صلاح الدين بخرج الغزاة بموجبها من المدينة خلال مدة اقصاها اربعون يوماً صاغرين يدفع كلا منهم -من غير رجال الدين والشيوخ - مبلغاً من المال (١) يؤدونه لصلاح الدين وكان ذلك في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ/ ١٢ - ١٠ -١١٨٧م وقد كان صلاح الدين وهو المنتصر عطوفاً رحيماً بالمنكسرين مدحه الكاتب الأنكليزي لين بول بقوله (ولم يكن صلاح الدين عظيماً كعظمته في هذا الموقف فقد امر بأنتشار الأمراء والجنود ليمنعوا اي اعتداء او اهانه تقع لأي مسيحي ....وقد توجه اليه الاف من النساء ،بنات الفرسان الذين اسروا اوقتلوا في تلك المعارك وخدمهم يسألنه الرحمة فامر بأطلاق سراح ازواجهن واخوانهن ومنح بعضهن هبات مالية مناسبة» (٢). وبذلك منح جند صلاح الدين الرحمة للمدينة المقدسة فلم تتعرض دار من الدور للنهب ولم يحل بأحد من الصليبيين مكروه بينما كان الغزاة منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم .

هكذا اذن كان صلاح بحق رجل وقته ونسيج عصره فقد قضى سني حياته بصد هجمات الغزاة الصليبيين عن بلاد الشام وقد برهن- استنتاجاً مما سبق - على مقدرة عسكرية كبيرة وفائقة . وقسوة على النفس في الأخلاص (فقد صان شرفه وحافظ عليه أكثر من حفاظ الصليبيين على قانون الفروسية) (٣) وكان رجلا مستقيماً يعرف بظاهره وحسن نواياه لم يستخدم المكر والخديعة حتى مع اعدائه بينما استغل اعداؤه تلك الصفات فعمدوا مراواً وتكراراً الى التسويف معه بالمواعيد والمراسلات الكاذبة عبروا فيها عن سوء نواياهم واخلاقهم .(٤)

(١)قدر مبلغ الفدية عشرة دنانير على الرجل وخمسة على المرأة وعلى الطفل دينارين علماً بأن صلاح الدين والعديد من قادة جنده اعفوا مئات الصليبيين من تلك الفدية بل قدموا لهم اضافة الى ذلك العديد من المساعدات المالية او الحماية من اية اعتداء قد يقع عليهم اثناء خروجهم من المدينة او عند ذهابهم للجهة التي يريدون التوجه اليها ، انظر دريد سياسة ص٣٠٩-٣١٠

(2) Lanepool, Saladin' R. 235

(٣) لا مب شعله الأسلام ص٣٠٣.

(٤)لمعرفة بعض الأحداث التي سوف فيها الغزاة مع صلاح الدين انظر الأصفهاني الفتح القدس ص ٣٤٩ ابو شامة الروضتين ٢/١٣٩-١٤٠ بن واصل مفرج الكروب ٢/٨٢.

ولم يكن ذلك الأنتصار لولا الصفات المعنوية والمادية التي تحلى بها صلاح الدين وجنده فأضافة الى بناء صلاح الدين لتلك الوحدة القومية فأن بجيمع كانوا يحاربون اعدائهم بعقيدة وكانوا يدخلون المعركة بأندفاع مدهش لأنهم كانوا يرون في القتال (ديناً وحتماً واجباً)–كما مر – اضافة الى الخطط العسكرية الجيدة التي اتبعها صلاح الدين والمشاركةالفعلية للقائد في الحرب الى جانب جنده، وقد برزت له تلك الميزة حتى في اشد الأيام الدامية حيث كان ينتقل وسط ميدان المعركة يوقظ الهمم ويحي في الجند الروح المعنوية العالية .

كذلك فقد كان لاتباع الحرب الخاطفة ومباغته الاعداء كانت من اساليب صلاح الدين وقد تبين هذا واضحاً بعد معركة حطين في هجماته المتلاحقة على عكا وصفد وغيرهما من المناطق . وكان صلاح الدين بأعتراف اعدائه يقاتل نهار بحيث لايدع وقتاً للاكل والراحة (١).

وقد اوضح المستشرق هاملتون جاب بعض تلك المميزات الأخرى التي ساعدت صلاح الدين على تحقيق انتصاراته وعبرت عن فكره الصائب فقال :–

(جاءت بفعل امتلاك صلاح الدين لصفات معنوية وأدبية» لاتشترك مع المواهب الأستراتيجية الا في القليل كان رجلا من امثال اعلى ذي قوة وثبات وايمان ديني راسخ الأركان وكذلك في المراعاة الدقيقة للعهود التي يأخذها على نفسه وفي سماحة النفس التي لاتعرف المكر والغدر (١) هذا ويمكن تتبع مميزات الفكر العسكري لصلاح الدين والأسلوب الذي اتبعه قبل وبعد المعركة في حطين بالنقاط التالية والتي اشار اليها البحث فيما سبق بالدليل وهي :

اولا: القيادة القوية والحكيمة المتمثلة بشخص صلاح الدين .

ثانياً: تعبئة الشعب وتوحيده وتهيأته للمعركة والأسهام بها مادياً ومعنوياً .

ثالثاً: الأشراف المباشر للقائد في المعركة ومجاهدة العدو الى جانب مقاتليه .

---

(١) انظر لامب شعلة الأسلام ص ١٥٦، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧

رابعاً: الخطط العسكرية الجيدة ومعرفة طبيعة ارض العدو وامكانياته.

خامساً: عقائدية الجيش وايمانه بقضيته وتشبعه بفكرة الجهاد في سبيل الله تعالى.

سادساً: مقدرة الأستخبارات العسكرية على رصد تحركات العدو وتقدير حجم قواتـه ومعداته .

سابعاً: تهيأة فرق الجيش بأقسامها المتنوعة ذات التدريب المؤهل للاسهام بالمعركة

ثامناً: التموين الجيد والمستمر للمقاتلين .

تاسعاً: توفير السلاح والعدد اللازمة لأدامة المعركة بشكل سليم .

عاشراً :ولاننسى اخيراً الظروف المواتية التي خدمت صلاح الدين اعتباراً من وفاة نور الديـن الى اتمام الوحدة اذ لولا الوحدة ابقيت فكرة صلاح الدين بتحرير القدس مجرد امنية جميلة .

وهكذا اذن كان للوحدة التي قام بتشكيلها صلاح الدين اهمية واضحة في تمكينه من تحرير القدس وساحل بلاد الشام اذ بفضلها امنت خطوط قواته الخلفية وبفضلها زود جند صلاح الدين بالمئات من المجاهدين والعدد . وبفضلها ايضاً كانت خطط التموين قريبة والأجناد والخيل مستريحة، فالبلاد قريبة والميرة متسعة .

«الخاتمة»

لم تكن الظروف التي مر بها صلاح الدين الأيوبي ظروفاً عادية فقد كانت التجزئة حاصلة واقعياً فكل حاكم ووالي يتصرف في شؤون ولايته مايشاء وبعض منهم يمد يده للتعامل مع الصليبيين الجاثمين فوق صدر الأمة في القدس والبعض الاخر لايهمه امرهم من قريب ولامن بعيد للحروب والمعارك، من قلب كل هذه المعاناة نهض صلاح الدين يصنع النصر في عصر الهزيمة ويصنع الوحدة في عصر التجزئة ويقطع اليد التي تقاتل العدو في عصر التصنع والترفع وهكذا كان له ماراد وطرد الصليبيين بمعارك كان اولها حطين واخرها رحيلهم الى غير رجعة وتعاد للامة هيبتها التي نال منها الغزاة .

فما اشبه اليوم بالبارحة ،واذ نؤكد هذه الحقيقة الان فلا يعني هذا انها لم تكن أكيدة وملموسة من قبل او لم تكن واضحة الوضوح الكافي طوال سنوات الحـرب المفروضة على الأمة العربية في فلسطين وعلى عراقنا العظيم من جانب اطراف المؤامرة العدوانية الأيرانية ـالصهيونية المسندة من اطراف دولية وحلفاء عديدين ولكن الأنتصار العراقي العظيم في ملحمة تحرير الفاو والشلامجة حافزاً لنهوض عربي جبار يضع حداً لخيانة بعض الحكام ولمداخلات حلفاء الصهيونية .

ويبقى شعار الوحدة طريق التحرير لفلسطين .

وان صهاينة اسرائيل هم احفاد يهود خيبر وفرس كسرى هم اجداد مجوس الخميني ان مايرتكبه من اجرام ازلام خيبر الان في فلسطين هم اشقاء مجرمي الخمينية. لكـن العرب هم العرب ذاتهم لقد خاض العرب المعارك الحاسمة والمقدسة مـن خـلال الفتوحات الأسلامية ضد الفرس كما خاضوها ضد الوثنية والمجوسية والفارسية والدجل خاضوها حروب مقدسة عادلة مبشرة بالخير والتوحيد فلم يكونوا في حينه كما يدس المغرضون من انها كانت حروب ودعوات الى الأسلام بحد السيف ان العرب اول من طبق مبـدأ (لأكراه في الدين) فالدين لله والوطن للجميع لقد انتصر العرب بعد ان توفرت لهم كافة مستلزمات النصر في حينه ومقوماته من امه حية مؤمنة بالمباديء والمثل والأنسانية والخير والسعادة لهم وكما لغيرهم ومن قادة مخلصين وابطال نفخوا في شعبهم روح النهوض وناشدوهم استحضار روح وشجاعة واخلاص وانسانية اجداهم السلف العظام .

لقد انتصرت امة العرب من خلال العراق كما انتصروا سابقاً بعد توفر المستلزمات من جيش مقدام اذهل العالم بشجاعته وتضحياته ومن امة مؤمنة ايمان اجدادهم السلف بالمبادىء والخير وظهور القائد الضرورة الرئيس صدام حسين وكان القائد الضرورة لتأريخ الأمة العربية المعاصر هذا التأريخ والذي له الوجوه المشرقة في العصر الحاضر كما كانت وجوهه سابقاً ومأثورة الحجارة في فلسطين ان هي الا هو الوجه المشرق الذي فيه التفاؤل وان عظمت التضحيات والعالم يعلم جيداً ان العرب لن يناموا على ضيم وحرب العراق الثمان سنوات مع العدو الجاهل المتعجرف والحقود هذا العدو والذي يفوقنا بالعدد والعدة ان هو الا ايضاً وجه مشرق آخر ومتفائل لامة العرب في تأريخها المعاصر .

ولابد لي ان اشير الى حقيقة هي ليست بعيدة عن موضوعنا هذا الا وهي ان للعالم قد اعجب بمعارك الحرب العالمية الثانية المتناثرة والمتباعدة واعجب بقادتها الذين ساهموا فيها، لقد اشتركت فيها اغلب دول العالم الأوربي متعاونة في وقت ومتخاذلة ومنكسرة في اوقات اخرى ضد العدو الألماني فأين تلك المعارك من المعارك العراق والعراق الوحيد وجيش العراق الوحيد وقائد العراق الوحيد الذي ناصبه العداء (للاسف الشديد) نفر من المحسوبين على العرب والعروبة من احفاد ابي رغال وابن العلقمي انصار مسينمة الخميني ان ذكر. وتذكير العالم فقط بأسماء وملاحم معارك جيش العراق دون ذكر التفاصيل لهو الدليل الأكيد والقاطع على ان امة العرب والعراق بخير طالما كان له جيش يحميه وقائد عربي مخلص وشجاع وان النصر والمستقبل لنا ان اشاء الله .

وما معارك الحصاد الأكبر والميلاد والأنفال وتوكلنا على الله وتحرير الفاو وما سبقها من المعارك المشرقة السابقة وحصيلاتها جميعاً من نصر وزهو وفخر ان هو الا الدليل الأكيد على حتمية النهوض طالما توفرت واستحضرت الأمة الحية والشعب الصامد . والقائد المخلص والشجاع والعالم كله يعرف ان قائدنا ورئيسنا صدام حسين الذي هو غني عن التعريف هي له كما كانت لاجداده من قبله لهم .

المصادر والمراجع : –

اولاً : المصادر القديمة : –

١ – الأصفهاني : عماد الدين بن عبد الله محمد بن احمد (ت ٥٩٧هـ) الفتح القسي في الفتح القدس (ليدن : ١٨٨٧).

٢ – ابن الأثير : عز الدين ابو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ) الكامل في التأريخ م١١– ١٢ (بيروت ١٩٦٦).

٣ – ابن تغري بردي: جمال الدين ابو المحاسن(ت: ٨٧٤) النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٥–١٣٥٣هـ) .

٤ – ابن الجوزي: ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ) المنتظم في تأريخ الملوك والأمم (حيدر آباد الدكن: ١٣٥٨هـ) .

٥ – ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت٨٠٨هـ) .

تأريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر(بيروت: ١٩٦١).

٦ – ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد (ت٦٨٤هـ) وفيات الأعيان ،وابناء ابناء الزمان ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٩) .

٧ – ابن شاهنشاه، الملك المنصور محمد بن عمر الأيوبي (ت٦١٧هـ) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٨) .

٨ – ابن شداد بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال) (القاهرة ١٩٦٤).

٩ – ابن النديم كمال ابو القاسم عمر (ت٦٦٠هـ) زبدة الحلب في تأريخ حلب تحقيق سامي الدهان (بيروت ١٩٦٨) .

١٠ – ابن العماد الحنبلي :عبد الحي الحنبلي (ت١٠٨٩) شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت: د/ت) و(مطبعة مكتبة القدس ١٣٥٠هـ) .

١١ – ابن قاضي شعبة بدر الدين (ت٧٧٤هـ) الكواكب الدرية في السيرة النبوية وتحقيق د. محمد زاير (بيروت ١٩١٨) .

١٢ – ابن القلانسي ،ابو يعلي حمزة (ت٥٥٥هـ) ذيل تأريخ دمشق تحقيق اندروز (القاهرة ١٩٠٨) .

١٣ – ابن كثير، عماد الدين ابن ابي الفداء اسماعيل (ت٧٧٤هـ) البداية والنهاية (القاهرة ١٩٣٢).

١٤ – ابن واصل ،جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ)مفرج الكروب في أخبار بن ايوب، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٧) .

١٥ – ابو شامة شهاب الدين ابو محمد بن عبد الرحمن (ت٣١٥هـ) الروضتين في اخبار الروضتين النورية والصلاحية (القاهرة ١٢٨٧–١٢٨٨هـ).

١٦ – البنداري قوام الدين ابو الفتح علي بن محمد (ت٦٤٣هـ) سنا البرق الشامي وهـو مختصر لكتاب القدس الشامي) للعماد الأصفهاني تحقيق رمضان ششن، (بيروت ١٩٧١) .

١٧ – الحموي، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت٦٢٦هـ) معجم البلدان (بيروت ١٩٥٧).

١٨ – سبط ابن الجوزي ،شمس الدين بن المظفر يوسف (ت٦٥٤هـ) مرآة الزمان في تأريخ الأعيان ق١، ج٨(حيدر اباد الدكن ١٩٥١) .

١٩ – العليمي ،عبد الرحمن الجبرتي العمري (ت٩٢٧هـ) والأنس الجليل بتأريخ القدس والخليل (النجف ١٩٦٨) .

٢٠ – القلقشندي ،ابو العباس احمد بن علي (ت٨٢١هـ) صبح الأعشى في صناعة الأنشاء (القاهرة ١٩٦٣).

٢١ – المقريزي ،تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ) :

آ – السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٩).

ب – البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩٦١).

٢٢ – اليافعي ،ابو محمد عبد الله بن اسعد (ت٧٦٨هـ) مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان (حيدر آباد الدكن ١٩٧٠).

ثانياً : المراجع الحديثة:

٢٣ — ابو بكر جلال طه: صلاح الدين الأيوبي اسد القارتين (بغداد ١٩٦٧).
٢٤ — جب، هاملتون أ.ر. : صلاح الدين الأيوبي، تحرير يوسف أيبش (بيروت ١٩٧٣).
٢٥ — دريد عبد القادر نوري :
آ — سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة (بغداد ١٩٧٦).
ب — الوطن العربي والغزو الصليبي (جامعة الموصل ١٩٨٠) .
٢٦ — رنسيمان ستيفن : المدينة البيزنطية— الحروب الصليبية — ترجمة د. صالح احمد العلي (بغداد ١٩٥٦) .
٢٧ — عاشور: سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تأريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٣).
٢٨ — العريني: السيد الباز: مصر في عصر الأيوبيين (سلسلة الألف كتاب عدد ٢٦٩) القاهرة لم يذكر السنة.
٢٩ — غرايبه، عبد الكريم: العرب والأتراك دراسة لتطور العلاقات بين الأمتين خلال الف سنة (دمشق ١٩٦١).
٣٠ — فيشر، هربرت أ.ل. تأريخ اوربا (العصور الوسطى) لقسم الأول ترجمة. محمد مصطفى زيارة وزميله (القاهرة ١٩٦٦) .
٣١ — لامب هاورلد.
شعلة الأسلام ،ترجمة : محمود عبد الله (بغداد ١٩٦٧).
٣٢ — محمد جمال الدين محفوظ .
مفاهيم عسكرية وقومية (الدار القومية للطباعة ١٩٦٥) .

ثالثاً : المصادر الاجنبية:

33. Champdor (Albert):
Saladin le plus purheros de lislam, Editions Albin Micher, Paris, 1956.
34. Daniel (Norman):
Islam on th west the Making of an Image, Edinburgh, 1966.

35. Lane Pool (S.):
A. History of Egypt in the middle ages, London, 1968.
36. Lane Pool (S.)
Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, Khayats-Beirut, 1962.
'27. Siven (Emmanuel):
L'Islam et al Croisade Ideologie et propagande dans les Reactons Musulamanes aux Cronsades (Paris, 1968).
38. Stevenson (W.R.):
The Crusaders in the East Cambridge, 1907.



السوق الاوربية المشتركة والدول النامية

محمد جمال الدين العلوي
كلية القانون/ جامعة الموصل

تمهيد

اختلف الأقتصاديون والمهتمون بموضوع التكامل الأقتصادي في تحديد ظهور فكرة التكامل الأقتصادي (Economic Integration) او تطبيقها على الواقع العملي ومن خلال تتبع تطور الفكر الأقتصادي نرجح ان هذه الفكرة قد ظهرت بالتحديد عندما دعى الأقتصادي الألماني « فردريك ليست » (Friedrich List) عام ١٨١٨ الى الغاء الرسوم الكمركية بين الولايات الألمانية وانشاء اتحاد كمركي فيما بينها تنتهج به سياسة كمركية لحماية الشعب كله ، وكانت دعوته هذه نابعة من قناعته بأن اوزبا حين سيطر عليها نابليون استفادت من مبدأ حرية التجارة في الداخل ومن الحماية (في الخارج) ضد بريطانيا، حيث كانت متقدمة من حيث الصناعة وان مادعى اليه لم يلق قبولا لدى الرأي العام وافقده منصبه كأستاذ للاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة توبنجن عام ١٨١٩ ومن ثم حكم عليه بالسجن عشرة اشهر بتهمة اثارة الفتنة .

ونشر في عام ١٨٤١ كتابه الموسوم (النظام القومي للاقتصاد السياسي) والذي تضمن افكاره وآراءه الأقتصادية، واكد فيه على «اهمية الغاء الحواجز الكمركية داخل الوحدة القومية (أي الدولة)الى جانب الحماية التي ينبغي فرضها عند حدودها» والهدف من ذلك هو توحيد الدولة وجعلها قوية بحيث تصبح قادرة على ايجاد كتلة انتاجية ذات كفاية . ويرى بالنسبة لسياسة حرية التجارة ان على الشعب الذي يبلغ درجة عالية من التطور ان يسير على هذه السياسة وان الرسوم الحامية ذات فائدة للدول حديثة النشأة من اجل حماية صناعاتها الناشئة وبناء اقتصادياتها الوطنية (١).

تبنت بروسيا فكرة List التي نادى بها عام١٨١٨ والخاصة بأقامة الأتحاد الكمركي بين الولايات الالمانية وتولت اقامة الزولفراين Zollvorein عام ١٨٣٣ ،

كبديل لمطالبة الألمان بالوحدة وهذا الجانب كان له اهمية كبرى في تأريخ المانيا اذ ادى الى الوحدة السياسية الألمانية عام ١٨٧١ واصبح اساساً للصناعة الألمانية الحديثة(٢) ويعد هذا الأتحاد اول تكتل اقتصادي اقليمي .

ومما تقدم فأن فكرة التكامل الأقتصادي بشكلها الواضح هو عام ١٨١٨ مقترنة بدعوة ليست وأول تطبيق لها كان عند تحقق ذلك بأقامة الزولفراين عام ١٨٣٣ .

ونرى ان معالجة المدرسة الكلاسيكية لموضوع التجارة الخارجية وسعر الصرف Exchange Rate مثل سياسة جديدة في العلاقات الأقتصادية الدولية حلت محل سياسة الحماية Protectionism في التجارة زمن المدرسة التجارية (٣) والتي كانت تمثل عقبة في وجه اي تعاون اوتكامل اقتصادي بين الدول ، وتعتبر السياسة الجديدة التي تبنتها المدرسة الكلاسيكية خطوة نحو تحقيق حرية التجارة Free Trade ومن ثم امكانية اقامة التكتلات الأقتصادية .

وقد اعطى كثير من الأقتصاديين تعريفاً للتكامل الأقتصادي في مؤلفاتهم (٤) ومن تحليل لتلك التعريفات مقارنة مع تجارب التكامل يمكن لنا القول بأن مفهوم التكامل الأقتصادي في صورته المعاصرة يعني العلاقات التي تقوم بين اقتصاديات دولتين او أكثر بأتجاه تحقيق الأندماج بينها وبالتالي تكوين وحدة اقتصادية جديدة متميزة .

ولتحقيق قيام التكامل الأقتصادي عدة درجات (مراحل) هي :

١ – التفضيل الكمركي الجزئي او البسيط Preferment
٢ – منطقة التجارة الحرة Free Trade Area
٣ – الأتحاد الكمركي Customs Union
٤ – السوق المشتركة Common Market
٥ – الوحدة الأقتصادية Economic Union
٦ – الأندماج الأقتصادي الكامل Total Economic Integration

ولايشترط لبلوغ التكامل الأقتصادي المرور بأنتظام بهذه الدرجات (المراحل) جميعاً بل قد تتفق الدول لاقامة تكتل اقتصادي في درجة من الدرجات دون المرور بالدرجة

التي سبقتها وعند دراسة درجات التكامل الأقتصادي يؤخذ في نظر الأعتبار المسائل المتعلقة بحرية انتقال عناصر الأنتاج والسياسات الأقتصادية ومايتعلق بها (٥).

في زمن التكتلات الأقتصادية المعاصرة ولما امتازت به بعض تجارب التكامل من نتائج يتفق الأقتصاديون المعنيون بهذا الموضوع على تصنيف اشكال التكامل الى مجموعتين رئيسيتين: (٦).

الأولى: من حيث الفترة الزمنية اي مدى التطور الأقتصادي والأجتماعي للدول وتقسم هذه المجموعة الى نوعين:

أ ـ التكامل الأقتصادي الراسي العمودي(والذي يتمثل بالعلاقات التي تقوم بين اطراف (دول) غير متكافئة من حيث مستويات التطور الأقتصادي والأجتماعي ويكون لصالح الدول ألاكثر تطوراً.

ب ـ التكامل الاقتصادي الأفقي والذي يتمثل بالعلاقات التي تقوم بين اطراف متكافئة او متقاربة من حيث التطور الأقتصادي والأجتماعي.

اما المجموعة الثانية: فهي من حيث طبيعة الأنظمة التي تحكمها الأيديولوجية والنظام السياسي والاقتصادي. وتقسم هذه المجموعة هي الأخرى الى نوعين:

أ ـ التكامل الأقتصادي الرأسمالي.

ب ـ التكامل الأقتصادي الأشتراكي.

وهناك فضلا عن المجموعة الأولى والثانية شكل آخر مثلته تجارب التكامل التي اقيمت في دول العالم الثالث.

وقياساً الى اقتران بعض التكتلات الأقتصادية الأقليمية بالظاهرة الأستعمارية فأن الدكتور سعد ماهر حمزة يميز بين شكلين من اشكال التكامل الأقتصادي:

١ ـ التكامل الأقتصادي الأمبريالي: وهو الذي يتم مابين الدول الأستعمارية والأقاليم الخاضعة لها سياسياً واقتصادياً لصالح الأولى ويعتبر هذا الشكل من النوع الكلاسيكي يغلب عليه طابع التكامل الرأسي.

٢ – التكامل الأقتصادي الحر: وهو الذي يتم نتيجة اتفاق مابين اطراف متكافئة والمثال النسبي له الأتحاد الكمركي الألماني (زولفراين) قديماً والتكامل الأقتصادي المعاصر بين الدول خاصة في غرب اوربا والدول الأشتراكية والعالم الثالث، ويغلب على التكامل الأقتصادي الحر طابع التكامل الأقتصادي الأفقي او قد يحدث فيه تكامل افقي ورأسي في آن واحد (٧).

ان فكرة التكتلات الأقتصادية في العلاقات الدولية تطورت بعد الحرب العالمية الثانية اذ برزت الكتل السياسية والأقتصادية في العالم وتعددت المشكلات الأقتصادية المعاصرة واصبحت الدول لاتستطيع بمفردها مواجهة تلك المشكلات فضلا عن التطور في الميادين الأخرى وظهور الأفكار والبرامج التي تدعو الى الأنتاج الكبير والأندماج الأقتصادي بين الدول عن طريق التفاهم والمنفعة المشتركة وايجاد التوازن السياسي بين الكتل السياسية واشير الى منتصف القرن العشرين بفترة التكتلات(٨). حيث برزت تكتلات اقتصادية اقليمية منها موضوع بحثنا، السوق الأوربية المشتركة وعلاقتها بالدول النامية.

وهذا البحث محاولة للكشف عن مدى العلاقة مابين السوق الأوربية المشتركة والدول النامية فالمبحث الأول منه تضمن عرض لكيفية نشأة السوق المشتركة وتحليلا لفلسفتها التكاملية وماانجزته والافاق المستقبلية، اما المبحث الثاني فجاء موضحاً لنظام الأنتساب الى السوق والذي من خلاله اقيمت العلاقة مع الدول النامية بأتفاقية ياووندا الأولى والثانية واتفاقية أروشا وأتفاقية لومي الأولى والثانية والثالثة، وفي الخاتمة وقفنا على تقويم تجربة السوق الأوربية المشتركة وموقع الدول النامية من انتسابها اليها وماينبغي على هذه الدول ان تفعله تجاه هذه العلاقة عن طريق تجاربها التكاملية الأقليمية الخاصة.

المبحث الاول : تجربة السوق الاوربية المشتركة :

نشأتها :

كان للحرب العالمية الثانية اثر على اوربا والعالم وشهدت فترة مابعد الحرب متغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية فضلا عن المشكلات الدولية وسعت اوربا الغربية بأتجاه تعمير مادمرته الحرب واعادة بناء اقتصادياتها وعلاقاتها مع العالم الخارجي وصولا الى توحيد اوربا ، وبهذا الخصوص بادرت الولايات المتحدة الأمريكية حيث وضع في ١٩٤٧/٦/٥ الجنرال (جورج س. مارشال) وزير الخارجية الأمريكية آنذاك مشروعه الخاص من اجل تقديم قروض لأوربا الغربية لاعادة التعمير وعرف هذا (برنامج الأنعاش الأوربي) (European Recovery Programme) . وتطلب الأمر وجود منظمة تقوم بأدارة القروض الأمريكية وتوجيهها، فقامت (المنظمة الأوربية للتعاون الأقتصادي) التي تم تشكيلها في شهر نيسان ١٩٤٨ في باريس من ستة عشر دولة اوربية وحقق المشروع غرضه وانتهى رسمياً عام ١٩٥٢ ونتيجة لنجاح العمل الجماعي فقد قررت خمسة عشر دولة من دول المنظمة الأوربية للتعاون الأقتصادي مواصلة نشاطها في باريس معتمدة على درجة التفضيل الكمركي في التكامل الأقتصادي فيما بينها اذ ألغت نظام الحصص وانتهى عمل المنظمة في عام ١٩٦١، عندما حلت محلها منظمة التعاون الأقتصادي والتنمية (أوسيد) .O.E.C.D والتي شملت معظم دولة العالم الصناعية(٩).

وفي نفس الوقت نرى ان بعض دول اوربا الغربية خطت خطوات نحو التكامل الأقتصادي فأقيم في شهر كانون الثاني عام ١٩٤٨ اتحاد البنلوكس الكمركي « (Benelux) بين كل من هولندا وبلجيكا ولوكسمبرغ ويمثل هذا الأتحاد درجة الأتحاد الكمركي من درجات التكامل وحقق ازالة الرسوم الكمركية بين الدول الإعضاء كما انشأ جدولا موحداً للتعريفة الكمركية بين دول الأتحاد والدول الأخرى ، واعقب ذلك خطوات على طريق التكامل الأقتصادي بين دول غرب اوربا حين دعا روبير شومان (Schuman) وزير الخارجية

الفرنسية في حديثه الصحفي بتأريخ ١٩٥٠/٥/٩، الى اتخاذ خطوة مجددة وحاسمة لتوحيد اوربا مقترحاً مشروعاً لتجميع صناعات الفحم والفولاذ الألمانية والفرنسية في منظمة مفتوحة امام كل دول اوربا، وقبلت بالأقتراح كل من المانيا الأتحادية وايطاليا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرغ، وتم على أثر ذلك عقد مؤتمر في بأريس في ١٩٥٠/١٦/٢٠ تقرر فيه اقامة(منظمة الفحم والفولاذ الأوربية European Coal and steel conmunity

وتم توقيع ميثاق هذه المنظمة في ١٩٥١/٤/١٨ في باريس وأنشأت لهذه المنظمة أجهزة (السلطة العليا، البرلمان، المجلس الوزاري، محكمة لفض المنازعات) ومنحت حكومات الدول الستة قدراً من سلطاتها المتصفة بالسيادة الى السلطة العليا في المنظمة من اجل تحقق اهدافها، ومنذ البداية رأت دول هذه المنظمة ضرورة الأنتفاع بالوزن السياسي الذي يتمتع به كيان اوربي موحد في خدمة السلام والأستفادة من التعاون مع دول العالم الأقل تطوراً (الدول النامية) وبادرت المنظمة عام ١٩٥٢ بمشروعين الأول انشاء جماعة دفاعية اوربية لتوحيد القوات المسلحة والثاني اتجاه سياسي الا ان هذه المبادرة جاءت قبل اوانها فلم يلق اي مشروع منها مايستحق الأستجابة او التصديق عليه من دول المنظمة(١٠).

وعلى الرغم من عدم الأستجابة على هذين المشروعين فأن الدول الستة الأعضاء في المنظمة مضت في مفاوضاتها من اجل تطوير العمل وتوسيع المناهج التي اتبعتها وان تمد نشاطها الى المجال الاقتصادي كله بدلا من اقتصاره على الفحم والفولاذ. وكذلك العمل على تنمية الأستخدام السلمي للطاقة الذرية بصورة جماعية، وفي عام ١٩٥٦ تقدمت المنظمة بمشروعين آخرين :

الأول: يهدف الى انشاء جماعة اقتصادية اوربية لتكوين سوق واسعة تشمل تبادل كافة السلع وتوحيد السياسات الأقتصادية المشتركة، والمشروع الثاني : يهدف الى انشاء جماعة اوربية للطاقة الذرية يوراتوم (Euratom) لتنمية استخدام الطاقة الذرية في اوربا للاغراض السلمية، ووقعت الدول الستة في اعتماد هذين المشروعين عند توقيع معاهدتي روما في ١٩٥٧/٣/٢٥، الأولى، خاصة بـ(الجماعة الأقتصادية الأوربية) والثانية بـ(يوراتوم) وصدق على كلتا المعاهدتين قبل نهاية العام ذاته من قبل برلمانات الدول

الستة الأعضاء، وهكذا أنشأت السوق الأوربية المشتركة (European Cemmon Market) وبدأت اعمالها في بروكسل ولوكسمبورغ عام ١٩٥٨ (١١).

وكان وراء انشاء السوق المشتركة دوافع اقتصادية وغير اقتصادية: فالدوافع غير الأقتصادية تتمثل بتحقيق الوحدة السياسية الأوربية (١٢). وخلق قوة دولية كبيرة لها وزنها السياسي في المجتمع الدولي ولكي تمثل كتلة ثالثة قوية تقف بين كتلة الولايات المتحدة وكتلة الأتحاد السوفيتي خاصة بداية الحرب الباردة بين القوتين في العالم .

اما الدوافع الأقتصادية فقد تمثلت :

١ — مواجهة المشاكل الأقتصادية المعاصرة .
٢ — تحقيق نسبة من التبادل التجاري فيما بينها ومع العالم الخارجي لصالحها .
٣ — التعاون المشترك في ميدان العلم والتكنولوجيا .
٤ — توفير فرص أكبر لنموها وتطورها الأقتصادي من خلال بلوغ نوع من الأكتفاء الذاتي بينها .
٥ — مواجهة التطورات الجديدة في العلاقات الأقتصادية الدولية.

ولم تقتصر العضوية في السوق الأوربية المشتركة على الدول الستة المؤسسة حيث نصت المادة (٢٣٧) من معاهدة روما على امكانية منح حقوق العضوية الكاملة لاية دولة اوربية تقدم طلباً بذلك، وعلى هذا الأساس انضمت (عام ١٩٧٣ كل من ايرلندا والدانمارك وبريطانيا) (واليونان عام ١٩٨٠) واسبانيا والبرتغال عام ١٩٨٦ وبذلك اصبح عدد الدول الأوربية المتمتعة بالعضويةالكاملة اثني عشر دولة وترتبط النرويج بأتفاق للتجارة الحرة مع دول السوق،اما المادتين (٢٣٨،١٣١) من معاهدة روما فقد نصت على (نظام الأنتساب) اي العضوية المنتسبة من قبل الدول الأخرى عن طريق عقد اتفاقيات انتساب وبموجب ذلك نشأت العلاقة بين السوق الأوربية المشتركة والدول النامية (١٣).

الاسس التكاملية للسوق :

أن الأسس التكاملية للسوق المشتركة تتضح من ان الدول الأعضاء الأصليين في السوق تتمتع بمستويات متقاربة من التطور الأقتصادي والأجتماعي والتقدم العلمي والتكنولوجي

وان عملية التكامل فيما بين هذه الدول يتخذ شكل التكامل الأقتصادي الأفقي كما ان الأنظمة السياسية والأيديولوجية لهذه الدول تقوم على اساس النظام الرأسمالي فهي تمثل تجربة ونموذج للتكامل الأقتصادي الرأسمالي .

وان وسيلة الأساسية التي اعتمد تهاالسوق لبلوغ تكاملها الأقتصادي هي تحقيق حرية التجارة الخارجية بين الدول الاعضاء في اطار الحفاظ على علاقات الأنتاج الرأسمالية فيما بينها. وان وسيلة حرية التجارة القائمة على آلية السوق هي وسيلة ملائمة لطبيعة الأنظمة الأقتصادية للدول الأعضاء في السوق المشتركة ومنسجمة مع تطور مقوماتها الأقتصادية المتقدمة وتتمثل هذه الوسيلة بالحريات الأربع الرئيسية للسوق. حرية انتقال الأشخاص والسلع والخدمات ورؤوس الأموال .

واستندت السوق المشتركة في قيامها على نظرية (بيلابلاسا) في التدرج لبلوغ التكامل الأقتصادي ،اذ ان الهدف ليس هو اقامة تكامل اقتصادي فيدرجة السوق المشتركة بقدر ماهو الهدف درجة الوحدة الأقتصادية التامة ومن ثم الوحدة السياسية فهي لاتهدف الى اقامة كتلة اقتصادية بل وحدة سياسية ذات وزن سياسي في المجتمع الدولي .

وقد وضعت السوق معايير استندت اليها في المعاملة بين الدول الأعضاء الأصليين تخضع للاعتبارات التالية :

١ ــ مساحة ارض الدولة .

٢ ــ عدد السكان .

٢ ــ المقدرة الأقتصادية .

٤ ــ مقدار المساهمة في تمويل ميزانية السوق .

وان عملية التصويت في اتخاذ القرارات بأجهزة السوق تخضع لتلك المبادىء، وقد هدفت السوق من ذلك تحقيق العدالة على اساس الفائدة المرجوة من السوق بحيث تكون متساوية لكل فرد في كل دولة من دول الأعضاء .

ومن اجل انجاح هذه التجربة وتحقق اهدافها فقد اوجدت اجهزة لأدارة سير العمل فيها وتمثلت هذه الأجهزة في: (١٤) .

١ ــ المجلس الأوربي (اللجنة الأوربية) ويعتبر المجلس الهيئة التنفيذية التي تباشر العمل المشترك وهو مستقل عن حكومات الدول الأعضاء في السوق ويعتبر اعلى سلطة.

٢ ــ مجلس الوزراء ويتألف من ممثلي الحكومات الأعضاء بأحد وزرائها وينظر في المقترحات المقدمة من قبل المجلس الأوربي ويعمل على تنفيذها .

٣ ــ البرلمان الاوربي وهو جهاز يباشر الأشراف الديمقراطي على اللجنة الأوربية.

٤ ــ محكمة العدل الأوربية الخاصة بفض المنازعات التي قد تنشأ بين الدول الأعضاء خلال مسيرة العمل .

بالأضافة الى هذه الأجهزة هناك هيئات فنية هي :

١ ــ المجلس الأقتصادي والأجتماعي .

٢ ــ بنك الأستثمار الأوربي .

٣ ــ الصندوق الأجتماعي الأوربي .

٤ ــ صندوق الأتحاد الأوربي .

ان هذه الأجهزة التي تقود عملية التكامل الأقتصادي بين الدول الأوربية في درجة السوق المشتركة تتمتع بسلطات مستقلة عن حكومات الدول الأعضاء ولهذه الخاصية اهمية في توجيه عمل السوق الوجهة التكاملية المطلوبة .

ومن المسائل الأخرى المتعلقة بفلسفة التكامل، احكام حيوية ونشاط السوق الأوربية المشتركة اذ حددت السنة التي تتحول بها الى سوق اقتصادية موحدة .

الانجازات والمستقبل :

بدأت السوق الأوربية المشتركة العمل فعلا في بروكسل ولوكسمبرغ في عام ١٩٥٨ وحققت تقدماً سريعاً في عدة اتجاهات ونجحت في ان تكون اهم كتلة تجارية في العالم اذ اصبحت التجارة حرة داخل السوق المشتركة بأكتمال قيام الأتحاد الكمركي عام

١٩٦٨ أي قبل ١٨ شهر من الموعد المتفق عليه والغيت كافة الرسوم الكمركية بين الدول الأعضاء وحل محلها تعريفة كمركية موحدة تجاه العالم الخارجي، والأكثر من ذلك، اصبحت دول السوق المشتركة تتفاوض موحدة في المفاوضات التجارية الدولية مما جعلها ثاني اهم كتلة تجارية في تلك المفاوضات فهي والولايات المتحدة الأمريكية يحددان شروط المفاوضات التجارية والدولية ويقرران ابعادها ونتائجها لاهميتها التفاوضية .

ونتيجة للسياسة الزراعية المشتركة وانشاء سوق مشترك للمنتجات الزراعية وتقديم المساعدات الى الزراعة من الدول الأعضاء بلغت السياسة الزراعية حداً عالياً من التكامل وان نتائجها كانت ايجابية في ارتفاع دخل المزارعين وقدرة العمال الأنتاجية في الزراعة مع تحقق استقرار نسبي في الأسعار وزيادة حجم التجارة في المنتجات الزراعية داخل دول السوق، ويمكن القول بأنها نكاد تحقق الأكتفاء الذاتي في القطاع الزراعي .

ونجحت السوق في تبني سياسة اجتماعية واقليمية لتقويم التفاوت المتصاعد وذلك عن طريق تأسيس الصندوق الأجتماعي وصندوق الأتحاد الأقليمي من اجل مساعدة العمال واعادة توزيع الموارد على المناطق التي تصل نسبة البطالة والأستغناء عن العمل الى الذروة .

وتعمل السوق جاهدة على تنسيق السياسات الوطنية والأقتصادية والنقدية والصناعية والتقاء السياسات الخاصة بالنقل وحماية المستهلك والحفاظ على سلامة البيئة ، فضلا عن مسعاها الى خفض كمية الطاقة المستوردة من الخارج والتي تحتاج اليها، وكذلك السعي الى تخفيف الأعتماد على البترول وزيادة نسبة الطاقة المستمدة من الفحم والطاقة النووية (١٥).

ويحدثنا د. لوكاس توكاليس المحرر في مجلة «دراسات السوق المشتركة» بالأضافة الى عمله في المعهد الملكي للشؤون الدولية في لندن عن اسباب نجاح تجربة السوق الأوربية المشتركة اذ يقول :

أولا: ان اوربا الغربية كانت ولاتزال أكثر استقلالا عن القوى الخارجية اقتصادياً وسياسياً من محاولات التكامل الأخرى التي حدثت في اجزاء أخرى من العالم .

ثانياً: بدأ الأوربيون بحفز سياسي قوي ثم تبنوا ماعتبروه ستراتيجية جيدة مركزين على الأقتصاد وتدريجياً على السياسة . لقد حاولوا (كما يقول الأنجليز) وضع العربة امام الحصان وقد نجحت الفكرة .

ثالثاً: وعامل آخر مهم ان كل الأعضاء المشاركين في السوق ذو ايديولوجيات متماثلة ونظم اقتصادية متشابهة واخيراً فأنهم قد تبنوا استراتيجية تعتمد بدرجة كبيرة على آراء مشتركة في اختيار صفقات متكاملة وتربطهم مصالح متوازنة» (١٦).

ونفهم من هذا مدى اهمية طبيعة الدول وخصوصيتها في انجاح اي تكتل من التكتلات الأقليمية .

أما عن مستقبل السوق المشتركة فنرى ان اللورد فرنسيس ارثر كوكفيلد- نائب رئيس هيئة مندوبي السوق والمسؤول عن الشؤون الداخلية والشخصية المؤثرة في نشاط السوق يدفع اوربا تجاه الوحدة، حيث وضع برنامج زمني متكامل لخطة الوحدة الأوربية، وتمت موافقة مجلس وزراء السوق على هذا البرنامج في شهر حزيران ١٩٨٥ . ويعرف هـذا البرنامج بأسم «الورقة البيضاء والخاصة بأستكمال السوق الداخلية» وتضمن أكثر من ٣٠٠ اصلاح يجب القيام بها في (اطار جدول اعمال واقعي وملزم) يكون نتيجتها ازالة كافة العقبات المالية والفنية والطبيعية في وجه التجارة داخل السوق المشتركة وان يتم ذلك بالتحديد بحلول يوم ٣١ من شهر كانون الأول عام ١٩٩٢ وبتحقق خلق سوق اوربية مفتوحة تضم ٣٢٠ مليون نسمة بكل ماتنطوي عليه تلك السوق من آثار ومضاعفات اقتصادية وسياسية (١٧) وكلما اقترب هذا التاريخ أخذت القوى الأقتصادية الدولية تنظر الى تطور السوق المشتركة وتحولها الى قوة اقتصادية تضم كل دول اوربا الغربية ذات الصناعة المتقدمة والتقنية والتي يساندها حجم سكاني كبير يعيش بمستوى معاشي عالي، وتحركت الولايات المتحدة الأمريكية اذ عقدت عام ١٩٨٧ اتفاقية حرية التجارة مع كندا لتحقق بها الغاء الحواجز الكمركية بين البلدين عام ١٩٩٠ اي قبل ان تحقق اوربا الغربية هدفها بسنتين كما تحركت اليابان بدعم اتحاد دول جنوب شرق آسيا لتشكل كتلة اقتصادية ثالثة في آسيا تقودها اليابان (١٨).

المبحث الثاني : الانتساب الى السوق المشتركة (علاقة السوق مع الدول النامية) :

نصت المادتين (١٣١، ٢٣٨) من معاهدة روما عام ١٩٥٧ الخاصة بأنشاء السوق الأوربية المشتركة على نظام الأنتساب والذي تضمن انضمام دولة أو دول الى السوق بصفة العضوية المنتسبة (المشاركة) عن طريق عقد اتفاقيات انتساب بين السوق وتلك الدول ، وعقدت اتفاقيات مابين السوق ومجموعة من دول حوض البحر الأبيض المتوسط واخرى مابين السوق والدول النامية.

أولاً : علاقة السوق مع دول البحر المتوسط :

اتخذت اتفاقيات الأنتساب مابين السوق ومجموعة دول البحر المتوسط اربعة انواع من العلاقة التكاملية :

١ ــ **اتفاقيات تمهد للعضوية الكاملة** : يلاحظ في هذا النوع اتفاقين :

الأول : بين السوق واليونان الذي عقد في شهر تموز /١٩٦١ ومهد الى العضوية الكاملة لليونان (١٩) اذ قبلت في عام ١٩٧٩ وباشرت عضويتها الفعلية عام ١٩٨٠.

الثاني : بين السوق وتركيا اذ بدأ بعقد معاهدة انقرة في ١٩٦٣/٩/١٢ وسارت علاقة مابين الطرفين حكمتها المتغيرات والأحداث التي وقعت في منطقة الشرق الأوسط خاصة خلال الفترة (١٩٧٣ــ١٩٨٠) ولم تتحقق العضوية الكاملة لتركيا في السوق اذ لازالت تجدد مساعيها في هذا الشأن كما تضمنه طلبها المقدم الى السوق في شهر نيسان عام ١٩٨٧ (٢٠) ويمكن اعتبار العلاقة مابين السوق وتركيا هي تقوية العلاقات التجارية والأقتصادية ودعما للاقتصاد التركي .

٢ ــ **اتفاقيات انتساب تهدف الى انشاء منطقة تجارة حرة** : نظراً للعلاقة التي كانت تربط فرنسا احدى دول السوق المشتركة وبعض دول شمال افريقيا (المغرب ، الجزائر تونس) فقد عقدت هذه الدول عام ١٩٦٩ كل على حدى اتفاقيات انتساب انشئت بموجبها منطقة تجارة حرة بين السوق وهذه الدول (٢١) .

٣ — اتفاقيات انتساب تهدف الى اقامة تنظيم تفضيلي: في هذا النوع عقد اتفاقين: الأول بين السوق المشتركة واسبانيا تجاوز التنظيم التفضيلي ليمهد الى العضوية الكاملة حيث وافقت دول السوق على قبول اسبانيا في عضويتها عام ١٩٨٥ وباشرتها فعلا في بداية عام ١٩٨٦ (٢٢) والأتفاق الثاني : عقد بين السوق و (اسرائيل) عام ١٩٧٠ وتطورت العلاقة أكثر من الأتفاق التفضيلي في الأتفاقية الموقعة بين الطرفين في ١/٢٢ / ١٩٧٥ لتأخذ بعداً جديداً بأقامة منطقة تجارة حرة ولاتزال (اسرائيل) تطمح في العضوية الكاملة (٢٣).

٤ — دول ترتبط بأتفاقيات تجارية غير تفضيلية: ويعتبر هذا النوع اضعف من اتفاقيات الأنتساب واقوى من الأتفاقيات التجارية اذ يجرى فيه تخفيضات كمركية على مجموعة معينة من السلع ويمثله الأتفاق الذي عقد بين السوق ولبنان عام ١٩٦٥، واتفاق السوق ويوغسلافيا عام ١٩٧٠ (٢٤).

ثانياً : علاقة السوق مع الدول الاخرى :

اقامت السوق الأوربية المشتركة علاقتها مع الدول النامية من خلال نظام الأنتساب الذي مثلته المعاهدات التي عقدت مابين السوق وهذه الدول منذ عام ١٩٦٣ نظراً لاستقلال هذه الدول وقيام دولها الوطنية وهذه المعاهدات هي :

معاهدة ياووندا الأول والثانية، معاهدة اروشا، معاهدة لومي الأولى والثانية والثالثة.

١ — معاهدة ياووندا (Yaounda Convention):

أرادت كل من فرنسا وبلجيكا الدول الأعضاء في السوق الأوربية المشتركة المحافظة على علاقتها مع الدول الأفريقية التي كانت خاضعة لها وحصلت على استقلالها ،وعلى هذا الأساس تم التوقيع في مدينة ياووندا (عاصمة الكاميرون) عام ١٩٦٣ على اتفاقية بين دول السوق و(١٨) دولة افريقية من مستعمرات فرنسا وبلجيكا السابقة ومن ضمنها مدغشقر وعرفت هذه الأتفاقية بأسم «اتفاقية ياووندا الأولى» وتم بموجب هذه الأتفاقية

انتساب هذه الدول الأفريقية الى السوق ، وحددت الأتفاقية تنظيم العلاقات الأقتصادية على اساس نظام الأنتساب (٢٥) حيث تضمنت :

١ - الغاء الرسوم الكمركية والقيود الكمية على السلع المتبادلة بين الطرفين .

٢ - منح الدول الأفريقية تفضيلات تجارية بخصوص صادراتها الى السوق مع ترك الحرية امامها في فرض الرسوم الكمركية او القيود الكمية على السلع التي تستوردها من السوق اذا اقتضت سياسة التنمية الأقتصادية لاية دولة افريقية ذلك .

٣ - التزام دول السوق المشتركة بدراسة القيود التي تفرضها على المنتجات الزراعية المستوردة من الدول الأفريقية والتي تنافس حاصلاتها الزراعية.

٤ - حرية الأقامة وتمويل رؤوس الأموال بين الطرفين .

٥ - زيادة القروض المقدمة من قبل بنك الأستثمار الأوربي وصندوق التنمية الأوربي لتمويل المشاريع (٢٦) التي تقتضيها عملية التنمية في هذه الدول .

وحصلت الدول الأفريقية هذه خلال السنوات العشر الأولى من تأسيس صندوق التنمية الأوربي التابع للسوق الأوربية على (١,٣١١) مليون جنيه استرليني في حين فقدت في نفس الفترة (١,٦٥٩) مليون جنيه استرليني والسبب في ذلك يعود الى هبوط نسبة التبادل (Terms of Trade) بين الطرفين (٢٧) .

ويرى الدكتور سعد ماهر حمزة بأن هذه الأتفاقية جعلت من السوق الأوربية المشتركة «وسيلة حديثة لاستعمار القارة الأفريقية والقضاء على الصناعة فيها والأبقاء على حالة التبعية» (٢٨) .

وفي عام ١٩٦٩ عقدت اتفاقية « ياووندا الثانية» بين السوق المشتركة ونفس الدول الأفريقية الثمانية عشر الموقعين على اتفاقية ياووندا الأولى بالأضافة الى موريشيوس » وتضمنت هذه الأتفاقية نفس الأسس التي اعتمدتها الأتفاقية الأولى لتنظيم العلاقة التكاملية فضلا عن اعطاء هذه الأتفاقية الدول الأفريقية حرية اقامة تكامل اقتصادي فيما بينها عن طريق انشاء سوق حرة او اتحاد كمركي (٢٩).

٢ـ أتفاقية أروشا :

رغبة من دول السوق المشتركة في توسيع نظام الأنتساب مع الدول الأفريقية ونظراً للمزايا التي حققتها من تطبيق هذا النظام ، فقد تم عام ١٩٦٩ عقد اتفاقية اروشا بين السوق المشتركة وكل من كينيا ، اوغندا ، تنزانيا ، وتضمنت هذه الأتفاقية نفس الأسس التي تضمنتها اتفاقية ياووندا الأولى والثانية بأستثناء الأشارة الى الشرط الخاص بالتزام دول السوق المشتركة بدراسة القيود التي تفرضها على المنتجات الزراعية من الدول الأفريقية والتي تنافس حاصلاتها الزراعية (٣٠) وبهذه الأتفاقية اصبح عدد الدول الأفريقية المرتبطة مع السوق المشتركة على اساس نظام الأنتساب اثنتا وعشرين دولة.

٣ـ أتفاقية لومي : Lome Agreement:

كان للاحداث والتطورات الجديدة التي حصلت بعد نهاية الستينات الأثر في اتجاه السوق المشتركة الى توسيع نظام الأنتساب ليشمل عدد آخر من الدول النامية في افريقيا والبحر الكاريبي والمحيطين الهادي والهندي، ومن اهم هذه التطورات :

١ ـ دخول بريطانيا الى السوق المشتركة كعضو أصيل عام ١٩٧٣ وحيث ان بريطانيا تربطها علاقات اقتصادية مع دول الكومنويلث وترغب في بقاء هذه العلاقة عن طريق ارتباط هذه الدول بالسوق المشتركة كما فعلت كل من فرنسا وبلجيكا، وان البعض من دول الكومنويلث (كينيا ، تنزانيا ، اوغندا) قد ارتبطت بالسوق بموجب اتفاقية اروشا وموريشيوس بأتفاقية ياووندا الثانية منذ عام ١٩٦٩.

٢ ـ تخوف دول السوق المشتركة من اتساع العلاقات الأقتصادية (للكومكيون) مع الدول النامية.

٣ ـ ازدهار حركات التحرر الوطني والقومي في معظم دول العالم الثالث وتطلع هذه الدول للمناداة بتغير العلاقات الأقتصادية الراهنة والأتجاه نحو نظام اقتصادي دولي يقوم على اساس التكافؤ والمعاملة بالمثل بين الدول المتقدمة والدول النامية، فما كان من دول

السوق المشتركة امام هذه المطالبة الا بذل الجهود لاحتواء هذه التيارات عن طريق تطوير نظام الأنتساب على اسس وشروط جديدة للتعاون الأقتصادي الذي تقبل به الدول النامية والحفاظ على العلاقات الأقتصادية الدولة الراهنة القائمة مابين الدول الصناعية والدول النامية (٣١).

وبناء على هذه التطورات تقدمت السوق المشتركة عام ١٩٧٣ بمشروع يهدف زيادة عدد الدول النامية المنتسبة الى السوق، وتضمن المشروع الأسس الواردة في اتفاقيتي ياووندا الأولى والثانية واتفاقية اروشا والتفضيلات القائمة بين بريطانيا ودول الكومنويلث يسمح لدخول هذه الدول الأخرى الى نظام الأنتساب وكذلك لدخول عدد آخر من الدول النامية ودارت مفاوضات حول هذا المشروع برز فيها الدور الأيجابي والمؤثر لمنظمة الوحدة الأفريقية، وانتهت المفاوضات الى توقيع اتفاقية (لومي) في ٢٨ شباط عام ١٩٧٥ بين السوق الأوربية المشتركة و ٥٩ دولة من الدول النامية في افريقيا ومنطقة الكاريبي والمحيطين الهندي والهادي واشتملت الأتفاقية على ثلاث جوانب (السياسة التجارية، الجانب الفني، الجانب المالي) وقد وضع الجانب المتعلق بالسياسة التجارية موضع التنفيذ مباشرة، اما الجانبين الاخيرين فقد وضعا في شهر نيسان ١٩٧٦ وحددت فترة العمل بهما لمدة خمسة سنوات تنتهي عام ١٩٨٠ (٣٢).

ويهمنا الجانب المتعلق بالسياسة التجارية حيث تضمن :

١ — تخفيض الرسوم الكمركية والقيود الكمية وتوحيدها بالنسبة للسلع التي تدخل السوق المشتركة من الدول النامية الأعضاء، مع الأحتفاظ بتطبيق بعض القيود على المنتجات الزراعية واصبحت قائمة السلع التي تتمتع بالأعفاء والتي لاتتعرض للقيود عند دخولها دول السوق المشتركة (٩٩٪) السلع التي تصدرها الدول النامية الأعضاء .

٢ — اعطاء الدول النامية الحرية في فرض القيود التجارية على السلع المستوردة من السوق.

٣ — اعطاء الدول النامية الحرية في الدخول في اتفاقيات تكاملية مع الدول الأخرى.

فضلا عن ذلك تضمنت الأتفاقية بعض الأجراءات الخاصة بالتسويق (٣٣) .

وأهم ماجاءت به هذه الأتفاقية هو نظام تثبيت حصيلة المنتجات الأساسية (STABEX) لذلك نصت على انشاء صندوق موازنة اسعار التصدير (٣٤) ويهدف هذا النظام الى التزام دول السوق المشتركة بتعويض الدول النامية الأعضاء عن الأضرار التي تتعرض لها جراء انخفاض عوائد صادراتها على أثر تردي معدلات اسعار تلك الصادرات داخل السوق المشتركة وخصصت الأتفاقية مبلغاً قدره (٣٧٥) مليون وحدة حسابية اوربية تنفق للتعويض خلال مدة الأتفاقية (خمس سنوات) عن طريق صندوق موازنة اسعار التصدير اي بمعدل (٧٥) مليون وحدة سنوياً وارتبط اسلوب الأنفاق بشروط اهمها، ان السلعة المصدرة لاتستحق تعويضات الصندوق الا عندما تكون معدلات انخفاض اسعارها داخل السوق المشتركة تتجاوز ٧,٥٪ عن مستوى الأسعار السائدة بالسنة السابقة وان تتجاوز قيمة صادرات تلك السلعة ٧,٥٪ من مجموع قيمة صادرات تلك الدول الى دول السوق المشتركة (٣٥).

وقبل انقضاء مدة الخمس سنوات جددت الأتفاقية بين السوق المشتركة والدول النامية بأتفاقية لومي الثانية التي وقعت في ٢١ تشرين الأول ١٩٧٩ لمدة خمس سنوات أخرى ولم تختلف من حيث الأساس عن الأتفاقية الأولى بل تعدتها الى تطبيق مبدأ الدول الأولى بالرعاية الذي اصبحت تتمتع به دول السوق المشتركة في حالة منح الدول النامية مزايا تفضيلية لدول صناعية خارج السوق، وكذلك زيادة المبالغ المخصصة للاستثمار بنسبة ٦٢٪ عن الأتفاقية الأولى ورفع المبالغ المخصصة لصندوق موازنة اسعار التصدير الى ٥٥٠ مليون وحدة حسابية اوربية (٣٦).

حدد شهر شباط عام ١٩٨٥ تأريخاً لأنهاء العمل بأتفاقية لومي الثانية، الا اننا نرى منذ شهر تشرين الأول عام ١٩٨٣ بدأت مفاوضات بين دول السوق المشتركة والدول النامية الأعضاء في اتفاقية لومي الثانية واستغرقت هذه المفاوضات حوالي السنة حيث كانت نهايتها في ٢٣/ تشرين الثاني/ ١٩٨٤ في مدينة بروكسل (بلجيكا) وعلى أثر ذلك تم التوصل الى توقيع اتفاقية جديدة في ١٨ كانون الأول عام ١٩٨٤ في مدينة لومي عاصمة (توغو) وحددت مدتها أيضاً لمدة خمسة سنوات تبدأ من شهر شباط عام ١٩٨٥ وازداد عدد الدول النامية الموقعة على اتفاقية لومي الثالثة ليصبح (٦٤) دولة من افريقيا ومنطقة الكاريبي والمحيطين الهندي والهادي (٣٧) واعتبر بيتر باري (ايرلندا) رئيس مجلس وزراء

السوق المشتركة آنذاك ان نجاح المفاوضات حدث سياسي مهم ويقول عن ذلك: «انه ليس هناك اي نموذج آخر للتعاون اسهم في تحديد العلاقات بين هذا العدد الهائل من الدول النامية والدول الصناعية (٣٨).

ونصت اتفاقية لومي الثالثة على الأجراءات التي تنظم العلاقات الأقتصادية التكاملية عن طريق نظام الأنتساب بين دول السوق المشتركة والدول النامية الموقعة على الأتفاقية نشير الى اهمها :

١ — تستفيد الدول النامية من مبلغ اجمالي قيمته (٨,٥) مليار وحدة حسابية اوربية أي مايعادل (٦,٣) مليار دولار آنذاك .

٢ — رصد مبلغ (٧,٤) مليار وحدة حسابية اوربية اي مايعادل (٥.٥) مليار دولار من الصندوق الأوربي للتنمية لدعم اعمال التعاون .

٣ — تخصيص بنك الأستثمار الأوربي مبلغاً قدره (١,١) مليار وحدة حسابية اوربية أي مايعادل (٨١٤) مليون دولار للقروض طويلة الأجل ذات الفائدة المنخفضة التي ستمنح للدول النامية .

٤ — تخصيص مبلغاً قدره (٩٢٥) مليون وحدة حسابية اوربية اي مايعادل (٦٨٤) مليون دولار لصندوق موازنة اسعار التصدير حتى تتمكن الدول النامية الأستفادة من نظام تثبيت حصيلة المنتجات الأساسية ،وكان المبلغ المخصص في الأتفاقية الأولى (٣٧٥) مليون وحدة وفي الثانية (٥٥٠) مليون وحدة .

٥ — تخصيص مبلغاً قدره (٤١٥) مليون وحدة حسابية اوربية اي مايعادل (٣٠٧) مليون دولار يوضع تحت تصرف نظام سيصمين وهو نظام خاص بالأنتاج التعديني ، فضلا عن ذلك فأن الأتفاقية وضعت نظام للتفضيل التجاري بحيث يسمح بدخول كميات كبيرة من منتجات الدول النامية الأعضاء بالأتفاقية الى دول السوق المشتركة بحرية كما حددت صيغة التعاون في الصناعة والزراعة والمناجم والطاقة والصيد، وكذلك حددت ستراتيجية زراعية لتحقيق الأكتفاء الذاتي الغذائي بين الدول الأعضاء .

ومن الجدير بالذكر ان هذه الأتفاقية اشارت لأول مرة الى حقوق الأنسان التي تضمنتها ميثاق الأمم المتحدة وادانت سياسة الفصل العنصري (Apartheid) التي تمارسها حكومة جنوب افريقيا ضد السكان الأفارقة الأصليين (٣٩) .

وبهذه الأتفاقية (لومي الثالثة) أستطاعت السوق الأوربية المشتركة ان تنظم العلاقات الأقتصادية بينها وبين معظم الدول النامية عن طريق الأنتساب الى السوق المشتركة كأعضاء منتسبين (Conutries Associated) من اجل ان يبقى تطور ونمو هذه الدول اسيراً وتبعاً لاقتصاديات دول السوق المشتركة من جهة وليدعم موقفها في صراعها مع الكتلتين الأقتصاديتين بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية واليابان .

مسيرة العلاقة :

تميزت السوق الأوربية المشتركة بأفتقارها الى التماسك في السياسة تجاه العالم الثالث واعطاءها اهمية لاعادة حوار الشمال والجنوب، وان الحكومات الأعضاء في السوق تتعامل مع كل مسألة تتصل بالعالم الثالث بأنها مشكلة قائمة بذاتها وعلى هذا الأساس برزت عدة تناقضات فيعلاقات السوق المشتركة والدول النامية وكشف عن هذه التناقضات مسح أجري بعنوان (السوق الأوربية المشتركة والعالم الثالث) ونشر في لندن عام ١٩٨١ تحرير كريستوفر ستيفنس، نشر بالمشاركة مع معهد التنمية لماوراء البحار، لندن ،ومعهد دراسات التنمية فيجامعة «سكس» وتوصل الى ان ابرز التناقضات هي في مجالات الطاقة وانتقال رؤوس الأموال والتبادل التجاري والمعونة.

فيما يخص الطاقة تبين ان الشركات الأوربية تميل الى ممارسة نشاطها في الدول المتقدمة في حين ان هيئة السوق المشتركة تهدف الى بناء القدرة الأنتاجية في الدول النامية ومن اجل ذلك اصبح الأتجاه الى تخفيض حدة التنافس على الأمدادات النفطية ومساعدة الدول النامية على أجتناب ازمات التبادل الخارجي حتى تتمكن من شراء منتجات السوق المشتركة وبلغت معونة السوق المشتركة المقدمة للدول النامية في مجال الطاقة عام ١٩٨٠ حوالي بليون دولار وتركزت على مشاريع غير نفطية خلافاً لماجاءت به اتفاقية لومي الأولى .

وتبين بأن انتقال رؤوس الأموال في الأسواق الأوربية أدى في الواقع الى انتقالها من الدول النامية الفقيرة الى الدول النامية الغنية، وان ٩٩,٧٪ من الأقراض الصافي في الأسواق الأوربية الى الدول النامية غير النفطية في عام ١٩٧٩ اتجه الى الأرجنتين والبرازيل وليبريا وكوريا الجنوبية والمكسيك .

وفيما يتصل بالتبادل التجاري يلاحظ ان ٩٩,٥٪ من صادرات الدول النامية الى السوق المشتركة معفاة من الرسوم الكمركية، وان معظم هذه الصادرات مواد اولية (خام) ويتنبأ المسح الذي اجري بتفاؤل مفاده ان السوق الأوربية المشتركة لن تفرض قيوداً واسعة المدى على الواردات من الدول النامية وطبيعي ذلك لأن الألية الداخلية للسوق المشتركة تعمل بشكل عام لمصلحة التجارة الحرة ، وفي هذا الصدد لابد من الأشارة بان دول السوق اتبعت سياسة خاصة في الأستثمار الخارجي بالدول النامية اذ وسعت استثماراتها في قطاعات انتاج المواد الأولية والمعدنية من اجل تأمين المواد الأولية والمعدنية الرخيصة للشركات الصناعية الأوربية.

ويلاحظ ان اربعة اخماس المعونة لتمويل المشاريع التنموية في الدول النامية والمقررة في اتفاق لومي الأول بقيت حتى شهر ايلول عام ١٩٧٩ غير منفقة (٤٠).

ان هذه التناقضات في علاقة السوق المشتركة والدول النامية في مجالات الطاقة وانتقال رؤوس الأموال والتبادل التجاري والمعونة والتي تمثل مسيرة العمل ودخول الدول الأوربية الجديدة (اليونان واسبانيا والبرتغال) عضوية السوق واثره على المشاكل الداخلية للدول الأوربية التسع والعلاقة الخاصة القائمة بين السوق المشتركة وبعض التجاريين في الدول النامية كل ذلك سيؤدي الى آثار سلبية على انتساب (مشاركة) الدول النامية الى السوق المشتركة في المستقبل .

الخاتمة

ان التكتل الأقتصادي الأقليمي الذي مثله الأتحاد الكمركي الألماني والذي اقيم عام ١٨٣٣ بين الولايات الألمانية تطور الى الوحدة السياسية الألمانية عام ١٨٧١، واصبح قاعدة للتطور والتنمية الأقتصادية واساساً للصناعة فيها، ونتيجة للتطورات والمتغيرات التي افرزتها الحرب العالمية الثانية اتجهت الدول لاقامة تجارب للتكتل الأقتصادي الأقليمي فيما بينها ومن هذه التجارب كانت تجربة السوق الأوربية المشتركة التي اقيمت بموجب معاهدة روما (١٩٥٧) وكانت الدول الست المؤسسة بحاجة اليها لاعادة مادمرته الحرب واعادة الصناعات الأوربية ومكانتها الأقتصادية والسياسية في المجتمع الدولي واتبعت الأسلوب التدريجي لالغاء الرسوم الكمركية وتحقيق الأتحاد الكمركي واعتماد تعريفة كمركية واحدة وانتهجت اسلوب التنسيق في السياسة الزراعية ونجحت في هذا المجال الى حد الأكتفاء الذاتي واعطت الحرية لانتقال العمل ورأس المال وتسهيل تبادل العملات الأوربية والتنسيق في كافة العلاقات الأقتصادية. فضلا عن التنسيق في مجال البحث العلمي والبرمجة الأقتصادية والعلاقات الأقتصادية الدولية وتسعى حاليا لتوحيد النقد باعتماد عملة موحدة واصبح تحقيق قيام السوق حقيقة بعد ان تم تحديد يوم ٣١ كانون الأول عام ١٩٩٢ بازالة كافة العقبات المالية والفنية والطبيعية امام التجارة بين الدول الأعضاء ولتصبح سوقاً مشتركاً موحدة وتطمح الى توحيد اوربا سياسياً وتعتبر هذه التجربة نموذجاً من نماذج التكامل الأقتصادي الرأسمالي والتكامل الأقتصادي الأفقي في آن واحد لتقارب مستويات تطور الدول الأعضاء فيها.

وان السوق المشتركة اقامت علاقة تكاملية مع الدول النامية من خلال نظام الأنتساب، (المشاركة) عن طريق اتفاقية ياووندا الأولى (١٩٦٣) والثانية (١٩٦٩) واتفاقية اروشا (١٩٦٩) واتفاقية لومي الأولى ١٩٧٥ (والثانية (١٩٧٩). والثالثة (١٩٨٤) وكانت بعض دول السوق تهدف من هذه العلاقة المحافظة على ديمومة مصالحها وعلاقاتها مع الدول النامية التي كانت خاضعة اليها والأستفادة من المقومات الأقتصادية الكبيرة لامتلاكها موارد طبيعية غير مستثمرة وانها مصدرا للسلع الأساسية الهامة (النفط) هذا من جهة، ومن جهة اخرى ان الدول النامية راغبة في المشاركة بالسوق المشتركة لانها تعاني من المشاكل الأقتصادية خاصة

التي تتصل بتجارتها الخارجية وتنميتها الأقتصادية والأجتماعية، فضلا عن كونها تعتقد بأن انتسابها الىالسوق المشتركة سوف يساعدها في التغلب على مشاكلها ويحقق لها الحصول على المساعدات والقروض .

وحصل تناقض في علاقات السوق المشتركة والدول النامية في مجالات الطاقة وانتقال رأس المال والتبادل التجاري والمعونة،خاصة استثمار رؤوس الأموال الأوربية في الدول النامية في قطاعات انتاج المواد الأولية والمعدنية لدعم الصناعة والتجارة الأوربية وهذا التناقض سيؤدي الى آثار سلبية على انتساب الدول النامية الى السوق المشتركة .

ان العلاقة التكاملية بينالسوق المشتركة والدول النامية عن طريق نظام الأنتساب(المشاركة) تمثل نموذجا للتكامل الأقتصادي الرأسي (العمودي) وهو لصالح الدول الأوربية الأكثر تقدماً وتطوراً وليس في صالح الدول النامية ، كما ان نظام الأنتساب يعالج بالاساس مشكلة القيود التجارية المفروضة على التجارة الخارجية وان الدول النامية لاتستفاد منه لانها تفتقر الى التنوع في هياكلها الأقتصادية .

وبما ان معظم الدول النامية المنتسبة الى السوق المشتركة يقوم بينها تكتل اقتصادي اقليمي فينصح ان يعمق هذا التكتل ويعمل على تقويته واعتماد اسلوب التخطيط الأقتصادي المشترك لبلوغ التكامل الأقتصادي فيما بينها ومن ثم بالامكان ان يقيم كل تكتل اقليمي علاقة منفردة مع السوق المشتركة تحكمها ظروف وطبيعة وخصوصية ذلك التكتل .

الهوامش

(١) للتفصيل انظر :

- G.D.H. Cole, Introduction to Economic. History 1750–1950, Great Britain, 1954, P.68.
- Victor cohen, Economic Society, William Heinemann, Ltd, 4ed, 1955, P. 267.

– جورج سول، المذاهب الأقتصادية الكبرى ترجمة د. راشد البراوي ، مكتبة النهضة المصرية– القاهرة ط٢ . ١٩٥٧،ص ص ١١٣–١١٦.

– د. لبيب شقير ، العلاقات الأقتصادية الدولية، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٨٧ .

(٢) (2) G.D.H. Cole, op. cit. PP 72–73. PP. 206–207.

(٣) للتفصيل انظر :
جورج سول، المرجع السابق، ص‌ص ٥١–٨٢.

(٤) ان للا يديولوجية التي يؤمن بها المفكرين أثر في أعطاء تعريف للتكامل ولـلا طلاع على تعريف التكامل في النظام الرأسمالي انظر بالاسا وتمبرجن :

B. Balassa, The Theory of Economic Integration, Gorge Allen and Unwin Ltd, London, 1965.

Tembergen, Jan, International Economic Integration, Amsterdam, London. N.Y. 1965.

وعن النظام الأشتراكي انظر خاصة ماجاء به الأقتصاديين الأشتراكيين (فامبكي يوغوفولوف) عند : د. مفيد حلمي ، د. محمد كامل زبيدة التكامل الأقتصادي الأشتراكي ، دار التقدم العربي دمشق ١٩٧٣، ص٦٧.

(٥) ويحدد (بالاسا) خمس درجات دون التفضيل الكمركي انظر :

B. Balassa, op. cit, P.P. 1–2.

(٦) عبد الوهاب حميد رشيد، دراسات في العلاقات الأقتصادية العربية، بغداد ١٩٧٤ ص١٩–٢١.

(٧) د. سعد ماهر حمزة، التكامل الأقتصادي مع الأهتمام بالوحدة الأقتصادية العربية ، مجلة دراسات في الأقتصاد والتجارة (بنغازي) المجلد (٩). العدد ٢(١٩٧٣)، ص ص ٧٣–٧٤

(8) Fuat Andic etaal, A. Theory of Economic, Integration for Developing, Countries, London: George Allen and Unwin Ltd, 1971. P. 70.

(٩) للتفصيل انظر :

- G.D.H. Cole, op. cit. PP. 156–157, P. 188.,

- H.A. Silverman, The Substance of Economica Sir Isaac Pitman and Sons. Ltd. 14, ed, 1957, P. 261, P. 326.

- بحث الدكتور خليل علي مراد(تركيا والمنظمات الدولية)المنشور ضمن كتاب تركيا المعاصرة ، مركز الدراسات التركية ،جامعة الموصل ١٩٨٨، ص١٩٥.

ومن الجدير بالذكر ان ميثاق (اوسيد) وقع في (١٩٦٠/١٢/١٤) في باريس ومارست هذه المنظمة نشاطها منذ (١٩٦١/٩/٣٠) واتخذت من باريس مقراً لها وتكونت الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ودول غرب اوروبا وانضم اليها دول اخرى مثل تركيا (١٩٦١) اليابان (١٩٦٤). فنلندا (١٩٦٩)، استراليا (١٩٧١)، نيوزيلندة (١٩٧٣) وتضم حالياً (٢٤) دولة صناعية رسمالية متقدمة .

(١٠) الجماعة الأوربية والعالم العربي، مديرية الأعلام العامة ، لجنة الجماعة الأوربية بروكسل ١٩٧٦، ص ص ٨–٩.

(١١) للتفصيل عن نشأة السوق انظر :

- B. Balassa (editor), European Economic Integration. North Holland 1976.

- Johan, Goltung. The European Economic Communtity: A super Powering the Making George Allen and Unwin Ltd. London. 1973.

(١٢) ترجع جذور الوحدة السياسية الأوربية الى اوائل القرن التاسع عشر عندما حاول نابليون توحيد اوربا سياسياً واقتصادياً ، كما نادى السياسي الفرنسي ارستيد بريان (Aristide Brian) في الثلاثينات من هذا القرن بتكوين الولايات المتحدة الأوربية .

(١٣) للتفصيل عن العضوية في السوق انظر :

- د. محمد هشام خواجكية، التكامل الأقتصادي في الخليج العربي ، منشورات مجلة الخليج والجزيرة العربية، د.ت ، ص ٣١٢.

- د. سعد ماهر حمزة، المرجع السابق، ص ص ٧٥–٧٧.

- د. خليل علي مراد ،المرجع السابق ،ص١٩٧.
- الجماعة الأوربية والعالم العربي ، المرجع السابق ،ص ١٧
- جريدة الثورة العراقية العدد ٥٤٤٢(١١/ نيسان /١٩٨٥).

(١٤) الجماعة الأوربية والعالم العربي ، المرجع السابق ، ص١٣.

(١٥) المرجع نفسه، صص١٤-١٥.

(١٦) د. الوكاس توكاس، الدروس المستخلصة من التجارب الدولية في مجال التعاون مع التركيز على تجربة السوق الأوربية المشتركة (ندوة مستجدات التعاون في الخليج العربي ١٩٨٢)، شركة المطبعة العصرية ومكتباتها الكويت، د. ت، ص ٣٩.

(١٧) للتفصيل انظر :

لي بروس ،اللورد كوكفيلد مندوب المجموعة الأوربية،يدفع اوربا تجاه الوحدة، مجلة عالم الأدارة ، مطبوعات ماجرو (سنغافورة) شباط /٩٨٧ صص١٢-١٦.

(١٨) جوزيف ملكون، العالم يتجه نحو التكتلات الأقتصادية ومجلس الوحدة الأقتصادية يراوح مكانة (جريدة الجمهورية العراقية، العدد ٧٠٣١ السنة ١٢) . ١٧ كانون الأول ١٩٨٨، ص٢.

(١٩) د. سعد ماهر حمزة ، المرجع السابق ، ص ٧٧

(٢٠) للتفصيل عن علاقة السوق المشتركة مع تركيا انظر :

د. خليل علي مراد ،المرجع السابق، صص١٩٥- ٢٠١.

(٢١) د. سعد ماهر حمزة المرجع السابق ، ص٧٧ .

(٢٢ انظر المرجع نفسه وسرور محمد،قبول شروط لا سبانيا والبرتغال جريدة الثورة (العدد ٥٤٤٢) في ١١/ نيسان/ ١٩٨٥ نقلا عن لوموند والفيفارو

(٢٣) للتفصيل عن انتساب (اسرائيل) الى السوق المشتركة انظر :

- د. محمد احمد صقر . دراسات في الأقتصاد الأسرائيلي ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، ١٩٧٥، ص٤٢-٤٧.
- الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٥، منشورات مؤسسة الدرسات الفلسطينية بيروت ١٩٧٨.

صص ٣٠٥- ٣٠٧، ص ص ٣٥٢- ٣٥٣، ص ص ٤٩٦- ٤٩٩.

(٢٤) د. سعد ماهر حمزة، المرجع السابق، ص٧٨ .

(٢٥) المرجع نفسه، ص٧٦، الجماعة الأوربية والعالم العربي ، المرجع السابق صص٢٠ - ٢١.

(٢٦) د. عبد الأمير رحيمة العبود. «اتفاقية لومي» اتجاهاتها الرئيسة وآثارها على الدول النامية مجلة دراسات عربية، دار الطلبة العدد (٦) السنة (١٦) نيسان، بيروت ١٩٨٠ ص ص١٠٨-١٠٩ .

(٢٧) د. سعد ماهر حمزة ، المرجع السابق، ص١٠١ .

(٢٨) المرجع نفسه ص ٧٦.

(٢٩) د. عبد الأمير رحيمة العبود، المرجع السابق ،ص ١٠٩ .

(٣٠) المرجع نفسه.

(٣١) المرجع نفسه، ص‌ص١٠٩-١١٠

(٣٢) للتفصيل انظر :

- المرجع نفسه ص ص ١١١-١١٢ .
- حسين آغا وآخرين، بعض المسائل الاقتصادية في الأقطار النامية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ص ١٩٨٢ ، ص ٣٠ .

(٣٣) د. عبد الأمير رحيمة العبود ، المرجع السابق، ص١١٢.

(٣٤) للتفصيل عن نظام (STABEX) انظر (المرجع نفسه ص ص١٢٠ - ١٢٢)

(٣٥) المرجع نفسه، ص ١١٤.

(٣٦) للتفصيل انظر :

- المرجع نفسه، ص ص١١٤-١١٩.
- حسين آغا وآخرين، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣٧) جريدة الثورة العراقية (٢٤تشرين الثاني ١٩٨٤).

(٣٨) المرجع نفسه

(٣٩) المرجع نفسه

(٤٠) حسين آغا وآخرين، المرجع السابق، ص ص ٢٩-٣١.

تقويم مجموعة وخدمات قسم الدوريات في المكتبة المركزية لجامعة الموصل

محمود جرجيس محمد

كلية الهندسة / جامعة الموصل

المقدمة :

في ضوء التطورات الحديثة التي تشهدها حركة البحث العلمي في جامعة الموصل والمتمثلة في التوسع الأفقي والعمودي في الدراسات العليا وازدياد عدد الباحثين على اختلاف فئاتهم وتنوع بحوثهم وحاجتهم الى المعاصرة والأحاطة بما ينشر حديثاً في حقول اهتماماتهم ، تبرز اهمية الدور الذي يمكن ان يضطلع به قسم الدوريات في المكتبة المركزية في توفير المعلومات والأعلام عنها وارشاد المستفيدين الى كيفية استخدام الكشافات والمستخلصات للوصول الى المعلومات، وبما ان المكتبة المركزية لجامعة الموصل هي المكتبة الجامعية الوحيدة في المنطقة (محافظة نينوى) فليس أمام مستخدمي هذه المكتبة من الباحثين المهتمين بأدب وبحوث الدوريات خيار سوى استخدام قسم الدوريات في هذه المكتبة . ولكن يبدو ان مجموعة الدوريات التي يقتنيها هذا القسم كما ونوعاً والخدمات التي يقدمها لاتفي باحتياجات التدريسيين وطلبة الدراسات العليا من المعلومات ، وعليه فان هذه الدراسة تهدف الى تشخيص نقاط الضعف والخلل في مجموعة وخدمات القسم من خلال قياس المديات (الفرضيات) التالية :ـ

١ — مدى كفاءة مجموعة الدوريات وادوات التكشيف الأستخلاص في نوعيتها وكميتها ومدى تأثير ذلك على مسيرة بحوث التدريسيين وطلبة الدراسات العليا .

٢ — مدى تأثير مشكلة الأعداد الناقصة والأعداد السابقة من الدوريات على تلبية احتياجات التدريسيين وطلبة الدراسات العليا من المعلومات .

٣ — مدى كفاءة الخدمات التي يقدمهاالقسم وعلاقة ذلك ببحوث التدريسيين وطلبة الدراسات العليا .

٤ — مدى كفاءة الكادر العامل في قسم الدوريات في مجال خدمات المعلومات والخدمات الأرشادية الأخرى .

منهج الدراسة وادواتها :

سيتم اختبار فرضيات البحث التي اشرنا اليها اعلاه باعتماد الأسلوبين التاليين : —

١ — الأسلوب الوصفي القائم على التحليل والملاحظة الميدانية ثم تجمع البيانات بواسطة استبيان يوزع على التدريسيين وطلبة الدراسات العليا لمسح اراءهم وانطباعاتهم عن كفاءة مجموعة وخدمات القسم والكادر العامل فيه .

٢ — الأسلوب القياسي القائم على مقارنة مجموعة الدوريات وادوات الأستخلاص والتكشيف الموجودة في القسم مع بعض القوائم البيليوغرافية والكشافات القياسية التي تستخدم كادوات مثلى في بناء مجاميع الدوريات في المكتبات الأكاديمية المتطورة في اوربا وامريكا ومن امثلتها : —

Ivan Farber. Classified list of periodicals for the college Library
Reader's guide to periodical literature.
William katz. Magazine for libraries
Engineering Index
Social Science index
Applied science and technology index
Biolagical & agricultural index.
Chemical abstrats.
Education index.

وهذه القوائم والكشافات جميعها باللغة الأنكليزية . لذلك فقد اقتصرت المقارنة على الدوريات الصادرة بالانكليزية والتي تمثل اكثر من ٩٧/ من مجموع الدوريات الأجنبية الموجودة في القسم . اما بالنسبة للدوريات العربية فلا توفر قوائم اوكشافات قياسية يمكن الأعتماد عليها في المقارنة لذلك فان تقويم هذه المجموعة اعتمد اساساً على مقارنتها مع مجموعة الدوريات العربية المتوفرة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد باعتبارها اقدم مكتبة جامعية في القطر وقد بلغت مجاميعها حداً مرضيا يمكن الوثوق به والأعتماد عليه في المقارنة.

ان اسلوب المقارنة الذي يمثل احد المرتكزات الأساسية التي اعتمدت عليها الدراسة من شأنه ابراز اي ضعف في مجموعة القسم من الدوريات سواء كان هذا الضعف في التغطية الموضوعية اوالزمنية . والواقع ان عملية المقارنة هذه قد سبقت عملية مسح اراء المستفيدين بواسطة الأستبيان فجاءت نتائج تحليل الأستبيان مكملة لنتائج المقارنة ومعززة لها خصوصاً وان الدراسة لاتقتصر على تقويم مجموعة الدوريات فحسب بل تمتد لتشمل تقويم خدمات القسم وكفاءة كادره وهذه امور لايمكن تشخيصها الا من خلال اراء المستفيدين .

التغطية :

لقد اقتصرت عملية المسح على اراء المستفيدين من التدريسيين وطلبة الدراسات العليا في اقسام الكليات الواقعة ضمن المركز الجامعي وهي اقسام كلية الهندسة ، كلية العلوم ، كلية الأداب ، كلية التربية، كلية التربية الرياضية ويبلغ مجموع الأقسام العلمية في هذه الكليات (٢٥) قسماً . وقد ارتأى الباحث دمج اراء المستفيدين في الأقسام المتشابهة لكلية العلوم والأداب والتربية فاصبح العدد الكلي للاقسام ١٦ قسماً . ولم تشمل عملية المسح المستفيدين في الكليات الأخرى اما لكونها تقع بعيداً خارج المركز الجامعي ولها مكتباتها الخاصة بها اولكونها كليات مستحدثة ليس فيها دراسات عليا . يندر ان يقدم تدريسيو هذه الكليات وطلبتها على استخدام المكتبة المركزية لجامعة الموصل.

اهمية الدراسة :

يمكن حصر اهمية هذه الدراسة في النقاط التالية : ــ

١ ــ اشراك التدريسيين وطلبة الدراسات العليا في تقويم مجموعة وخدمات قسم الدوريات والأستفادة من اراءهم ومقترحاتهم بهذا الخصوص باعتبارهم الجهة المستفيدة والمشاركة في عملية التزويد والأختيار .

٢ — توفير المعلومات الضرورية لتبني برنامج يفي بمتطلبات المستقبل ويمكن المكتبة من مجابهة الضغوط المتمثلة في انفجار وتشتت المعلومات وصعوبة المعاصرة وازدياد الطلب على المعلومات .

٣ — تزويد ادارة المكتبة بالمعلومات التفصيلية عن سمات المجموعة التي يضمها قسم الدوريات وفاعلية الخدمات التي يقدمها بما يمكنها من اتخاذ القرارات المناسبة لمعالجة نقاط الضعف والخلل التي تشخصها الدراسة في المجموعة والخدمات ووضع مايمكن وضعه من التوصيات والمقترحات حيز التنفيذ .

٤ — توفير المعلومات الأساسية التي يمكن ان تفيد المكتبيين المتخصصين والمهتمين ببناء المجموعات المكتبية ووضع سياسة الخدمات ، في تنفيذ دراسات مماثلة في مكتبات جامعية اخرى .

الدوريات في الميزان :

يحتل قسم الدوريات مكانته المتميزة المعروفة بين اقسام الخدمات في المكتبات الأكاديمية بصورة خاصة ،ليس بما يوفره من اوعية معلومات تفوق في طبيعتها وحداثتها وقيمتها العلمية اوعية المعلومات الاخرى بل بما يقدمه ايضاً من خدمات تمتد اصابعها خارج اسواره لتحيط الباحثين علماً بما ينشر في حقول اهتماماتهم من بحوث ومقالات في مختلف انحاء العالم .

ومن الأدلة البارزة على اهمية الدوريات وعلاقتها بالتقدم العلمي استخدام حجم النمو في اعدادها كواحد من المؤشرات لقياس نسب التطور العلمي خصوصاً وقد ثبت بالملاحظة ان حجم الدورياتفي العالم ينمو بعدد متساو من المرات في فترات زمنية متساوية مما يجعل هذا النمو مقياساً ثابتاً .وعليه فأننا نستطيع ان نتصور حجم النمو في نسب التطور العلمي خلال فترة زمنية معينة اذا علمنا ان نسبة النمو في عدد الدوريات تتكون من زيادة عشرة اضعاف العدد كل ٥٠ سنة (١). ان عدد الدوريات الذي كان يبلغ ١٠٠ الف دورية في عام ١٩٥٠ سيصل الى مليون دورية في نهاية القرن الحالي ، وهذا يعني ان التقدم العلمي سينمو بنفس النسبة .

ان العدد الهائل من الدوريات الذي يصدر في الوقت الحاضر والبالغ أكثر من ٣٠٠ الف دورية ينشر مايزيد على مليوني مقالة سنوياً موزعة بشكل غير متساو حيث يقدر ان ثلث ماينشر من هذه المقالات يقع في الدوريات المتخصصة وان الثلث الثاني يقع في دوريات أكثر اتساعاً اما الثلث الأخير فيقع في دوريات لايتوقعها الباحث وعليه فأن الباحث سيحصر نفسه في ثلث الدوريات اذا ركز في متابعته على الدوريات المتخصصة (٢) . وهنا تبرز اهمية استخدام ادوات التكشيف والأستخلاص وامكانية الأستفادة من الحاسبات الألكترونية التي تتميز بالسرعة الفائقة والقدرة على البحث في أكثر من اتجاه كما تبرز اهمية مايجب ان تقدمه اقسام الدوريات في المكتبات ومراكز المعلومات من هذه الخدمات بالأضافة الى الخدمات الأرشادية والأعلامية الأخرى ،

ان هذه الحقيقة تفرض على المكتبيين المتخصصين المهتمين بأقسام الدوريات تجنب دراسة وتقويم مجموعة اقسام الدوريات بمعزل عن الخدمات التي اشرنا اليها بل يجب ربط المسألتين ببعضهما ومعالجتهما في آن واحد . وهذا ماتتسم به دراستنا هذه .

قسم الدوريات في المكتبة المركزية لجامعة الموصل

تشكلت النواة الأولى لقسم الدوريات في المكتبة المركزية لجامعة الموصل مع بداية تأسيس المكتبة في عام ١٩٦٧ ثم أخذ القسم بالنمو واخذت اشتراكاته من الدوريات بالأتساع حتى بلغت اقصى حد لها في عام ١٩٨١ وهو ٣٨٠٠ دورية من بينها اعداد لاباس بها من الكشافات والمستخلصات ثم تعرضت الأشتراكات الى انخفاض حاد لم يسبق له مثيل خلال السنوات التي اعقبت عام ١٩٨١ حتى وصلت الى ٢٥٠ دورية فقط مما أدى الى ظهور مشاكل عديدة .

ان عدم وصول الدوريات في موعدها الملائم وانقطاع اعداد منها وضعف بنائها اضافة الى النقص الحاصل في الأعداد السابقة وفي اعداد الكشافات والمستخلصات يعتبر ظاهرة خطيرة في مجال متابعة البحث العلمي وتلبية احتياجات الدراسات العليا . كما ان استمرار هذه الظاهرة وعدم ايجاد حلول جذرية لها سيؤدي الى اتساع تأثيراتها السلبية اذ ان حجم الأعداد الناقصة من الدوريات سيزداد بمرور الزمن كما ان طلبها من

تواريخ لاحقة كأعداد سابقة يعني فقداناً لجوانب من اهميتها العلمية. اضافة الى انهـــا ستكلف اثماناً عالية. تفوق سعرها الأعتيادي الى حد كبير (٣).

ان ظهور هذه المشاكل وتناقمها دفع المكتبة المركزية الى استخدام بعض البدائل لتعويض هذا الضعف في مجموعة الدوريات فأعتمدت على مكتبة الأعارة البريطانية BIID ومؤسسة ISI في الحصول على مصورات للبحوث والمقالات المهمة كما عمدت الى توفير عدد من المستخلصات في بعض التخصصات العلمية ليتسنى للباحثين الأطلاع على خلاصات البحوث وطلبها على شكل مصورات في حالة الحاجة اليها.

وفي عام ١٩٨٦ اتخذت المكتبة المركزية خطوة ايجابية في محاولة تنفيذ مشـــروع الأقتناء التعاوني بالأشتراك مع المعهد الفني في الموصل والمعهد الفني في النمرود والمعهد الفني في كركوك حيث تم الأتفاق بين الجهات المشاركة في المشروع على ان تقوم كل جهة بأختيار بعض عناوين الدوريات الأساسية من التي لاتتوفر في مكتبـات الجهات الأخرى المشاركة. وقد تم فعلا اقتناء ٦٠٠ دورية بهذه الطريقة على ان تقـوم المكتبة المركزية لجامعة الموصل بالأحتفاظ بها وتصوير صفحة محتويات كل عدد وتعميمها على المستفيدين التابعين لبقية الجهات المشاركة الأخرى ثم يقوم هؤلاء المستفيدون بأختيار المقالات التي تهمهم وتقوم المكتبة المركزية لجامعة الموصل بأستنساخهـا وتزويدهم بها مجاناً . وقد اثبت المشروع في بدايته فائدة عظيمة في مجابهة النقص الواضح في عدد الدوريات الذي تعاني منه المكتبات المشاركة . الا ان المشروع لم يكتب له الأستمرار لأكثر من عام واحد فقضي عليه في مهده بسبب عدم ايفاء الجهات المشاركة بالتزاماتها المالية. ولم تتمكن هذه الدراسة من قياس موقف المستفيدين في جامعة الموصل تجاه اهمية هذا المشروع حيث اتضح ان اغلبهم لايملكون فكرة واضحة عنه .

لقد تعاقب على ادارة قسم الدوريات في المكتبة المركزية عدة مسؤولين كان اخرهم أخصائي معلومات يتمتع بخبرة عالية ويحمل شهادة الماجستير في علم المكتبـات وادارة المعلومات من الولايات المتحدة الا انه لم يتفرغ كلياً لادارة القسم بسبب انشغاله بالتدريس وتوليه مهام اخرى في المكتبة المركزية والمكتبات الفرعية. أما عدد العاملين

في القسم فقد تراوح في جميع الفترات بين ثلاثة او اربعة موظفين اغلبهم من حملة شهادة الأعدادية وهم غير ثابتين في عملهم ويستبدلون بموظفين جدد بين فترة واخرى .

لقد أدت كل هذه الأوضاع الى تعثر العمل في القسم وخاصة في مجال توفير المعلومات الكافية والأعلام عنها وفي خدمات التكشيف والأستخلاص وتنظيم الدوريات وعرضها على المستفيدين وبقية الأجراءات الفنية .

الدراسات السابقة Literature Review

تناولت العديد من الدراسات مسألة تقويم المجموعات المكتبية بفئتها المختلفة كالكتب والمراجع والدوريات. ومن استعراضنا لهذه الدراسات تبين ان الطريقتين الرئيسيتين المتبعتين في تقويم المجموعات المكتبية هما: الطريقة المعتمدة على قياس النوعية Qualitative method والطريقة المعتمدة على قياس الكمية Quantitative method وقد طبقت هاتان الطريقتان فعلا في تقويم مجموعات العديد من المكتبات في العالم. وفي تطبيق كلا الطريقتين لابد من استخدام بعض الأدلة القياسية Collection Standards المعدة خصيصاً لتقويم المجموعات المكتبية (٤) ، حيث يرى وليمز Williams (٥) ان حجم المجموعة الموجودة في اية مكتبة ذات حجم ونوع معيّنين يمكن مقارنته مع بعض المقاييس المتوفرة حالياً. ويقدم العدد الثاني من المجلد الحادي والعشرين من مجلة Library Trends استعراضاً وافياً لهذه المقاييس ومن بينها : –

Martin. Standards for Public Libraries
Polmer & McDonough. Standards for State Library
Watkins. Standards for University Libraries
Brown. College Library Standards.

ويبدو ان حجم المجموعة يعتبر مؤشراً مهماً على كفاءتها وقدرتها على تلبية احتياجات المستفيدين ويؤكد لانكستر Lancaster (٦) على هذه العلاقة الطردية ولكنه يشير الى ضرورة توفر صفة النمو المستمر في المجموعة ويشير ايضاً الى ان الحجم الكافي لموجودات المكتبة الجامعية بصورة عامة ونسبة النمو السنوي في هذه الموجودات

يعتبران من افضل المؤشرات على كفاءتها كما يذكر ايضاً بعض المعلومات التـي تبـرز الترابط الوثيق بين المستوى الأكاديمي للجامعة والحجم الكلي لموجودات مكتبتها من حيث عدد المجلدات ومعدل نموه.

ويعترض كلاب وجوردن (٧) على هذا المبدأ رغم شيوعه بين اوساط الباحثين فيذكر ان كفاءة المكتبة الجامعية لايمكن قياسها بحجم موجوداتها من المواد الثقافية وعليه فأنهما ينتقدان كفاءة المقاييس المطبقة حالياً والتي تحتم على المكتبة الجامعية الوصول الى حجـم معين من عدد المجلدات لذلك فقد قررا مقاييس خاصة بهما لتقويم مجموعة المكتبة الجامعية. ويرى هذان الباحثان ان عدد المجلدات التي تحتاجها المكتبة الجامعية يجب ان يعتمد على حجم، الطلبة الهيئة التدريسية، طبيعة المناهج الدراسية، عدد الأقسام العلمية في الجـامعـة، طرق التدريس المتبعة. التوزيع الجغرافي للاقسام العلمية داخل الجامعة ثم مستوى الدرجات العلمية (الشهادات) التي تمنحها الجامعة (٨).

اما الطريقة الثانية لتقويم المجموعة المكتبة فهي الطريقة المعتمدة على **قياس النـوعية** وقد لوحظ من مراجعة الدراسات المتعلقة بالموضوع ان افضل وسيلتين لتطبيق هــذه الطريقة هما: —

١ — جميع البيانات المتعلقة بأنطباع المستفيدين وارائهم ومواقفهم تجاه نوعية مجموعة المكتبة وخدمات اقسامها Impressionistic method وهذا يتطلب مسحاً شاملا للاراء، والمواقف او اختيار عينة واسعة من المستفيدين بحيث تمثل هذه العينة مجموعة المستفيدين احسن تمثيل (٩). ولكي تعطي هذه الطريقة نتائجها الدقيقة في المكتبات الجامعية لابـد ان يدرك الباحثون وخاصة اولئك المتخصصون في حقول معينة اهمية تعاونهم مع المكتبيين اوالباحثين الذين يقومون بالدراسة.

ومن الأمثلة الجيدة على تطبيق هذه الوسيلة ماقامت به مكتبة جامعة شيكاغو عن الأستعانة بأراء مائتين من اعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة لتقويم مجموعتها(١٠). ويشير وليمز (١١) Williams الى مزايا هذه الوسيلة بقولة: ان الباحث الذي يقوم بعملية المسح يستطيع ان يبني نتائجه على اراء متخصصين في حقول معينة ولهم اطلاع واسع على أدبيات تلك

الحقول خاصة اذا كان هؤلاء المتخصصين من المواظبين على استخدام كل من المكتبة المعنية بالدراسة والمكتبات الأخرى المماثلة لكي يتمكنوا من المقارنة.

ويبدو ان استخدام الأستبيان Questionnaire والمقابلة الشخصية Interview هما من أكثر الوسائل شيوعاً واستعمالا في عملية جمع البيانات المتعلقة بـأنطباع المستفيدين عن نوعية مجموعة المكتبة وخدمات اقسامها وقد استخدمت هاتان الوسيلتان في جمع البيانات اللازمة لتقويم مجموعات وخدمات المكتبات في الولايات المتحدة بكثرة. فعلى سبيل المثال تم في عام ١٩٦١ مسح اراء الهيئة التدريسية في جامعة مشيكن بواسطة استبيان وزع عليهم واعطى كل منهم انطباعه عن مجموعة مكتبة الجامعة في حقل تخصصه وفي الحقول الأخرى القريبة من حقل تخصصه ثم انطباعه عن نوعية المجموعة بصورة عامة (١٢).

٢ - مقارنة مجموعة المكتبة بقوائم ببليوغرافية وكشافات قياسية Chicklists لقياس مدى مطابقة مجموعة المكتبة لما تحويه هذه القوائم والكشافات من عناوين.ويشير بون (١٣) Bonn الى مزايا هذه الطريقة بقوله ان العديد من القوائم والكشافات القياسية التي تغطي حقول موضوعية واسعة والتي يمكن مقارنة مجموعات المكتبات الكبيرة معها متوفر وهي قوائم متكاملة الى حد كبير ويمكن الوثوق بها الى درجة كبيرة، كما يوجد العديد منها بشكل مطبوع وخاصة في حقلي «العلوم والتكنولوجية كما يجري تحديثها بشكل منتظم.ان معظم هذه القوائم يتم تجميعها من قبل متخصصين في حقل المكتبات بالأشتراك مع متخصصين في مختلف حقول المعرفة.

ان طريقة التقويم النوعي المعتمدة على مقارنة مجموعة المكتبة بمثل هذه القوائم سوف تظهر اي ضعف في المجموعة بما في ذلك الضعف الموجود في تغطية فترة زمنية معينة او حقل معين من حقول او شكل معين من اشكال المواد المكتبية (١٤). وقد استخدمت مكتبة جامعة شيكاغو مايزيد على ٤٠٠ قائمة قياسية في تقويم مجموعتها (١٥) .

والخلاصة التي يمكن استنتاجها من هذا الأستعراض هي ان الطريقة المعتمدة على قياس النوعية في تقويم مجموعة المكتبة هي الطريقة الأكثر فاعلية وملائمة في تقويم مجموعة الدوريات في مكتبات الدول النامية بصورة خاصة لأن الطريقة المعتمدة على

قياس الكمية صعبة التطبيق في مكتبات هذه الدول التي لاتستطيع تبني المقاييس التي تستوجب الوصول بمجموعتها الى حجم معين من المواد الثقافية والسبب في ذلك يرجع الى تعثر القدرات المالية لأغلبية هذه المكتبات ،اضافة الى ان المقاييس المطبقة في التقويم الكمي لمجموعة احدى المكتبات لاتكون بالضرورة ملائمة للتطبيق في مكتبات اخرى . ويزداد الأمر صعوبة اذا علمنا ان اغلب هذه المقاييس قد طورت خصيصاً لتلائم نوع معين من مكتبات دولة معينة.

وترفض الكثير من الدراسات فكرة تقويم المجموعة المكتبية بطريقة الأعتماد على قياس الكمية رفضاً كاملا مؤكدة ان عدد العناوين الفريدة Unique titles في المجموعة المكتبية وليس العدد الكلي للمجموعة هو افضل مؤشر على غنى المجموعة ويقدم لنا لانكستر (١٦) Lancaster مثلاعن احدى المكتبات التي يبلغ تعداد مجموعتها الكلي ١,٧٠٠,٠٠٠ مجلداً الا ان عدد العناوين الفريدة فيها لايتجاوز ١٤٠,٠٠٠ مجلداً.

نتائج الدراسة

لقد اسفرت الدراسة عن نتائج تؤكد صحة الفرضيات التي تبناها الباحث في البداية لمعالجة مشكلة البحث التي تنص على ان مجموعة وخدمات قسم الدوريات في المكتبة المركزية لجامعة الموصل لاتفي بمتطلبات الدراسات والبحوث التي يقوم بها التدريسيون وطلبة الدراسات العليا في الجامعة. وقد بنيت هذه الأستنتاجات على الأدلة التالية: —

أولا : تحليل الأستبيان

لقد اسفرت عملية تحليل الأستبيان عن نوعين من النتائج هما :—

١ — نتائج اولية تتعلق بطبيعة ومستوى العينة الواسعة من المستفيدين التي شملتها الدراسة حيث تشير هذه النتائج الى رصانة هذه العينة واهمية مساهمتها في عملية التقويم .

لقد تم توزيع ٣٩٠ نسخة من الأستبيان على التدريسيين وطلبة الدراسات العليا في مختلف الأقسام العلمية داخل المركز الجامعي . وقد تفضل ١٩٣ مستفيداً بالأجابة على الاسئلة الموجهة وتسليمها في الوقت المناسب، بينما اعتذرعن الأجابة ٤٥ مستفيداً ذاكرين انهم لم يسبق لهم استخدام قسم الدوريات في المكتبة المركزية . وقد تراوحت مؤهلات

المستفيدين الذين اجابوا على اسئلة الأستبيان بين الدكتوراه والماجستير وطلبة الدراسات العليا . وتشير النتائج الى ان ٥١ من هؤلاء يحملون شهادة الدكتوراه، بينما يحمل ٢٨،٥/ منهم شهادة الماجستير ، وتمثل النسبة المتبقية (٢٠،٥ /) طلبة الدراسات العليا .

ان ارتفاع نسبة حملة الدكتوراه بين افراد العينة المشمولة بالدراسة هو احد المؤشرات على اهمية قسم الدوريات في المكتبة المركزية في انجاز الدراسات والبحوث المتقدمة رغم المشاكل التي يعاني منها القسم والتي اشرنا اليها سابقاً .

كما كشفت النتائج ايضاً عن ان ٥٨،٥ / من افراد العينة قد حصلوا على شهاداتهم من جامعات غير عراقية في حين حصل ٣٦،٣/ منهم على شهاداتهم من جامعات عراقية ولم يذكر ٥،٢/ منهم مصدر حصوله على الشهادة. ان ارتفاع نسبة المستفيدين من افراد العينة الذين حصلوا على شهاداتهم من خارج القطر الى الحد الذي ذكرناه من شأنه ان يعكس دقة النتائج التي تم الحصول عليها من تحليل الأستبيان لأن المستفيدين الذين درسوا خارج القطر وخاصة اولئك الذين تخرجوا من جامعات اوربية وامريكية لابد ان يكونوا قد اطلعوا على مكتبات متطورة وهم من خلال اجابتهم على اسئلة الأستبيان سيحاولون مقارنـــة مجموعة وخدمات اقسام الدوريات في المكتبات التي استخدموها اثناء دراستهم مــع مجموعة وخدمات قسم الدوريات في المكتبة المركزية لجامعة الموصل الذي يستخدمونه في الوقت الحاضر ، لذا فأن عملية المقارنة هذه ستكون مقياساً جيداً في عملية التقويم .

٢ ـ نتائج عامة من شأنها اثبات صحة فرضيات البحث وتشخيص نقاط الضعف في مجموعة وخدمات قسم الدوريات وقد تم التوصل الى هذه النتائج من خلال مواقف افراد العينة التالية تجاه مجموعة وخدمات القسم :ـ

أ ـ الموقف تجاه نوعية المجموعة

ان تحليل الأجوبة التي تدور حول هذه المسألة تشير الى ان ٥١،١/ من مجموع افراد العينة يرون ان مجموعة الدوريات التي يضمها القسم بصورة عامة هي دون المستوى الأدنى المطلوب (جدول رقم١) كما يشير الجدول (رقم٢) الى ان النسبة المئوية من الذين يرون ان المجموعة فقيرة في حقل تخصصهم ترتفع الى اكثر من ٥٠/ بين منتسبي اغلب الأقسام

العلمية المشمولين بالعينة وتصل هذه النسبة بين منتسبي اربعة اقسام الى ١٠٠/ وبالمقارنة تنخفض نسبة من يرى ان المجموعة ممتازة بين منتسبي اغلب هذه الأقسام الى الصفر .ويشير التحليل ايضاً الى ان ٦٥,٨/ من مجموع افراد العينة بصورة عامة غالباً ماتصادفهم حالات عدم عثورهم على عناوين معينة في المجموعة وانهم ينظرون الى هذه الحالة على انها مشكلة خطيرة غالباً ماتصادفهم وتؤثر على نشاطاتهم البحثية (جدول رقم٣). ويبين الجدول (رقم٤) النسبة المئوية لموقف المستفيدين المشمولين بالعينة في كل قسم تجاه مشكلة عدم عثورهم على عناوين معينة في المجموعة في حقل تخصصهم .ويلاحظ ان النسبة المئوية لمن يعانون من هذه المشكلة ويعتبرونها مشكلة خطيرة تؤثر على نشاطاتهم البحثية ترتفع بين منتسبي اغلب الأقسام الى اكثر من ٦٠/. وبالمقارنة تنخفض نسبة من ينظرون الى هذه المشكلة على انها مشكلة بسيطة وليس لها تأثير على نشاطاتهم البحثية بين منتسبي اغلب الأقسام الى الصفر. وعليه فأننا نرى من الجدول (رقم٥) ان نسبة كبيرة من المستفيدين المشمولين بالعينة في اغلب الأقسام العلمية يرون ان المكتبة يجب ان تشترك بمزيد من عناوين الدوريات حيث تصل هذه النسبة بين منتسبي بعض الأقسام الى ١٠٠ / .

جدول رقم (١) . موقف العينة العام تجاه نوعية مجموعة الدوريات

درجة التقويم	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
ممتازة	٧	٣,٦
جيدة	٥٢	٣٦,٩
كفوءة	٢٢	١١,٣
غير كفوءة	٢٤	٢٨
غير كفوءة بدرجة كبيرة	٥٨	٣١,١

جدول رقم (٢) . النسبة المئوية لموقف المستفيدين والمشمولين بالعينة في كل قسم تجاه نوعية المجموعة (الارقام تمثل النسبة المئوية) .

القسم العلمي	ممتازة	جيدة	مقبولة	فقيرة
الهندسة الكهربائية	—	١٦,٧	٥٠	٣٣,٣
الهندسة المدنية	—	—	—	١٠٠
الهندسة الميكانيكية	—	١٥,٤	٢٣,١	٦١,٥
هندسة الري	١٤,٣	—	١٤,٥	٧١,٥
الرياضيات	—	٤٣,٨	٢٥	٣١,٣
الكيمياء	٥,٣	٤٢,١	٤٧,٤	٥,٣
علوم الحياة	—	١٤,٣	٢٨,٦	٥٧,٥
الفيزياء	١٤,٣	٣٥,٧	٢١,٤	٢٨,٦
الجيولوجي	—	٢٥	٨,٣	٥٠
اللغة الأنكليزية	—	٤٤,٤	٢٧,٨	٢٧,٨
اللغة الفرنسية	—	—	—	١٠٠
اللغة العربية	—	٤٤,٤	٥٠	٥,٦
التاريخ	—	١٨,٢	٣٦,٤	٤٥,٥
الجغرافية	—	—	٤٠	٦٠
علم النفس	—	—	—	١٠٠
التربية الرياضية	—	—	—	١٠٠

جدول رقم (٣) موقف العينة العام تجاه مشكلة عدم توفر عناوين معينة في المجموعة

درجة التقويم	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
مشكلة خطيرة غالباً ماتحدث	١٢٧	٦٥,٨
مشكلة اعتيادية تحدث احياناً	٦٠	٣١
مشكلة بسيطة نادراً ماتحدث	٦	٣,١

جدول رقم (٤) النسب المئوية لموقف المستفيدين المشمولين بالعينة في كل قسم تجاه مشكلة عدم العثور على عناوين معينة في المجموعة

(الارقام تمثل النسبة المئوية)

القسم العلمي	مشكلة خطيرة	مشكلة اعتيادية	مشكلة بسيطة	ممتنعون عن الأجابة
الهندسة الكهربائية	١٢,٥	٧٥	—	١٢,٥
الهندسة المدنية	—	١٠٠	—	—
الهندسة الميكانيكية	١٠٠	—	—	—
هندسة الري	—	١٠٠	—	—
الرياضيات	٦٠	٣٠	—	١٠
الكيمياء	٦٨,٤	١٥,٨	١٦,٧	١٥,٨
علوم الحياة	٤١,٧	٢٥	١٦,٧	١٥,٦
الفيزياء	٨٦,٧	٦,٧	—	٦,٧
الجيولوجي	٥٠	٣٠	١٠	٢٠
اللغة الأنكليزية	٦٩,٢	٣٠,٨	—	—
اللغة الفرنسية	١٠٠	—	—	—
اللغة العربية	٨٢,٤	١٧,٦	—	
التأريخ	١٠٠	—	—	—
الجغرافية	٢٥	٥٠	—	٢٥
علم النفس	٧٥	١٢,٥	—	١٢,٥
التربية الرياضية	٨٣,٣	—	—	١٦,٧

جدول رقم (٥) النسبة المئوية للمستفيدين المشمولين بالعينة في كل قسم الذين يقترحون زيادة عدد اشتراكات المكتبة من الدوريات

القسم العلمي	النسبة المئوية	القسم العلمي	النسبة المئوية
الهندسة الكهربائية	٢٥,٥	الجيولوجي	٤٠
الهندسة المدنية	١٠٠	اللغة العربية	—
الهندسة الميكانيكية	٥٠	اللغة الفرنسية	١٠٠
هندسة الري	٥٠	اللغة العربية	٧٦,٥
الرياضيات	١٥,٨	التأريخ	٥٠
الكيمياء	٣٠,٤	الجغرافية	٥٠
علوم الحياة	٣٣,٣	علم النفس	٨٧,٥
الفيزياء	١٣.٣	التربية الرياضية	١٠٠

ب— الموقف تجاه الأعداد الناقصة والأعداد السابقة

ذكرنا في حديثنا عن قسم الدوريات في المكتبة المركزية ان عدد اشتراكات القسم من الدوريات بلغ ذروته في عام ١٩٨١ وهو ٣٨٠٠ دورية ثم انخفض هذا العدد انخفاضاً حاداً في السنوات اللاحقة حتى بلغ ٢٥٠ دورية فقط. وقد اخذت المكتبة المركزية في الأونة الأخيرة على عاتقها محاولة تجديد الأشتراك بقسم من الدوريات السابقة وخاصة تلك الدوريات التي تغطي التخصصات الأساسية ولها علاقة مباشرة باهتمامات قسم بكامله وكان ذلك بناء على توجيه من السيد رئيس الجامعة الذي امر بأتخاذ الأجراءات الضرورية التي من شأنها تحسين الوضع العام. غير ان المكتبة المركزية لم تحاول استكمال الأعداد الناقصة للفترة المحصورة بين توقف الأشتراك وتجديده ، فبقيت هناك ثغرات Missing issues في اعداد الدوريات التي تم تجديد الأشتراك بها بالأضافة الى وجود ثغرات في اعداد دوريات

اخرى حدثت في فترات مختلفة واستمرار مشكلة الأعداد السابقة Back issues التي تــلازم المكتبة منذ بداية تأسيسها .

ان مشكلة الأعداد الناقصة والأعداد السابقة من الدوريات لابد ان تشكل عقبة امــام الباحثين وتؤثر بشكل او بآخر على مسيرة بحوثهم ونشاطاتهم الأكاديمية الأخرى. وفي محاولتنا لقياس مدى خطورة هذه المشكلة ومدى تكرار اعتراضها لسبيل الباحثين تبيــن ان ٧١٪ من مجموع افراد العينة بصورة عامة يعتبرونها مشكلة خطيرة غالباً ماتعترض مسيرة بحوثهم بينما يعتبرها ٢٢,٢٪ مشكلة اعتيادية تعترض سبيل بحوثهم في بعض الأحيان في حين يعتبرها ٦,٧٪ مشكلة بسيطة نادرة التأثير (جدول رقم ٦).

ويبين الجدول رقم (٧) النسبة المئوية لموقف المستفيدين المشمولين بالعينة في كل قسم ازاء هذه المشكلة .حيث يلاحظ ان النسبة المئوية لمن يعانون من هذه المشكلة ويعتبرونهـا مشكلة خطيرة غالباً ماتؤثر على مسيرة بحوثهم تتراوح بين ٦١,٥–١٠٠٪ بين منتسبي ١٣ قسماً من مجموع ١٦ قسماً وبالمقابل تنخفض نسبة من ينظرون الى هذه المشكلة على انهـا مشكلة بسيطة لاتشكل عقبة امام بحوثهم في اغلبية الأقسام الى الصفر .

يتضح مما سبق صحة ماذهبنا اليه من ان الأعداد الناقصة والأعداد السابقة من الدوريات تعتبر مشكلة مركزية خطيرة ذات تأثير مباشر على البحث العلمي . وقد سبق ان ذكرنـا ان المكتبة المركزية قد لجأت الى استخدام بعض البدائل لمعالجة هذه المشكلة واحتـواء خطورة تأثيرها وقد تركزت هذه البدائل في الأعتماد على مكتبة الأعارة البريطانية BLLD والمؤسسات المماثلة في الحصول على مصورات للبحوث والمقالات المهمة وفـي توفير عدد من المستخلصات في بعض التخصصات العلمية. غير ان استخدام هذه البدائل لوحدها لايعتبر حلا جذرياً للمشكلة. لذلك لابد ان تتوفر للمكتبة امكانيات لاقامة علاقات تنسيق وتعاون على مستوى المكتبات الجامعية في القطر سواء فـي تبادل الدوريات والمصورات او التنسيق بأتجاه يجعل مجاميع الدوريات والكشافات والمستخلصات في عمـوم هــذه المكتبات متكاملا علماً بأن مثل هذا التنسيق كان محور تـوصيات عديدة للمـؤتمـرات المكتبية العـديدة التي عقـدتهـا جمعيـة اتحـاد المكتبيين العـراقييـن

منذ سنة ١٩٧٤(١٧) . ولابد للمكتبة المركزية من اتخاذ الأجراءات الكفيلة بأحياء مشروع الأقتناء التعاوني للدوريات الذي بدأ في عام ١٩٨٦ وانتهى في نفس العام قبل ان يعطي ثماره وان كان من الأفضل التفكير بمباشرة مشاريع مماثلة على نطاق اوسع واعم .

لقد حاولت الدراسة معرفة موقف المستفيدين تجاه ضرورة اتخاذ المكتبة خطوة جدية لعالجة مشكلة الأعداد الناقصة والأعداد السابقة عن طريق أكمال هذه الأعداد كحل مبدئي فأتضح من الأستبيان ان نسبة المستفيدين المشمولين بالعينة المتحمسين لأتخاذ هذه الخطوة ترتفع بين منتسبي اغلبية الأقسام لتتراوح بين ٥٠ - ١٠٠٪ (جدول رقم ٨) ولكن لابد من التنويه الى ان طلب الأعداد الناقصة والسابقة من الدوريات سيكلف اثماناً عالية تفوق سعرها الأعتيادي. وقد دفع ذلك المكتبة المركزية فعلا الى طلب الأعداد الناقصة لبعض الدوريات على شكل مصغرات فلمية Microfilm .

جدول رقم (٦) موقف العينة العام تجاه مشكلة الاعداد الناقصة والاعداد السابقة من الدوريات

درجة التقويم	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
مشكلة خطيرة شديدة التأثير	١٣٧	٧١
مشكلة معتدلة تؤثر احياناً	٤٣	٢٢,٢
مشكلة بسيطة قليلة التأثير	١٣	٦,٧

جدول رقم (٧) النسبة المئوية لموقف العينة في كل قسم تجاه مشكلة الاعداد الناقصة والاعداد السابقة من الدوريات (الارقام تمثل النسبة المئوية)

القسم العلمي	مشكلة خطيرة	مشكلة اعتيادية	مشكلة اعتيادية	ممتنعون عن الاجابة
الهندسة الكهربائية	٦٢,٥	٢٥	—	١٢,٥
الهندسة المدنية	—	١٠٠	—	—
الهندسة الميكانيكية	٨٣,٣	١٦,٧	—	—
هندسة الري	١٠٠	—	—	—
الرياضيات	٧٠	١٠	٢٠	—
الكيمياء	٨٤,٢	١٥,٨	—	—
علوم الحياة	٣٣,٣	٣٣,٣	٨,٤	٢٥
الفيزياء	٩٣,٣	٦,٧	—	—
الجيولوجي	٤٠	٢٠	١٠	٣٠
اللغة الأنكليزية	٦١,٥	٣٨,٥	—	—
اللغة الفرنسية	١٠٠	—	—	—
اللغة العربية	٧٦,٥	٢٣,٥	—	—
التأريخ	٨٣,٣	١٦,٧	—	—
الجغرافية	٧٥	—	—	٢٣
علم النفس	٧٥	١٢	—	١٢,٥
التربية الرياضية	٨٣,٣	١٦,٧	—	—

جدول رقم (٨) النسبة المئوية لموقف العينة في كل قسم تجاه مقترح اكمال الاعداد الناقصة والاعداد السابقة من الدوريات

القسم العلمي	النسبة المئوية	القسم العلمي	النسبة المئوية
الهندسة الكهربائية	٢٥	الجيولوجي	٩٠
الهندسة المدنية	١٠٠	اللغة الأنكليزية	٤٦،٢
الهندسة الميكانيكية	٨٣.٣	اللغة الفرنسية	٥٠
هندسة الري	٥٠	اللغة العربية	٧٦،٥
الرياضيات	٤٠	التأريخ	٨٣،٣
الكيمياء	١٥.٨	الجغرافية	٧٥
علوم الحياة	٣٣،٣	علم النفس	٨٧,٥
الفيزياء	٦٠	التربية الرياضية	١٦,٧

د – الموقف تجاه مجموعة الكشافات والمستخلصات

من المعروف ان الكشافات والمستخلصات هي أدوات مرجعية او ادلة منهجية منظمة الغرض منها تسهيل مهمة الوصول الى المعلومات والبيانات المنشورة في الدوريات واوعية المعلومات الأخرى التي تم تكشيفها. وهي شبيهة بالفهارس من حيث احتوائها على رؤوس موضوعات او قائمة مؤلفين او قائمة عناوين اضافة الى البيانات البيبلوغرافية الأخرى. وعلى هذا الأساس تعتبر الكشافات والمستخلصات من الوسائل الفعالة والضرورية في اختصار الوقت وتقليل الجهد المبذول في البحث عما نشر في المجلات والصحف والمواد الثقافية والأعلامية الأخرى. لذلك فهي مهمة جداً للقراء والباحثين وكذلك للعاملين في المكتبات ومراكز المعلومات حيث تستخدم اغلبها في قسم الدوريات لدعم وتعزيز الخدمات التي يقدمها هذا القسم في الكشف عن البحوث والمقالات المنشورة في الدوريات الصادرة في مختلف انحاء العالم والتي لايتوفر الكثير منها في اية مكتبة بصورة عامة .

ولقد كشفت الدراسة عن نتائج تؤكد الكثير من المستفيدين من المكتبة المركزية لجامعة الموصل لايدركون القيمة العظيمة لما يمكن ان تقدمه هذه الأدوات من تسهيلات واحاطة شاملة للمعلومات واختصار للجهد والوقت. وقد بني هذا الأستنتاج على اساس انخفاض نسبة المستفيدين من مجموع افراد العينة الذين يفضلون استخدام هذه الأدوات في الوصول الى المعلومات على استخدام الوسائل الأخرى الى ٣٣٫٧٪ (جدول رقم ٩). وبالأضافة الى ان السبب في انخفاض هذه النسبة يمكن ان يعزى الى عدم معرفة المستفيدين بصورة عامة لاهمية هذه الأدوات هناك اسباب اخرى معروفة لدى المكتبين منها عدم معرفة المستفيدين الطرق المتنوعة لاستخدام هذه الأدوات، كما ان الكثير

جدول رقم(٩)النسب المئوية للطرق التي يسلكها افراد العينة في الوصول الى المعلومات

طريقة الوصول الى المعلومات	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
استخدام الكشافات	٦٥	٣٣ , ٧
استخدام الفهرس المرئي	٤٤	٢٢ , ٨
من الزملاء	٣٠	١٥ , ٥
الأطلاع مباشرة على صفحات محتويات الدوريات	٩٥	٤٩ , ٢
الأعلانات البيليوغرافية	٢٨	١٤ , ٣
قوائم المصادر في المقالات	٧٩	٤٠ , ٩

منهم يعتقدون خطأ بعدم جدوى استخدامها طالما ان نسبة كبيرة من الدوريات واوعية المعلومات الأخرى التي تغطيها لاتتوفر في المكتبة. وللامانة نذكر ان المكتبة المركزية قد اخذت على عاتقها في الأونة الأخيرة مهمة ارشاد المستفيدين الى اهمية هذه الأدوات وطرق استخدامها من خلال برنامج خدمات المعلومات ونأمل ان تعطي هذه المبادرة ثمارها في القريب العاجل .

ويبدو ان لأنخفاض نسبة المستفيدين الذين يلجأون الى استخدام الكشافات والمستخلصات في الوصول الى المعلومات علاقة بعدم كفاءة هذه الأدوات في طبيعتها حيث يشير الجدول (رقم ١٠) الى ان ١,٧٦٪ من مجموع افراد العينة بصورة عامة يعانون من عدم كفاءة هذه الأدوات وانهم ينظرون الى هذه المشكلة على انها مشكلة خطيرة غالبا ماتؤثر على مسيرة بحوثهم . ويبين الجدول رقم(١١)النسبة المئوية لموقف المستفيدين المشمولين بالعينة في كل قسم من هذه المشكلة كل في مجال اختصاصه حيث يلاحظ ان النسبة المئوية لمن يعانون من هذه المشكلة ويعتبرونها مشكلة خطيرة غالبا ماتؤثر على مسيرة بحوثهم تتراوح بين ٦٠ — ١٠٠٪ بين منتسبي اغلبية الأقسام العلمية وبالمقابل تنخفض نسبة من ينظرون الى هذه المشكلة على انها مشكلةبسيطة نادرا ماتؤثر على مسيرة بحوثهم في اغلبية الأقسام العلمية الى الصفر.

جدول رقم (١٠) موقف العينة العام تجاه مشكلة عدم كفاءة ادوات التكشيف والاستخلاص

درجة التقـويـم	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
مشكلة خطيرة شديدة التأثير	١٤٧	٧٦ , ١
مشكلة معتدل تؤثر احيانا	٣٩	٢٠ , ٢
مشكلة بسيطة قليلة التأثير	٧	٣ , ٦

جدول رقم (١١) النسبة المئوية لموقف العينة في كل قسم من مشكلة عدم كفاءة ادوات التكثيف والاستخلاص (الارقام تمثل النسب المئوية)

القسم العلمي	مشكلة خطيرة	مشكلة اعتيادية	مشكلة بسطية	ممتنعون عن الأجابة
الهندسة الكهربائية	٨٧,٥	—	—	١٢,٥
الهندسة المدنية	—	—	—	١٠٠
الهندسة الميكانيكية	١٠٠	—	—	—
هندسة الري	١٠٠	—	—	—
الرياضيات	٧٠	٢٠	—	١٠
الكيمياء	٨٤,٢	١٥,٨	—	—
علوم الحياة	٢٥	١٦,٦	١٦,٦	٤١,٧
الفيزياء	٩٣,٣	٦,٧	—	—
الجيولوجي	٤٠	١٠	١٠	٤٠
اللغة الأنكليزية	٦١	٣٠,٨	—	٧,٧
اللغة الفرنسية	١٠٠	—	—	—
اللغة العربية	٩٤,١	٤,٩	—	—
التاريخ	٩٣,٣	١٦,٧	—	—
الجغرافية	٧٥	—	—	٢٥
علم النفس	٧٥	١٢,٥	—	١٢,٥
التربية الرياضية	٨٣,٣	—	—	١٦,٧

جـ- الموقف تجاه عموم الخدمات التي يقدمها القسم :

استحدثت المكتبة المركزية لجامعة الموصل في السنوات الماضية مجموعة خدمات مكتبية مختلفة كان من بينها خدمات معلومات جديدة ، وكان لقسم الدوريات نصيب مهم من هذه الخدمات ، فتركزت في هذا القسم خدمات الأعلام المكتبي المتعلقة بالدوريات حيث اخذ القسم على عاتقه تصوير محتويات الدوريات الجديدة وتقسيمها بشكل ملفات في اختصاصات مختلفة ثم توزيعها على الأقسام العلمية حسب الأختصاصات . هذا بالاضافة الى خدمات ارشاد المستفيدين الى كيفية استخدام الكشافات والمستخلصات في الوصول الى المعلومات واستخدام الدوريات الموجودة في القسم بالاضافة الى استخدام مكتبة الأعارة البريطانية BLLD ومؤسسة ISI في الحصول على مصورات للبحوث والمقالات المهمة الموجودة في الدوريات التي لاتتوفر في المكتبة. هذا الى جانب الخدمات التقليدية الأخرى التي يقدمها القسم منذ نشأته . مثل خدمات الأعارة وتنظيم الدوريات وعرضها واعداد بطاقات الفهرس المرئي للدوريات . الخ .

لقد تضمن الأستبيان سؤالا عن الموقف العام لافراد العينة تجاه عموم خدمات المعلومات المتعلقة بالدوريات والمقدمة من قبل القسم ومدى كفاءتها . ومن تحليل الأجابة على هـذا السؤال تبين ان ٢٧.٩٪ من افراد العينة بصورة عامة لايشعرون بوجود هذه الخدمات نهائيا في حين اجاب ٣٧.٨٪ منهم ان هذه الخدمات موجودة ولكنها فقيرة ولاتفي بالغرض ويرى ١٧.٦٪ منهم ان هذه الخدمات غير كافية بصورة عامة وذكر ٦١,١٪ منهم انها كافية بصورة عامة ؛ وبالمقارنة تنخفض نسبة من يعتقدون ان هذه الخدمات كافية بشكل كبير الى ٥,٠٪ فقط (جدول رقم ١٢) .

وعند محاولتنا قياس مدى تأثير غياب اوعدم كفاءة هذه الخدمات على نشاطات المستفيدين في مجال انجاز بحوثهم تبين ان عدم كفاءة هذه الخدمات تؤدي الى تأخير انجاز بحوث ٩١.١٪ من افراد العينة (جدول رقم ١٣) .

ويبين الجدول (رقم ١٤) النسبة المئوية لموقف المستفيدين المشمولين بالعينة في كل قسم تجاه خدمات القسم التي اشرنا اليها حيث يلاحظ ان نسبة من لايشعرون نهائيا بوجود هـــذه الخدمات ترتفع بين منتسبي ٦ اقسام علمية الى اكثر من ٥٠٪ كما ان نسبة من يعتقد ان هذه الخدمات فقيرة ترتفع بين منتسبي ٨ اقسام الى اكثر من ٥٠٪ وبالمقابل تنخفض نسبة من يرى ان هذه الخدمات كافية بشكل كبير الى الصفر بين منتسبي كافة الأقسام(باستثناء قسم واحد) .

جدول رقم (١٢) موقف العينة العام تجاه عموم خدمات المعلومات التي يقدمها قسم الدوريات

درجة التقويم	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
خدمات كافية جداً	٣١	٠,٥
خدمات كافية بصورة عامة	٣١	١٦,١
خدمات غير كافية بصورة عامة	٣٤	١٦,٦
خدمات فقيرة	٧٣	٣٧,٨
خدمات غير موجودة نهائياً	٥٤	٣٧,٩

جدول رقم (١٣) مدى تأثير كفاءة الخدمات على انجاز بحوث افراد العينة بصورة عامة

درجة التأثير	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
تؤخر انجاز البحوث بدرجة كبيرة	١٧٦	٩١,١
تؤخر انجاز البحوث في بعض الأحيان	١٣	٧,٢
لاتؤخر انجاز بحوث	٤	٢

جدول رقم (١٤)النسبة المئوية لموقف العينة في كل قسم تجاه عموم خدمات المعلومات التي يقدمها قسم الدوريات

القسم العلمي	كافية جداً	كافية بصورة عامة	غير كافية بصورة عامة	فقيرة	غير موجودة نهائيا
الهندسة الكهربائية	—	١٢,٥	—	٨٧,٥	—
الهندسة المدنية	—	—	—	—	١٠٠
الهندسة الميكانيكية	—	—	٣٣,٣	٥٠	١٦,٧
هندسة الري	—	٥٠	—	—	٥٠
الرياضيات	—	١٠	١٠	٥٠	٣٠
الكيمياء	—	٢٦,٣	—	٦٣,٢	١٠,٥
علوم الحياة	٨,٣	٨,٣	٣٣,٣	٣٣,٣	١٦,٧
الفيزياء	—	٦,٧	٢٠	٢٠	٣٣,٣
الجيولوجي	—	—	٣٠	٣٠	٣٠
اللغة الأنكليزية	—	٥٠	٢٣,١	٢٣,١	٢٣,١
اللغة الفرنسية	—	—	—	—	٥٠
اللغة العربية	—	١١,٨	٢٣,٨	٢٣,٨	٤١,٢
التاريخ	—	٣٣,٣	١٦,٧	١٦,٧	—
الجغرافية	—	—	٢٥	٢٥	٥٠
علم النفس	—	—	—	—	٥٠
التربية الرياضية	—	—	١٦,٧	١٦,٧	٥٠

وتشير هذه التحليلات والأرقام الى ضعف عام في خدمات المعلومات المتعلقة بالدوريات والمقدمة من قبل القسم . وهي مؤشر الى ان القسم لم يسر باتجاه الأهداف المرسومة لــه في تقديم خدماته.فالاهداف المرسومة للقسم في هذا المجال تقع ضمن الخطة العامة التي

تبنتها المكتبة المركزية منذ عام ١٩٨٢ لتقديم خدمات المعلومات والتي شملت من جملة ماشملته بعض الخدمات المتعلقة بقسم الدوريات مثل البرامج السمعية والبصرية لارشاد المستفيدين الى كيفية استخدام البحث المباشر Online للملفات مراكز المعلومات العالمية ، وبرامج اخرى لارشاد المستفيدين الى كيفية استخدام الكشافات والمستخلصات في معظم حقول المعرفة .بالاضافة الى اخراج خدمات اعلامية Current Contents عن طريق تصوير صفحات المحتويات من دوريات معينة وتدويرها على المستفيدين . واشتملت الخطة ايضاً على برنامج للتوسط والأرشاد في مجال الحصول على المعلومات الممكنة في القطر (١٨) الى غير ذلك من البرامج التي نأمل ان تنفذ باسلوب افضل وتوجه بدقة لتحقيق الأهداف المرسومة لها ، علماً بان قسماً من هذه البرامج لم تنفذ لحد الآن الأمر الذي لم يمكننا من قياس موقف المستفيدين منها .

لقد تضمن الاستبيان مجموعة اسئلة عامة عن موقف العينة العام تجاه خدمات معينة يقدمها القسم والتي تبدو انها تمثل صورة اخرى غير الصورة التي اشرنا اليها قبل قليل في خطة المكتبة المركزية ومنها الخدمات المتعلقة بتوفير المقالات والبحوث عن طريق مكتبة الاعارة البريطانية ومؤسسة ISI وخدمات الاعلام عن محتويات الدوريات الجديدة . بالاضافة إلى الخدمات الفنية الاخرى المتعلقة بتنظيم الدوريات وعرضها واعداد الفهرس المرئي الذي يمثل الواقع الفعلي لمقتنيات المكتبة من الدوريات وقد تبين من تحليل الاجابات على هذه الاسئلة ما يأتي :—

من وجهة نظر المستفيدين يبدو ان الخدمات التي يقدمها القسم في الحصول على مصورات البحوث والمقالات من مكتبة الاعارة البريطانية ومؤسسة ISI قد اعطت ثمارها فنالت رضى نسبة عالية من العينة حيث يشير التحليل ان ٦٣٫٧٪ من مجموع العينة بصورة عامة يرون ان هذه الخدمات كافية،وان ٢١٫٨٪ منهم يرون انها خدمات ممتازة في حين انفرد ١٤٫٥٪ منهم بالقول ان هذه الخدمات ضعيفة .

ان هذه النتائج تشير فقط إلى رضى المستفيدين بصورة عامة عن هذه الخدمات الا ان ذلك لاينبغي ان يتخذ كمقياس لكفاءة القسم في توفير العدد الكافي من البحوث والمقالات ،

وعلى المستفيدين ان يدركوا ان هذه الخدمات ما هي الا جزء من خدمات اشمل واعم يجب تحقيقها عن طريق قيام المكتبة المركزية باقامة علاقات تنسيق مع المكتبات الجامعية ومراكز المعلومات الاخرى في القطر وبشكل يجعل مجاميع الدوريات والكشافات والمستخلصات في عموم هذه المؤسسات متكاملاً ، بالاضافة إلى ضرورة الاشتراك في برامج جديدة للتعاون في هذا المجال مع مكتبات ومراكز معلومات متطورة على المستويين القومي والعالمي .

اما في مجال الاعلام عن الدوريات الجديدة فتشير النتائج الى ان ١٩،٦٪ من مجموع افراد العينة تصلهم قوائم ببليوغرافية بمحتويات الدوريات الجديدة في مجال اختصاصهم بينما ذكر ٥٣،٤٪ بأنهم لايستلمون مثل هذه القوائم وامتنع ٢٧٪ منهم عن الاجابة على هذا السؤال . مما يشير الى ضعف خدمات القسم في هذا الجانب .

وفي مجال الخدمات الفنية المتعلقة بتنظيم وعرض الدوريات فيبدو ان نسبة كبيرة من المستفيدين يجدون صعوبة في العثور على الدوريات التي يحتاجونها بسبب الطريقة التي يتبعها القسم في تنظيم وعرض الدوريات حيث اجاب ٥٥،٤٪ من العينة ان التنظيم الحالي للدوريات ضعيف في حين يرى ٤١،٥٪ منهم انه تنظيم مقبول الى حد ما ، وانفرد ٣،١٪ منهم بالقول انه تنظيم ممتاز .

وتجدر الأشارة الى ان القسم يقوم بعرض الأعداد الجديدة من الدوريات على الرفوف في قاعة المطالعة وتنظيمها حسب ارقام التصنيف دون استخدام علامات ارشادية لمساعدة المستفيدين في العثور على الدوريات المطلوبة ،اما الأعداد القديمة فتحفظ في مخزن القسم حسب نفس التنظيم ونظراً لازدحام الدوريات على رفوف المخزن وكثرة استخدامها فهي كثيراً ماتكون في غير اماكنها الصحيحة مما يضطر موظفي القسم الى قضاء وقت طويل في اعادة تنظيمها يومياً وهذا يكون على حساب الخدمات الأساسية التي يجب ان تستغرق وقت العاملين .

ان تنظيم الدوريات هجائيا حسب عناوينها وتزويد الرفوف بعلامات ارشادية مناسبة سيسهل استخدامها من قبل المستفيدين ويوفر للعاملين الوقت الكافي للالتفات الى الخدمات

الأساسية المتعلقة بتوفير المعلومات وارشاد المستفيدين الى كيفية استخدام الكشافات والمستخلصات ... الخ .

اما الفهرس المرئي للدوريات في وضعه الحالي فيعتبر مشكلة تعترض سبيل المستفيدين في الحصول على المعلومات الكافية عن دوريات القسم باعتباره القائمة الوحيدة في المكتبة التي تمثل الواقع الفعلي لمقتنيات القسم من الدوريات حيث لايحتوي الفهرس العام على مداخل للدوريات . والفهرس المرئي في القسم يفتقر الى المداخل الموضوعية والمداخل الأضافية والأحالات كما تنقصه مواصفات الوصف البيبليوغرافي الدقيق وهو غير مزود بوسائل ارشادية مما يزيد من صعوبة استخدامه ويجعل كفائته محدودة في الوصول الى المعلومات وفي محاولتنا لقياس مدى خطورة هذه المشكلة وعرقلتها في الوصول الى الدوريات المطلوبة تبين ان ٢٨,٤٪ من افراد العينة يرون انها مشكلة خطيرة غالبا ماتعترض طريقهم في حين يرى ٤٣,٧٪ انها مشكلة اعتيادية تعرقل طريقهم في بعض الأحيان . وانفراد ٢٧,٩٪ من العينة بالقول ان الفهرس المرئي لايعتبر مشكلة بالنسبة لهم .

والخلاصة ان اعادة تنظيم هذا الفهرس حسب المواصفات العالمية المعروفة تعتبر مسألة مهمة .

هـ – الموقف تجاه الكادر والخدمات التي يقدمها :

لاتتأثر الخدمات التي يقدمها قسم الدوريات بكمية ونوعية الدوريات والكشافات والمستخلصات التي يضمها القسم بل تعتمد على طبيعة ونشاط الكادر ومؤهلاته ومستوى ادائه . وقد سبق ان ذكرنا في بداية البحث شيئاً عن الكادر العامل لدى قسم الدوريات في المكتبة المركزية .

ان العلاقة بين الكادر وحاجة المستفيدين الى المساعدة والأرشاد في الوصول الى المعلومات تبدو اكثر وضوحاً في قسم الدوريات منها في الأقسام الأخرى وهذا يرجع الى طبيعة المواد التي يضمها القسم ونوعية الخدمات التي يفترض ان يقدمها والعلاقة المباشرة لكل ذلك بالبحث العلمي . ويشير الجدول (رقم ١٥) الى ان فقط ٧,٧٪ من مجموع افراد العينة

لايلجأون الى طلب المساعدة من الكادر في استخدامهم للقسم . اما النسبة المتبقية من العينة فتتوزع بين من يحتاجون الى مساعدة الكادر بصورة مستمرة اوفي احيان كثيرة اوفي ، بعض الأحيان اوبصورة نادرة . ان هذا يشير الى العلاقة الوثيقة بين حاجة المستفيدين ، وخدمات الكادر .

ويبدو ان موقف المستفيدين من دور الكادر في الخدمات الأرشادية الحالية للقسم (نؤكد على كلمة الحالية) معتدل ومقبول الى حدما . حيث يشير الجدول (رقم ١٦) الى ان ٧٧،١٪ من مجموع افراد العينة راضين عن دور الكادر في هذه الخدمات ويقيمون هذا الدور بين كونه ممتازا اوجيداً اوكافياً . اما النسبة المتبقية من العينة فيقيمون هذا الدور بين كونه غير كاف اوغير كاف بدرجة كبيرة اومعدوماً .

جدول رقم (١٥) حاجة العينة الى مساعدة الكادر وارشاده في استخدام قسم الدوريات

مدى الحاجة	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
دائماً	٢٥	١٣
غالبا	٤٥	٢٣، ٣
في بعض الأحيان	٨٤	٤٣، ٥
نادرا	٢٤	١٢، ٤
معدومة	١٥	٧، ٧

جدول رقم (١٦) موقف العينة تجاه دور الكادر في الخدمات الارشادية الحالية لقسم الدوريات

درجة التقويم	عدد المستجيبين	النسبة المئوية
ممتاز	٤٦	٢٣,٨
جيـيد	٥٢	٢٦,٩
كاف	٥١	٢٦,٤
غير كاف	٣٢	١٦,٦
غير كاف بدرجة كبيرة	٥	٢,٦
معدوم	٧	٣,٦

ان رضى المستفيدين بصورة عامة عن دور الكادر في الخدمات الأرشادية للقسم ليس مؤشراً على كفاءة خدمات القسم او مستوى كادره . فقد سبق ان اثبتت الدراسة وجود ضعف عام في جوانب عديدة من الخدمات التي يقدمها القسم ولابد ان يكون مستوى الكادر هو احد الأسباب المهمة في ضعف هذه الخدمات. وينبغي ان نؤكد على ان رضى المستفيدين مقصور على دور الكادر في الخدمات المقدمة فعلا وليس عن دوره في مايجب ان يقدم فأمام القسم كما اسلفنا خدمات كثيرة يجب مباشرتها وخدمات اخرى يجب اعادة النظر في طبيعتها وكفاءتها واسلوب تقديمها وهذا يتطلب كادراً مؤهلا ذو قدرة عالية على انشاء وتقديم الخدمات المطلوبة والتي تأتي في مقدمتها المشاركة في اختيار وتقويم المجموعة وتوجيه المستفيدين الى كيفية استخدام الكشافات والمستخلصات وقواعد المعلومات التي تعينهم على ايجاد المعلومات لبحوثهم الآنية والمستقبلية بالأضافة الى ايصال المعلومات الى المستفيدين حسب حقول اهتماماتهم وخاصة تلك المعلومات التي تمثل مااستجد في هذه الحقول .

ثانياً : نتائج المقارنة

في استعراضنا لمنهج الدراسة وادواتها ذكرنا ان الأسلوب الثاني الذي اعتمدناه في اختبار فرضيات البحث هو الأسلوب القياسي القائم على مقارنة مجموعة الدوريات وادوات الأستخلاص والتكشيف الموجودة في قسم الدوريات مع بعض القوائم البيليوغرافية والكشافات القياسية غير ان هذا الأسلوب اقتصرت فائدته فقط على اختبار وفحص الفرضية المتعلقة بعدم كفاءة مجموعة الدوريات وادوات التكشيف والأستخلاص في نوعيتها والتي عولجت ايضاً مع بقية الفرضيات من خلال الأستبيان، ان عملية المقارنة هذه قد سبقت عملية مسح اراء المستفيدين بواسطة الأستبيان فجاءت نتائج الأستبيان مكملة لنتائج المقارنة ومعززة لها.

وقد ادرجنا مجموعة من القوائم البيليوغرافية والكشافات القياسية التي يمكن الأعتماد عليها في المقارنة اما القوائم والكشافات التي استخدمت فعلا في المقارنة فهي تلك المتوفرة حالياً في المكتبة المركزية وهي بالتحديد :-

William katz Magzinas for libraries
Hunanities index
Social Science index
Science ciatation index
Current contents.

لقد تمت مقارنة قائمة تحتوي على اغلب عناوين الدوريات الأجنبية المتوفرة في القسم مع هذه القوائم والكشافات فتبين ان ٦٨,٢٪ من عناوين الدوريات هذه غير مذكورة في هذه القوائم والكشافات مما يؤكد ضعف المجموعة في نوعيتها .

والحقيقة ان المكتبة المركزية لاتتحمل لوحدها مسؤولية هذا الضعف في نوعية مجموعتها من الدوريات الأجنبية بل تتحمل الأقسام العلمية في الجامعة القسط الأكبر من هذه المسؤولية لأن جميع الدوريات يتم اختيارها من قبل تدريسي هذه الأقسام . وهذه سياسة اختيار قياسية تتبعها جميع المكتبات الأكاديمية بصورة عامة.

لقد كان لسياسة الأختيار هذه بعض الأفرازات السلبية تمثلت في جامعة الموصل في حقيقة معروفة لدى المسؤولين و هي ان الكثير من الدوريات يتم اختيارها من قبل التدريسيين بصورة فردية لتلبي اهتماماً ضيقاً يخص شخصاً بمفرده. وقد أكد السيد رئيس الجامعة على هذه الناحية في لقائه مع السادة عمداء الكليات ورؤساء الأقسام العلمية في الثامن من كانون الثاني عام ١٩٨٩ فيالمكتبة المركزية. واشار الى ان اختيار الدوريات يجب ان يتم عن طريق مجالس الأقسام وبأتفاق الأعضاء .

ان ارساء سياسة اقتناء افضل في الوضع الراهن تتطلب اجراء حوار بين مسؤولي المعلومات في المكتبة المركزية ورؤساء الأقسام العلمية ليتعرف الطرف الأخر على الخط الذي يسير به نمو مجموعة الدوريات في كل تخصص وعلى مايتوفر في المكتبة المركزية من قوائم ببليوغرافية و كشافات قياسية متخصصة.ومن نشرات للاصدارات الجديدة من للدوريات يمكن الأستعانة بها في تحديد المقتنيات الجديدة و معالجة المشاكل الأخرى.

اما فيما يتعلق بمجموعة الدوريات العربية فقد تم ايضاً مقارنة قائمة تحتوي على اغلب عناوين الدوريات العربية المتوفرة في قسم الدوريات مع قائمة تمثل موجودات المكتبة المركزية بجامعة بغداد من الدوريات العربية. وقد تم اختيار مجموعة قسم الدوريات في المكتبة المركزية بجامعة بغداد في هذه المقارنة لسببين اساسيين اولهما : عدم وجود قوائم ببليوغرافية وكشافات قياسية للدوريات العربية يمكن الأعتماد عليها او الوثوق بها في هذه المقارنة وثانيهما: تشابه التخصصات العلمية بين جامعة الموصل وجامعة بغداد . ويفترض ان يؤدي هذا التشابه الى تشابه مقابل في مجاميع الدوريات .

وقد تبين في المقارنة ان حوالي ٧٠٪ من عناوين الدوريات العربية في المكتبة المركزية لجامعة الموصل تتشابه مع عناوين الدوريات في قوائم المكتبة المركزية لجامعة بغداد مما يشير الى ان مجموعة القسم من الدوريات العربية مقبولة وتفي بالغرض الى حدما .

التوصيات والمقترحات :

١ – يجب ان تتلقى المكتبة المركزية الدعم الكافي من الناحية المادية والفنية من اجل استكمال مجاميعها من الدوريات والكشافات والمستخلصات بما يتلائم مع حاجة التدريسيين وطلبة الدراسات العليا القائمة والمستقبلية وبما يتناسب مع حركة البحث العلمي وحجم الدراسات العليا في الجامعة، هذا بالأضافة الى ضرورة الأسراع بأتخاذ الأجراءات اللازمة لطلب الأعداد الناقصة والأعداد السابقة من الدوريات لسد الثغرات التي تعاني منها المجموعة. وهذا ما يجري تنفيذه حالياً.

٢ – من اجل وضع سياسة اقتناء افضل نقترح ان يتم حوار بين مسؤولي المعلومات في المكتبة المركزية ورؤساء الأقسام العلمية لكي يتعرف الطرف الأخير على الخط الذي يسير به نمو مجموعة الدوريات في كل تخصص وعلى مايتوفر في المكتبة من قوائم ببليوغرافية وكشافات قياسية وادوات اخرى عامة ومتخصصة يمكن الأعتماد عليها في تحديد المقتنيات الجديدة من الدوريات.

٣ – لتعميق دور التدريسيين في اغناء مجاميع القسم بعناوين الدوريات الجديدة التي الأهتمامات الفعلية للاقسام العلمية نؤكد على ضرورة وضع سياسة اقتناء تلزم تمثل الأقسام العلمية بأن يتم اختيار عناوين الدوريات الجديدة عن طريق مجالس الأقسام وبأتفاق جماعي للاعضاء.

٤ – ان وجود نقص كبير في مجاميع الدوريات والكشافات والمستخلصات الحالية والسابقة يتطلب من المكتبة المركزية ان تسعى لأقامة علاقات تنسيق وتعاون مع المكتبات الجامعية الأخرى في القطر سواء كان ذلك في تبادل الدوريات والمقالات المصورة او في التنسيق بأتجاه جعل مجاميع الدوريات في عموم هذه المكتبات متكاملا.

٥ – وكخطوة اولية لتحقيق التوصية السابقة لابد ان تتوفر المكتبة المركزية امكانية احياء مشروع الأقتناء التعاوني للدوريات والذي بدأ كما ذكرنا، عام ١٩٨٦ وانتهى في نفس العام قبل ان يعطي ثماره. ان نجاح هذا المشروع يمكن ان يكون بداية الطريق لتحقيق التكامل في مجاميع الدوريات بين مكتبات مؤسسات التعليم العالي.

٦ — نظراً للوقت الطويل الذي يمكن ان تستغرقه عملية استكمال مجاميع الدوريات . الحالية واكمال الأعداد الناقصة والسابقة وارساء سياسة التكامل مع مجاميع المكتبات المماثلة الأخرى نقترح زيادة عدد الكشافات والمستخلصات العامة والمتخصصة وبواقع كشاف واحد على الأقل لكل تخصص من تخصصات الأقسام العلمية في الجامعة لما لهذه الأدوات من اهمية في تغطية اعداد هائلة من الدوريات لايمكن لاي مكتبة اقتناءها بالكامل.

٧ — ان زيادة عدد الكشافات والمستخلصات في المرحلة الراهنة يتطلب زيادة الحصة السنوية للتدريسيين وطلبة الدراسات العليا من كوبونات مكتبة الاعارة البريطانية ومؤسسة ISI في الولايات المتحدة المستخدمة حالياً بالاضافة إلى ضرورة فتح قنوات جديدة لطلب مصورات البحوث والمقالات من مؤسسات اخرى مماثلة وامكانية استخدام التلكس للاسراع في طلب هذه المصورات .

٨ — ان التعويل على استخدام الكشافات والمستخلصات لتعويض النقص في مجموعة الدوريات في المرحلة الراهنة يتطلب اعادة النظر في برنامج ارشاد القراء الذي تقدمه المكتبة المركزية بحيث يتم من خلال هذا البرنامج اعداد وحدات تعليمية Packages الهدف منها تعليم المستفيدين كيفية استخدام هذه الأدوات في الحصول على المعلومات من داخل وخارج المكتبة .وهذا يتطلب ايضاً تنشيط دور مسوء ولي المعلومات في هذا المجال. ان اهمية هذه التوصية تكمن فيما كشفت عنه الدراسة من ان نسبة كبيرة من المستفيدين. يعرضون عن استخدام الكشافات والمستخلصات بسبب عدم معرفتهم كيفية وطرق استخدامها .

٩ — نظراً لما كشفت عنه الدراسة من ضعف في مجال اعلام المستفيدين بمحتويات الأعداد الجديدة من الدوريات التي تصل المكتبة بسبب محدودية عدد النسخ المطبوعة من قوائم هذه المحتويات نقترح زيادة عدد النسخ المطبوعة منها مستقبلا بمايتناسب مع عدد الباحثين في الجامعة .

١٠ — وضع الخطط الكفيلة لتدريب وتطوير الكادر العامل في القسم على استخدام الكشافات والمستخلصات وعلى طرق الأتصال السريع والفعال مع الباحثين من اجل

ايصال المعلومات اليهم في الوقت المناسب وتقليل الضغط الملقى على عاتق مسؤولي المعلومات في المكتبة.

١١ — اعادة تنظيم الدوريات المعروضة على رفوف القسم حسب عناوينها او مواضيعها وتزويدها بعلامة ازشادية مناسبة لتسهيل استخدامها من قبل المستفيدين خصوصاً وان الدراسة قد اثبتت ان نسبة عالية من المستفيدين يجدون صعوبة في العثور على الدوريات التي يحتاجونها بسبب الطريقة الحالية التي يتبعها القسم في تنظيم وعرض الدوريات، ان اعادة التنظيم سيقلل من حاجة المستفيدين الى الكادر في مجال العثور على الدوريات المطلوبة وسيوفر الوقت الكافي لكادر القسم للالتفات الى الخدمات الأساسية التي اشرنا اليها .

١٢ — اعادة تنظيم فهرس الدوريات عن طريق اكمال الوصف البيليوغرافي للمداخل واعداد مداخل موضوعية واضافية واحالات مناسبة ....الخ، ومن المفضل ادراج مداخل الدوريات الموجودة في القسم ضمن الفهرس العام للمكتبة.



المصادر :

١ - ميخايثلوف،اي. اي، كاليريفسكي، آر، أس. مدخل في علم المعلومات والتوثيق ترجمة نزار محمد علي قاسم .الموصل :جامعة الموصل، ١٩٨٢، ص٣٩.

٢ - رجب، ماجد حموك. المجلة العلمية عام ٢٠٠٠: ورقية ام الكترونية. التوثيق الأعلامي ، مج٥، ع٢، ١٩٨٦، ص١٩.

٣ - الحسو، احمد عبد الله واخرون، مكتبات جامعة الموصل ودورها في الجامعة والمجتمع ،الندوة العلمية والتربوية الرابعة لجامعة الموصل، ٨-١٠ أيار. ١٩٨٥. الموصل،جامعة الموصل ، ١٩٨٥، ص١٨١.

4. Bowns, R.B. and Heussman, J. W. "Standards for University Libraries" College and Research Libraries, V. 31, 1970, P. 28.

5. Williams, E.E., (etal), Library Surveys, New york: Columbus University Press, 1977. P. 190.

6. Lancaster, F.W., Evaluation of Library Collection: Measurment and Evaluation of Library Services, Washington : Info rmation Resource Press, 1977, P. 400.

7. Clapp, V.W. and Jordan, R.T. 'Qualitative Criferia for Adequency of Academic Library Collection 'College and Research Libraries, V. 26, 1965, P. 371.

8. Ibid, P. 347.

9. Wilson, T.D. The Evaluation of Bibliographical Resources Leyden: International Publishing Co., 1977, P. 29.

10. Lancaster, Op. Cit., P. 174.

11. Williams, E.E., (et al), Op. Cit., P. 23.

12. Bonn, G.S. "Evaluation of the Collection," Library Trends V. 22, No. 3, 1974, P. 279.

13. Ibid, P. 279.
14. Lancaster, Op. Cit., P. 174.
15. Ibid, P. 478
16. Ibid, P. 167.

١٧ ـ الحسو : احمد عبدالله (واخرون) .المصدر السابق : ص١٨٢.

١٨ ـ اسماعيل : سعد احمد، تقويم برنامج خدمات المعلومات في المكتبة المركزية لجامعة الموصل . مجلة آداب الرافدين . ع ١٧ . تشرين ثاني ، ١٩٨٧ص ١٤٠